بصائر المعرفة القرآنية ﴿3﴾

تسوير السور القرآنية ﴿2﴾

الوسيط

سورة البقرة

﴿الزهراء الأولى﴾

عمود السورة (موضوعها الكلي)

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ الدراسات القرآنية/ كلية الشريعة/ جامعة قطر

بصائر لمعرفة القرآنية «3»

تيسير السور القرآنية «2»

الوسيط

سورة البقرة { الزهراء الأولى }

عمود السورة (موضوعها الكلي)

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم

والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ الدراسات القرآنية/ كلية الشريعة/ جامعة قطر

قرآن يتلىٰ لإنسانية ترقىٰ

مقدمة

الحمد لله الذي لا إله الا هو الحي القيوم، عالم الغيب والشهادة، القائم بالقسط، الملك الحق المبين، والصلاة والسلام على قائد الخير محمد وعلى أنبياء الله أجمعين، وعلى الآل والصحب المكرمين.

وبعد: فهذا كتاب (الوسيط) لـ(بصائر المعرفة القرآنية في سورة البقرة- التفسير الكلي)، أقدمه لك في شرائح عرض مبتكرة لترى وجهًا مذهلًا من أوجه البينة القرآنية المتجددة المعجزة، وأرجو أن تجد فيها التدبر الأقرب الذي يبين لك سر (تسوير) سورة البقرة، وذلك بأسلوب مختصر جذاب.

اجتهدت أن تناسب المتدبر والمتعلم والمعلِّم، والقارئ المسلم وغير المسلم، وأن تكون منهجًا للمدارسة في الدورات العلمية والتعليمية.

كان يفترض بهذا المنهج أن يخرج قبل ست سنوات بعد تأملٍ شارف مثلها، وبعد أن قمت بتدريسه في عدد من الدول، لكنها قواطع الطريق المانعة.

فإليك -أيّدك الله- خلاصة الليالي والأيام، وزبدة الفكر والأفهام، عصرتُ فيه عقود تحصيلي، وجهود تأصيلي، جعلته ضمن أهم مشاريع حياتي، وأنفقت عليه أعز أوقاتي، وما برحتْ أمانيه تساورني حتى سوّرتها، وما فتئتْ مصاعبه تراودني حتى كسرتها، حتى أنشرتني خلقًا جديدًا، وأنشزت أمامي نهجًا سديدًا.

سورة البقرة: بهر فؤادي جمال معانيها، وروعة مبانيها، وفسحة مغانيها، جددت لجسدي شبابه، وأزالت عن قلبي عذابه، وخففت عن فكري أنصابه وأوصابه (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (يونس 58). ما إن شرعت في أولها؛ إلا وتتابعت أخواتها، فخذ منها حسناتها؛ ولا تشغلنّك هفواتها، وكما قال صاحبي محمد المثيل:

ولا تبخل علي ببذل نصحٍ *** أداوي منه إخفاقي وضعفي
فلا يخلو كتاب من عيوب *** كذاك خليقتي في أصل وصفِي

وبعد طول تأمل ومعاودة تدبر حاولت أن أتجه إلى صراط مستقيم في معرفة عمود السورة الذي يمثل الموضوع الكلي لها، فاستقررت على أنه:

إشراق الحضارة الإسلامية الجديدة على العالم،

والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية

تأتي سورة البقرة لتبشر الإنسان بإشراق الحضارة التي تنقذه من آلام النفس الذاتية، ومن إجرام تجار الإنسان الذين يغتالون المصلحين، ويعتدون على المستضعفين، ويخرجون الآمنين من ديارهم.

تشرق سورة البقرة لتغيث الإنسانية من لهيب الطغيان العالمي، لتمنح كل فردٍ حقه في معرفة ربه، وليتنعم بحياة تمتلئ بالإيمان وإنفاق المال على حبه على الأقرباء والضعفاء.

تقدم سورة البقرة الآيات البينات مسلمة لا شية فيها لتعبر عن أعظم برهان تشتاق لسماعه الأكوان، فعسى أن يجد القارئ في هذه البصائر بردًا وسلامًا لنفسه الظامئة إلى الحقيقة، وأن يلمس فيه أنوارًا صافية ذات بهجة تسر الناظرين والمتأملين.

أشكر إذاعة القرآن الكريم في قطر، وكل من أسهم في إخراج هذا الكتاب ماديًا وعلميًا، وقام بتحكيمه ومراجعته، وأشكر الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم في قطر لتبنيها نشر هذا الكتاب. اللهم آتهم أفضل ما آتيت عبادك الصالحين.

اللهم انشر بهذا الكتاب نور القرآن في العالمين، واجعل لي به لسان صدق في الآخرين يا أرحم الراحمين.

عبد السلام مقبل المجيدي

الأربعاء 26 ربيع الآخر 1443 هـ

الموافق 1 ديسمبر 2021 م

بصائر المعرفة القرآنية {3}

سورة البقرة {الزهراء الأولى}

عمود السورة (موضوعها الكلي)

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم
والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية

{الوسيط}

بين يدي سورة البقرة

النور الأول:

من فضائلها

الفضيلة الأولى:

هي سنام القرآن

قال ﷺ: ((إن لكل شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة)) «الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي»، فسورة البقرة تمثل أرفع ما في القرآن من السور الجامعة للأحكام المختلفة الإجمالية، والتفصيلية.

الفضيلة الثانية:

فيها آية الكرسي؛ سيدة آي القرآن

فعَنْ أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ ﷺ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ «وَاللَّهِ، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ، أَبَا الْمُنْذِرِ». «مسلم».

الفضيلة الثالثة:

خاتمتها آيتان من كنز تحت العرش، فيهما الكفاية التامة

قال ﷺ: ((إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام، وأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان)). «الترمذي، وقال: حسن غريب»، وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَلَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي)) «أحمد، وصححه الأرناؤوط لغيره».

الفضيلة الرابعة:

تمثل الحماية الخاصة الدنيوية من الشياطين، وكيد السحرة، وأصحاب الشرور

فقد قال ﷺ: ((اقْرَؤوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ)). «مسلم». وقال ﷺ: «لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ» «مسلم»

الفضيلة الخامسة:

هي الزهراء الأولى؛ التي تمثل المرافقة الخاصة الأخروية

فالزهراوان تمثلان محامي الدفاع المرافق لقارئهما يوم القيامة؛ فقد قال ﷺ: ((اقْرَؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا)). «مسلم».

الفضيلة السادسة:

أول السبع الطوال، وحفظها يدل على التأهل العلمي

فقال ﷺ قال: ((أعطيت مكان التوراة السبع، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل)) «أحمد»، وقال ﷺ: ((من أخذ السبع الأول، فهو حبر)). «أحمد».

الفضيلة السابعة:

أحد المؤهلات القيادية، وخاصة في البعثات الخارجية، لمن يحفظها واعياً بمقاصدها، عاملاً بها، معلماً لها؛

فبعث رسول الله ﷺ بعثاً، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سنا فقال: ما معك يا فلان؟ قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة. قال: أمعك سورة البقرة؟ فقال: نعم!! قال: فاذهب فأنت أميرهم. فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: ((تعلموا القرآن، فاقرءوه، وأقرئوه؛ فإن مثل القرآن لمن تعلمه، فقرأه، وقام به كمثل جراب محشوا مسكا يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه، فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكئ على مسك))

«الترمذي، وابن حبان».

الفضيلة الثامنة:

المؤنسة لصاحبها:

فعن أُمّ الدّرْدَاءِ رضي الله عنها قالت: (إنّ رَجُلًا ممّنْ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ أَغَارَ عَلَى جَارٍ لَهُ فَقَتَلَهُ، وَإِنّهُ أَقْيَدُ مِنْهُ فَقُتِلَ، فَمَا زَالَ الْقُرْآنُ يَنْسَلُ مِنْهُ سُورَةٌ سُورَةٌ، حَتّى بَقِيَت الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ جُمُعَةً، ثُمّ إنّ آلَ عِمْرَانَ انْسَلّتْ مِنْهُ، وَأَقَامَت الْبَقَرَةُ جُمُعَةً، فَقِيلَ لَهَا: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (ق: 29) قَالَ: فَخَرَجَتْ كَأَنّهَا السّحَابَةُ الْعَظِيمَةُ). قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: أُرَاهُ يَعْنِي أَنّهُمَا كَانَتَا مَعَهُ فِي قَبْرِهِ تَدْفَعَانِ عَنْهُ وَتُؤْنِسَانِهِ، فَكَانَتَا مِنْ آخِرِ مَا بَقِيَ مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ)

النور الثاني:

عمود السورة وهو موضوعها الكلي الذي لأجله سُوِّرَت آياتها بها:

إشراق الحضارة الإسلامية الجديدة على العالم، والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية

فالسورة تؤسس للحضارة الإسلامية التي تشرق على العالم بحنانها ورحمتها انطلاقًا من المدينة، وتقدم الأنموذج الناجح للاستخلاف في الأرض، من خلال الإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية، وتقوم على نظامٍ دستوري إلهي عماده التقوى، والأساس العملي للتقوى (سمعنا وأطعنا)

أسس اختيار هذا الموضوع ليمثل الموضوع الكلي لسورة البقرة

الأساس الأول

النزول التاريخي

الأساس الثاني

الترتيب المصحفي

الأساس الثالث

اسم هذه السورة المباركة (البقرة) وعلاقته بالموضوع الكلي للسورة

الأساس الرابع

المواضيع الكبرى التي تضمها السورة

الأساس الخامس

مدد السابقين في تعيين سبب تسوير سورة البقرة

الأساس السادس

الخريطة الكلية التي تظهر المحاور العامة لسورة البقرة

أسس اعتبار هذا الموضوع ليمثل عمودًا لسورة البقرة "موضوعها الكلي"

الأساس الأول: "النزول التاريخي، والفجر الجديد"

أولاً **السراج المنير يبحث عن مكان لينقذ العالم**

بحث النبي ﷺ طويلًا عن مكان مناسب يشكل حصنًا لدعوة الخير التي يشرق بها على العالم، ومركزًا لنور العدل الذي يخلص الناس من ظلمات الوثنية والجاهليات والظلم، وتجبر الأكاسرة، وتلاعب القياصرة بالبشرية.

ثانياً **تجربة الحبشة وعدلها:**

أرسل النبي ﷺ المظلومين من أصحابه إلى الحبشة ليجدوا فيها ملجأً، وربما مركزاً للعدل القادم بالإسلام.

ثالثاً **فزع القوى الوثنية من تحول الحبشة إلى مركز لنور الإسلام:**

أرسلت وفدًا رفيع المستوى مكونًا من: عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وعمرو بن العاص السهمي.

رابعاً

- وسيلة التأثير: الرُشا والأموال المسمومة .
- الهدف: التفاوض على إرجاع المهاجرين.
- الواقع: تكوين الوفد القرشي (اللوبي) مجموعة الخيانة للتأثير على صنع القرار في قصر النجاشي.

خامساً **جعفر بن أبي طالب يستغل الفرصة لقلب الطاولة على الوفد الوثني، ويدعو إلى نور الإسلام:**

فقال: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة...

سادساً

قرأ جعفر على النجاشي أول (سورة مريم.. كهيعص) فبكى النجاشي، حتى أَخضَل(بلّ) لحيتَه. وبكت أساقفته حتى أخضَلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ثم قال النجاشي ان هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.

سابعاً

الغدر والتشويه سلاح المعتدين لصنع الانتصار:

حاول عمرو رضي الله عنه استثارة النجاشي بمخالفة المسلمين لهم في عيسى عليه السلام

قال جعفر رضي الله عنه: نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ هو: عبد الله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

النتيجة: تأثر النجاشي بالقرآن، ولم يتحقق للوفد القرشي هدفه في استثارته ضد المسلمين، فخابت مساعيهم.

ثامناً

تجربة الطائف وقسوتها:

- **الهدف:** إيجاد عاصمة لتنشر الحضارة الجديدة نورها في العالم.
- **الواقع:** تجربة شاقة شديدة الألم

تاسعاً

تحدث النبي ﷺ عن قسوة تجربة الطائف، روى البخاري عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ؛ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ؛ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ).

عاشراً

جاء الأنصار أخيرًا: فهم المختارون في الاصطفاء الإلهي لينصروا حضارة العدل الجديدة:

روى أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة، وفي المواسم بمنى، يقول: (من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة؟) حتى إن الرجل ليخرج من اليمن، أو من مصر -كذا قال- فيأتيه قومه، فيقولون: احذر غلام قريش، لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم، وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه، وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به، ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين، يظهرون الإسلام..)

الحادي عشر

حدث هز العالم وغير التاريخ:

سورة البقرة أَول سورةٍ نزلت بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.. هذه الأولية التاريخية في النزول المدني لها دلالاتٌ عظيمة في وضع قواعد إنشاء الأمة الإسلامية لتشرق بنورها على العالم

الثاني عشر

علاقة وطيدة بسورة المطففين التي نزلت قبلها: بناء اقتصاد السوق:

سورة (المطففين) حيث نزلت (إما في مكة أو المدينة أو بينهما)، لتؤسس القواعد المالية المانعة من الظلم الاقتصادي. ولكن لماذا الاقتصاد؟

لاقتصاد عمدة الحكم المدني المستقل، وإقامة الاقتصاد العادل، وكسر احتكار الأسواق من قبل القوى اليهودية المرابية، والقوى الوثنية

توقيت النزول

1 هي أَول سورة نزلت بعد هجرة النبي صلّى الله عليه وسلم إِلى المدينة...

فارتبط نزولها بتأسيس حضارة الهدى، والنور، والرشد، وظهورها في الواقع العالمي لتزيل احتكار الشرعية الدولية المزورة الظالمة، التي اقتسمت النفوذ فيها دولتا فارس والروم، في الوقت الذي سيطرت فيه القوى الوثنية والمحرفة على زمام الأمور في جزيرة العرب، فارضة أبشع أنواع الظلم، والعبث بمصير البشرية.

2 وانظر جمال الإحكام القرآني لتشيد الحضارة البشرية حيث أنزل الله أنزل قبلها في الطريق إلى الهجرة: سورة (المطففين)

حيث نزلت في طريق الهجرة المباركة؛ لتؤسس القواعد المالية المانعة من الظلم الاقتصادي.

3 لم يتمكن النبي ﷺ في مكة من إقامة حضارة النور الإسلامية؛ لشدة منابذة القوى الجاهلية هناك، وهذا كما قال بعض الأنصار:

ثَـوَى فِـي قُرَيْـشٍ بِضْـعَ عَشْـرَةَ حِجَّـةً ... يُذَكِّـرُ لَا يَـلْقَى صَـدِيقًا مُـوَاتِيَـا

وَيَعْـرِضُ فِـي أَهْـلِ الْمَوَاسِـمِ نَفْسَـهُ ... فَلَـمْ يَـرَ مَـنْ يـؤوي وَلَـمْ يَـرَ دَاعِـيَـا

فَلَمَّـا أَتَانَـا وَاسْـتَقَرَّ بِـهِ النَّـوَى ... وَأَصبَـحَ مَسْـرُورًا بِطَـيْبَةَ رَاضِيَـا

وَأَصْبَـحَ لَا يَخْشَـى ظُلَامَـةَ ظَالِـمٍ ... بَعِيـدٍ، وَلَا يَخْشَـى مِـنَ النَّـاسِ بَـاغِيَـا

بَذَلْنَـا لَـهُ الْأَمْـوَالَ مِـنْ جُـلِّ مَالِنَـا ... وَأَنْفُسَـنَا عِنْـدَ الْوَغَـى وَالتَّآسِـيَا

نُعَـادِي الَّـذِي عَادَى مِـنَ النَّـاسِ كُلِّهِمْ ... جَمِيعًـا، وَإِنْ كَانَ الْحَبِيـبَ الْمُوَاسِـيَا

نَعْـلَمُ أَنَّ اللَّـهَ لَا شَـيْءَ غَيْـرُهُ ... وَأَنَّ كِتَـابَ اللَّـهِ أَصْبَـحَ هَادِيَـا

وصارت (سورة البقرة) رمزاً للنهوض الإسلامي في رفع الظلم والعدوان كما كانت بداية له

فيحكي العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه في معركة حنين حين انكسر المسلمون ذكّرهم النبي ﷺ بعهد سورة البقرة، فقال: ((الآن حمى الوطيس. نادِ: يا أصحاب سورة البقرة))

فلما سمعوا النداء أقبلوا، فوالله ما شبهتهم إلا إلى الإبل تجيء إلى أولادها «أحمد»

الأساس الثاني: "الترتيب المصحفي"

هذه السورة في ترتيبها الحكيم من المصحف:

بعد الفاتحة:

لأنها تضع أسس التفاصيل الأولى للمبادئ الجامعة للإسلام في سورة الفاتحة، وتعطي الاستجابة الإلهية لدعاء المؤمن في الفاتحة عندما دعا الله عزوجل بأن يهديه الصراط المستقيم في الفاتحة.

وقبل سورة آل عمران:

لأن الكلام مع اليهود مقدم من الناحية التاريخية والمكانية والموضوعية، فاليهود هم الفريق الأقدم، والأقرب إلى التوحيد حينها

وقبل سائر القرآن الكريم:

لأن سورة البقرة تمثل المقدمة الكبرى للتفاصيل الدقيقة التي نراها في بقية سور القرآن الكريم

الأساس الثالث: "اسم هذه السورة المباركة (البقرة)، وعلاقته بالموضوع الكلي للسورة"

الضياء الأول:

(تسوير السورة) إعجازٌ لفظيٌ ومعنويٌ فريد

لم يسم الله جل مجده منزلُ القرآن الفصولَ التي تكون منها القرآن المجيد فصولًا، ولا أبوابًا، ولا موضوعات بل سماها سورًا.

أهل الكتاب يقلدون القرآن، وليس العكس: سانتيس بانينو الراهب الدومينيكاني يقسم نص كتابهم المقدس إلى آيات عام 1527م، وفي عام 1551م قسم العالم الفرنسي روبير إتيان الأصحاحات إلى أعداد كما تعرف اليوم تقريبًا

العالم يجد رجلًا أميًا هو محمد ﷺ يخبرنا بدقة شديدة عن تقسيم هذا الكتاب الإلهي إلى (أربع عشرة ومائة سورة)، و(6236) آية، ووفق بيان دقيق لآيات كل سورة.

الضياء الثاني:

معنى (الآية) والمجد الذي تكتنزه

النوع الأول: آيات القرآن المجيد:

فالآية منها هي الجملة المفصولة المتكونة من مجموعة كلمات بشكل خاص كما قال تعالى جده:

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ (فصلت 3)

النوع الثاني: المعجزات المادية:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء 59)

النوع الثالث للآيات: العجائب الكونية:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (الروم 20)

الضياء الثالث:

خواص كلمة (سورة)

الخاصية الأولى:

المنزلة الرفيعة للسورة: قَالَ النّابِغَةُ:

أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَعطاكَ سُورَةً تَرَى كُلّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ

أَي شَرَفًا ورِفْعَة.

الخاصية الثانية:

أنها كاملة متكاملة حيث مثلت سُوْرًا للآيات

الخاصية الثالثة:

هي دَرَجَةٌ إلى غَيرهَا، فهي درجة إلى المعرفة الحقيقية للكون، فهي مشتقة أيضًا مما طالَ من البِنَاءِ وحَسُنَ

تسوير السورة لا بد له من امتياز خاص

لاحظ الطيبي أن من منابع الإعجاز البحث عن سبب (تسوير السورة) فقال في فتوح الغيب: "ولهذا السر كان التحدي بالسورة وإن كانت قصيرة، دون الآيات وإن كانت ذوات عدد"

البناء المنطقي للسورة، وغيث المعاني المنهمر:

كل سورة لها شخصيتها المميزة التي لأجلها (سُوِّرت السورة)، وصارت علمًا على مُلْكٍ معرفي عظيم، سيد: "وهكذا تتكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق من التناسق والاتساق...كالكائن الحي الذي تجده مميّزًا في سماته وملامحه، وهو - مع هذا - واحد من جنسه على العموم! ونحن نرى في هذه السورة - ونكاد نحس - أنها كائن حي، يستهدف غرضًا معينًا، ويجهد له، ويتوخى تحقيقه بشتى الوسائل.. والفقرات والآيات والكلمات في السورة، هي الوسائل التي تبلغ بها ما تريد!

الضياء الرابع:

هل تسميات السور توقيفية أم اجتهادية؟

قال الطبري رحمه الله: "لِسوَر القرآن أسماءٌ سمّاها بها رسول الله ﷺ ".وقال سليمان البجيرَمي رحمه الله في "تحفة الحبيب على شرح الخطيب": "أسماء السور بتوقيف من النبيّ ﷺ؛ لأن أسماء السور وترتيبها وترتيب الآيات كل من هذه الثلاثة بتوقيف من النبيّ ﷺ "

الضياء الخامس:

إشراقات نظام تسمية السور القرآنية

1

لم تأت تسميتها على النسق الموضوعي، فلا تجد سورة تسمى: (العبادات، أو المعاملات، أو الصلاة، أو الزكاة، أو السياسية، أو الاقتصاد، أو السنن الكونية..) إلا في سور محددة، مثل سورة القتال، والتوبة.

2

ولا تجد كثيراً من السور اتخذت تسمياتٍ تاريخية، فلم تسمّ سورة الأنفال باسم معركة: (بدر)، مع أنها تتكلم عنها منذ أول آية.

3

ألا ترى أن تسميات السور جاءت على نسقٍ واضحٍ لأسماء الرموز الإسلامية المباشرة، مثل أسماء المسلمين من آل، وبقية الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين-، إلا ما ورد من تسميات السور بأسماء بعض الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، على نحو يستدعي التأمل في التخصيص، مثل سورة هود -عليه السلام-، الذي لم تكن قصته في سورته أكبر من قصة غيره.

4

تجد أسماء السور اتُبِعَ فيه الأسلوب الرمزي المثير للنظر، والتفكير، كالبقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، ومن أسباب ذلك:

السبب الأول:

التميز في تفصيل القرآن الكريم؛ إذ لم يأت وفق أساليب التأليف البشرية المعتادة.

السبب الثاني:

لأن القرآن كتاب جمع بين خمسة مقاصد مجتمعة:

- الهداية
- والتربية
- والموعظة
- والتشريع
- والإعجاز

ويتم استخراج ذلك كله بإعمال الاجتهاد البشري عمله، وفق مصادر التفسير المرعية من خلال:

- التدبر
- والتفكر
- والتعقل.

الضياء السادس:

لماذا هذه التسمية الفريدة المدهشة للزهراء الأولى وهي أكبر سور القرآن المجيد: (البقرة)؟

من أسباب تسمية هذه السورة بـ(البقرة)

السبب الأول:

هذه التسمية تدل على البناء التنظيمي والدستوري المبكر لحضارة الإسلام التي تشرق على العالم من المدينة؛ وتناسب الكيفية التي ينبغي أن تكون عليها أمة الرحمة للعالمين في المجالات الفردية والجماعية، فلا يبنون مجتمعهم وفق عقلية أصحاب البقرة الإسرائيلية التي تقوم على الاستهزاء وعدم أخذ الكتاب بقوة، والتستر على الجرائم

السبب الثاني:

معرفة النفسية الإسرائيلية، وأثر التعامل معها على أمة الإسلام إيجاباً وسلباً، فتعلمنا سورة البقرة أن ننظر كيف تكون علاقاتنا معهم في الجانب السلبي والإيجابي وفق بيان هذه السورة المشرق.

السبب الثالث:

الإشارة إلى الغنى الزاخر للمعرفة القرآنية بالمعلومات التفصيلية الدقيقة، فاكتنز ذكر بقرة بني إسرائيل إثارةً كافية لبني إسرائيل ولغيرهم لجذب انتباههم إلى مصدرٍ ثريٍ مليءٍ بالمعلومات التي يقتصر ذكرها على خاصتهم؛ لأن قصة البقرة المذكورة غير مشهورة عندهم

السبب الرابع:

قصة البقرة بينت أن تحقيق الفلاح والفوز الفردي والجماعي مرتبط بالإيمان الغيبي، فقد أمرهم نبيهم بشيء يتعلق بالغيب فقابلوه بالاستهزاء والتشكيك والريب، فصارت (البقرة) مدخلاً لفهم القلوب البشرية التي انقسمت إلى نوعين:

الأول: القلوب العاقلة التي تؤمن بالغيب كالشهادة، وتتبع مبدأ: ﴿سمعنا وأطعنا﴾ أمام الأنظمة الإلهية.

الثاني: القلوب القاسية التي مُسخت ففاقت الحجارة في قسوتها وإفسادها الأرض.

الأساس الرابع: "المواضيع الكبرى في السورة التي تهدي إلى الموضوع الكلي"

الموضوع الأول:
الارتقاء بالبشرية من مرتبة العبودية إلى مرتبة (التقوى)

شكلت سورة البقرة منظومة واسعة في بيان التقوى ووسائلها، وآثارها العظيمة في السعادة الإنسانية الدنيوية والأخروية، فبدأت بالتقوى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة 2)، وختامها الترتيبي اقترن بالتقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة 282)

وختامها التاريخي بالتقوى؛ حيث كان آخر ما نزل من القرآن قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (البقرة 281)، فالتقوى تعني الحماية من الحساب بين يدي الله، وذلك يقتضي الحماية من المخافات المستقبلية الدنيوية، والأخروية. التقوى أعظم الغايات الإنسانية، وهدف الأهداف الحيوية

الموضوع الثاني:
هي سورة بناء المجتمع المسلم

يمكن القول بأن سورة البقرة تدور حول موضوع نظام المجتمع المسلم؛ فوسم الطاهر بن عاشور- رحمه الله تعالى- هذا المعنى بأنه الجامعة الإسلامية أي القوم المجتمعون على الإسلام الذين يكونون ضمن المدينة المستقرة النامية، وليس البادية المتنقلة الظاعنة

أنشأت هذه السورة المجتمع المتكامل في تنظيماته الداخلية، وعلاقاته الخارجية، فمثلت دستوراً متكاملاً يضم المواد المتعلقة بإنشاء الحياة المدنية، وتنميتها، وحمايتها

نظام المجتمع المسلم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتقوى، فهي النقطة المركزية في المجتمع المسلم في العبادات الذاتية، والأحكام التشريعية والقضايا السياسية والإدارية

الموضوع الثالث:

الخلافة الإنسانية في الأرض

ذكرت هذه السورة أصل الاستخلاف الإنساني ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة 30)

وفصّلت وسائل النجاح في هذا الاستخلاف من الناحية الفكرية (الإيمان) والعاطفية، والعملية (العبادات والأخلاق) وقصّت قصة أنموذج للاستخلاف الفاشل: (الاستخلاف الإسرائيلي في عهد موسى)

وبيّنت أنموذجين للاستخلاف الناجح: (الاستخلاف الإبراهيمي، والإسرائيلي في عهد داود)، كان ذلك كله ملهمًا للأمة الإسلامية الخاتمة لترث الملة الإبراهيمية تطبيقاً ونشراً، وتنجح في نظام الاستخلاف

الموضوع الرابع:

جعلت الأمة المسلمة وارثة للملة الإبراهيمية، ولذا أرجعت للقبلة الأصلية مكانتها؛ لتشكل عاصمة للإلهام العالمي

1 اجتمع على إمامة إبراهيم عليه السلام اليهود والنصارى والمسلمون، ووراثته لا تكون بالانتساب بل بالاكتساب ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة 124)

2 جدد إبراهيم بناء أول بيت وضع للناس مع ابنه إسماعيل عليه السلام، وأعلن للبشرية إن دينه الإسلام ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة 132)

3 الإسلام وصية إسرائيل لبنيه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة 122)

4 عادت القبلة إلى مكانها الأصلي في مكة لتكون من أعظم الآيات التي يعلمها أهل الكتاب: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ (البقرة 144)

المظهر الأول:

المبدأ العام الدال على قدرة الله على إحياء الموتى بخلق الخلق من العدم، أو بإقامتهم من الأموات، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (البقرة 28)

المظهر الثاني:

ذكر الله قصة قوم ماتت قلوبهم، فأراهم الله معجزات متعددة في إحياء الأجساد الميتة؛ عسى أن تكون سبباً في إحياء القلوب، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة 56)

المظهر الثالث:

جعل مبدأ إحياء الموتى أحد النقاط المفصلية في قصة أساسية من قصص التجربة الإسرائيلية،فقال: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة 73).

الموضوع الخامس:

ترى في السورة مبدأ إحياء الموتى، وبعث الحياة في النفوس المستضعفة، ويظهر ذلك من خلال مظاهر متعددة:

المظهر الرابع:

بين أن الموت في سبيل الله دفاعاً عن الأوطان والرجال والنساء والولدان، حياة: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة 154).

المظهر الخامس:

بين أن الخائفين من الموت عند مواجهة المجرمين، سيجدونه أمامهم، ثم أحياهم الله أجساداً، أو أفكاراً؛ لجعلهم آية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ (البقرة 243).

المظهر السادس:

ذكر الله ذلك في القصص الثلاث الأخيرة في السورة، وهي القصص المدهشة، وتكرر فيها ذكر إحياء الموتى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (البقرة 258)، فكان هذا إيذاناً بأن القرآن إحياء للموت العقلي، والفكري الذي ترزح الأمم تحت وطأته

الموضوع السادس:

"مبدأ السمع والطاعة لأعظم الدساتير الإلهية، واجتناب ورطة أصحاب البقرة الإسرائيلية"

فالسمع والطاعة يمثلان التطبيق العملي للتقوى، والاستخلاف الناجح يقوم على الإنسان الناجح، وعموده: الاستقامة على الدستور والقانون الذي عبّرت عنه السورة بمبدأ: (السمع والطاعة)، فتجد في سورة (البقرة):

1. تجريمًا للتلاعب بالالتزام بالقانون، كأن يطيع الإنسان بعض الكتاب ويعصي بعضه الآخر، الذي يترتب عليه الخزي في الواقع الحضاري بين الأمم، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾. (البقرة 85)

2. وتجريمًا للمستهزئين الساخرين من هذه الفكرة المحورية لنمو الحياة وتنظيمها، فقال: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾. (البقرة 93)

3. وتسفيهًا للتبعية العمياء للعلماء، والأمراء في مخالفة القوانين الإلهية؛ مما يؤدي إلى إشاعة الظلم، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة 166).

4. لكأنك بالخطاب القرآني ينبعث من خلال السورة قائلاً: أيها البشر! ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ (البقرة 93)، فالسمع والطاعة للقوانين الإلهية، وما يستنبط منها، هو السبيل الوحيد لمنع القوى الشريرة من الإفساد في الأرض، وسفك الدماء.. إنه مدار نجاحكم وسعادتكم، وفي الآية 105 خاطب الله المؤمنين بما خاطب به الإسرائيليين، فقال: ﴿واسمعوا﴾.

5. تسمية سورة البقرة ينبئك بأن أكبر خطيئة اقترفها قوم موسى عليه السلام عدم السمع والطاعة؛ إذ قال لهم موسى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فلا يطيعون ويماطلون ويقولون: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ (البقرة 67)

6. خُتمتْ السورة بالثناء على من يستقيم على القوانين، ولا يروغ منها، ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة 285).

7. لما سمعوا وأطاعوا كافأهم الله بهذا الختام الجميل العذب البديع العجيب، مبيناً أنه يعطي لأمة السمع والطاعة الريادة، والسيادة، والقيادة للبشرية الحائرة المظلومة في وجه الكفار الذين يسترون الحقائق ويغطونها، فقال عن المتقين أصحاب: (سمعنا وأطعنا)، واعداً إياهم بتحقيق الدعاء، وإجابة الرجاء: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة 286).

الموضوع السابع: سورة البقرة بين العهد الحق والعهد الخرافي الإسرائيلي المفترى

تكشف هذه السورة أنه لا يوجد عهد مطلق من الله لشعب بعينه، بل عهود مشروطة لبني إسرائيل، كما هي لمن بعدهم من أتباع الأنبياء وقد تلخصت قصة هذا العهد عندما نجح إبراهيم في الاختبار الذي وضعه الله فيه ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (البقرة 124)، فكافأه الله بأن يكون إمامًا للعالمين﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، فطمع أن يكون ذلك العهد نسبيًا في ذريته﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فبين الله أن العهد لا يكون إلا للصالحين باعتبار أعمالهم لا باعتبار أنسابهم ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

فذكر الله أول صفة للفاسقين، وهي: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ (البقرة 27)؛ ليبين أنهم دمروا علاقتهم بالله؛ ليشير إلى ما لحق هذا العهد من الأساطير الناقضة له من قبل أهل الكتب الثلاثة، ابتداء ببني إسرائيل، واختتاماً بأمة خاتم النبيين .

يصرّ محرفو الإسرائيليين على أن الوعد الإلهي لإبراهيم، ثم لإسرائيل مطلق، ففي سفر التكوين 12 : 1 : وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ، وَمِنْ عَشِيرَتِكَ، وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. 2 فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً، وَأُبَارِكَكَ، وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. 3 وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ، وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ».

وفي سفر التثنية: 14 : 2 لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبًا خاصًا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.

فيشيعون هذا، لكنهم لا يبدون أن هذا له تتمة في الموضع ذاته، وهو7 : 9 فاعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان للذين يحبونه، ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل.10 والمجازي الذين يبغضونه بوجوههم ليهلكهم، لا يمهل من يبغضه بوجهه يجازيه.

فذلك عهد لمن حفظ عهد الله، وأعظم عهود الله: توحيده، والإيمان برسله جميعاً، وهذه المعاهدة تماثل ما قاله الله لأمة النبي الخاتم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران 110)، ومثل ذلك ألقاب الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة.

وللتمييز بين العهد الحق والعهد المفترى تكررت كلمة: "ميثاق"، خمس مرات، هذه أولها، ثم ذكرها الله في سياق الكلام عن بني إسرائيل أربع مرات: في الآية: 63، والآية: 83، والآية: 84، والآية: 93، وتكررت كلمة: "عهد" وما اشتق منها، 10 مرات على الأقل في هذه السورة، ويكفي فيها أن تسمع الله يذكر مواثيق بني إسرائيل، وعهد الله المشروط لهم: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (البقرة 40)، وقال الله عن الأمة البارة في الأرض ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ (البقرة 177).

الغرناطي:	البقاعي:	محمد رشيد رضا:
سورة البقرة تدور حول الصراط المستقيم أخذًا وتركًا	سورة البقرة تدور حول الكتاب الهادي	السورة شطران: شطر لأمة الدعوة، وشطر لأمة الإجابة

الأساس الخامس: "مدد السابقين في تعيين سبب تسوير السورة"

سيد قطب	الطاهر بن عاشور:	فضلاء موسوعة التفسير الموضوعي-الشارقة:
يجمعها محور واحد مزدوج: موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض	«الجامعة الإسلامية، واستقلال أهل الإسلام بمدينتهم»، وسمو الدين على ما سبقه، والتشريع والإصلاح	خلافة الأرض

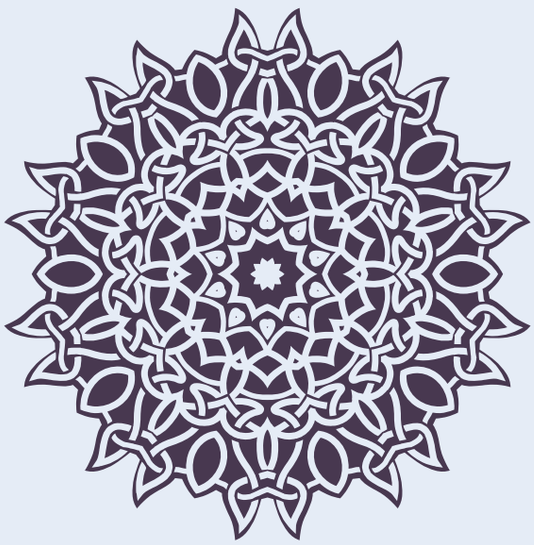

الأساس السادس:

الخريطة الكلية التي تظهر المحاور العامة لسورة البقرة

الموضوع العام:

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم، والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية

المقدمة الأولى: القرآن الكتاب الذي لا ريب فيه لإصلاح العالم وإدارته: (1-2).

المقدمة الثانية: التقسيم العالمي للواقع البشري بالنسبة للانتفاع بدستور الحياة (القرآن): (2-20).

المحور الأول:	الإعلان الإلهي للبشرية عن نظام الحياة الحقيقي المتمثل في العبادة الموحدة، وبراهين ذلك	[البقرة: 21-29]
المحور الثاني:	القصة الحقيقية لبدء البشرية: الاستخلاف في الأرض	[البقرة: 30-39]
المحور الثالث:	الأنموذج الإسرائيلي بين النجاح والفشل في إقامة مبادئ الاستخلاف	[البقرة: 40-123]
المحور الرابع:	إرث الأمة الإسلامية للملة الإبراهيمية	[البقرة: 124-158]
المحور الخامس:	أعظم الحقائق الكونية الواجب على الأمة الخاتمة أن تبينها للعالم، وموانع اعتناقها	[البقرة: 159-171]
المحور السادس:	الأنظمة التشريعية الحياتية (1)	[البقرة: 172-207]
المحور السابع:	اتباع شرائع الإسلام كافة، ومنها: (الصلح العالمي)	[البقرة: 208-214]
المحور الثامن:	الأنظمة التشريعية الحياتية (2)	[البقرة: 215-242]
المحور التاسع:	سنن الخروج من حالة الاستضعاف وصناعة التوازن والسلام العالميين	[البقرة: 243-254]
المحور العاشر:	عظمة الله، ومزايا دينه، ودلائل قدرته	[البقرة: 255-260]
المحور الحادي عشر:	إدارة الأموال في المجتمع المسلم	[البقرة: 261-283]

الخاتمة:

كنز من تحت العرش: (البقرة: 284-286).

النور الثالث:

الأساليب المتبعة في سورة البقرة

النوع الأول:

1

الأسلوب التربوي الإصلاحي الجذاب، كقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة 40).

النوع الثاني:

2

الأسلوب النفسي العاطفي السلس الكاشف، كقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة 187).

النوع الثالث:

3

الأسلوب العقلي المنطقي، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة 21).

النوع الرابع:

4

الأسلوب التزكوي الوعظي التذكيري المشرق المتميز، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة 281).

النوع الخامس:

5

الأسلوب الدستوري القانوني الفائق في المجالات التشريعية التنظيمية، كالذي تجده في آيات الطلاق، والصيام، وأنظمة الحج، والحرب والقتال.

النوع السادس:

6

الأسلوب القصصي الروائي الآسر، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ (البقرة 258).

المقدمة الأولى

القرآن الكتاب الذي لاريب فيه لإصلاح العالم، فهو أساس إدارة نظام الحياة في الأرض

(1-2)

المقدمة الأولى:

القرآن الكتاب الذي لا ريب في لإصلاح العالم، فهو أساس إدارة نظام الحياة في الأرض (1-2)

المناسبة والاتصال:

نجد ذلك في الآيتين الأولى والثانية ﴿الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة 1 - 2)، فلماذا بدأت سورة البقرة بهذه البداية؟

طلب أصحاب الصراط المستقيم الهدى من الله في الفاتحة، فأجابهم هنا، وبين لهم أن الهدى موجود في الدستور الذي يدير الكون نحو الحياة الطيبة السعيدة الرشيدة؛ ليؤسس فكرة الاعتماد على الدستور الذي يمثل كلمة الله الخاتمة.. إنه المصدر المعرفي الأول المبين لأساس بناء الكون وسعادته، ولأنه كذلك؛ فقد جمع الله في هاتين الآيتين خصائص القرآن الدالة على عظمة الإعجاز، وجلال الهداية بصورةٍ عجيبة تأخذ الأنفاس.

الخصائص التي منحته هذا الدور كما توضحه الآيتان

خصائص القرآن الكريم التي منحته دور الإصلاح العالمي:

1. **الخاصية الأولى:** الوضوح، والبيان.
2. **الخاصية الثانية:** المصدرية الإلهية للقرآن الكريم.
3. **الخاصية الثالثة:** عَظَمَة المنزلة، وبُعْدُ المكانة له عند الله، وعند عقلاء الأرض.
4. **الخاصية الرابعة:** الكتابة المعتمدة على السند من أهم وسائل توثيقه.
5. **الخاصية الخامسة:** التحدي والإعجاز.
6. **الخاصية السادسة:** هو الدستور الهادي لتنظيم الواقع الحياتي الدنيوي.
7. **الخاصية السابعة:** التقوى شرط للانتفاع التام بالقرآن، ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وتوضح الآيتان الخصائص التي منحته هذا الدور

1 الخاصية الأولى: الوضوح، والبيان:

ويبصرنا بذلك قوله: ﴿الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي: أن كلام الله على عظمته الذي يحويه هذا الكتاب، ليس مُكَوّناً من حروفٍ غريبة لا يعرفها البشر، بل هو مُكوّنٌ من هذه الحروف العربية التي تتكلمون بها، وتكتبون بها، وجُمِع ما ورد منها في أوائل السور في قولك: (نص حكيم قاطع له سر)، أو (صراط علي حق نمسكه)، أو (طرق سمعك النصيحة)، أو (صح طريقك مع السنة)، ولتعبر عن خاصية أسلوبية فريدة، فتمثل وجود ابتكار أسلوبي مشوق في القرآن الكريم، مع كونه يتكون من الحروف العربية المعتادة؛ ليدل على كنزٍ ضخم من المعاني، لا حدود له.

2 الخاصية الثانية: المصدرية الإلهية للقرآن الكريم:

ويبصرنا بذلك ثلاثة مواضع في هاتين الآيتين:

- الموضع الأول: الحروف المقطعة، فهي تَدُلُّ على أن الرسولَ صلى الله عليه وآله وسلم مُبَلِّغٌ للقرآن الكريم، وليس مصدراً له
- الموضع الثاني: ﴿ذلك الكتاب﴾ أي: المعهود لكم -وهو القرآن- قد جمع جميع خصائص الكمال التي يستحق بها أن يكون الكتاب كاملاً، ومن ذلك أن يكون مهيمناً على الكتب السابقة، خاتماً لها.
- الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾، فإن من معاني الريب المنفي في الكتاب: الريب في مصدريته الإلهية.

3 الخاصية الثالثة: عَظَمَة المنزلة، وبُعْدُ المكانةِ له عند الله، وعند الناس:

ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، فالكتاب هو القرآن، فالمعنى: هذا القرآن، و﴿ذلك﴾ للإشارة إلى البعيد مكاناً، أو مكانة، أي: هذا الكتاب العظيم المنزلة البعيد المكانة السامق الرتبة، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (الشورى 10)

4 الخاصية الرابعة: الكتابة المعتمدة على السند من أهم وسائل توثيقه:

ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾؛ فهو الدستور الوحيد الذي لم يتعرض للتغيير الاختياري، أو التحريف منذ أن نزل وكتب، فاشتق اسمه الكتاب من كَتَبَ، بِمَعْنَى: جَمَعَ وَضَمَّ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ تُجْمَعُ أَوْرَاقُهُ وَحُرُوفُهُ، وتسميته كتاباً يدل على وُجُوبِ كِتَابَتِهِ؛ ليتم التوثيق الكتابي له في السطور، فيوازي حفظه في الصدور، وهذا معنى قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ((وأنزلت عليك -أي: يا محمد- كتابًا لا يغسله الماء))، أي: لا يمحى، والكتاب الذي يعلمه الأمي يصدق ما ورد في سفر أشعياء:

"29: 12 أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له: اقرأ هذا، فيقول: لا أعرف الكتابة".

5 الخاصية الخامسة: التحدي والإعجاز:

ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فعلى الرغم من تكونه من الأحرف المعهودة، إلا أنه لا يمكن الإتيان بمثله، ويقتضي قوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ ألا يشك فيه العقلاء، وألا يحاول الطعن فيه النبلاء، فالريب بمعنى: الشك، وبمعنى :التهمة، فلا شك فيه، ولا تهمة تعتريه.

«والفرق بين كلام الله وكلام غيره، كالفرق بين خلق الله وصنع غيره: يصنع الإنسان تماثيل من التراب، فانظر إلى الإنسان المخلوق من الذرات ذاتها؛ لتجد أن الله وضع فيه سر الحياة.. وهكذا القرآن.. حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلامًا وأوزانًا، ويجعل منها الله قرآناً وفرقاناً».

6 الخاصية السادسة: هو الدستور الهادي لتنظيم الواقع الحياتي الدنيوي:

ويبصرنا بذلك قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة 2)، فوصفه بالكتاب جاء على سبيل الحقيقة، فهو المنهج المكتوب الكامل الذي لا يُنسخ؛ ليكون دستور البشرية المنظم للأمور الحياتية، وهو هدى يحمل الأنوار الهادية في القضايا الفردية، والجماعية، والعالمية المتشابكة.

7 الخاصية السابعة: التقوى شرط للانتفاع التام بالقرآن:

الخاصية السابعة: التقوى شرط للانتفاع التام بالقرآن: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، فالقرآن له ثلاث مراتب في هداه للعالم:

المرتبة الأولى:

مرتبة الناس عموماً: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ (البقرة:185).. فالهدى هنا بمعنى: البيان، والإرشاد، والدلالة، والإعلان العام عن مصالح البشر.

المرتبة الثانية:

مرتبة المؤمنين: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ (فصلت:44)، والهدى للمؤمنين بمعنى: الانتفاع الجزئي الفردي، أو الجزئي الجماعي.

المرتبة الثالثة:

مرتبة المتقين، وهي المرتبة العليا: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:2)، فالمتقون صنفٌ خاص من المؤمنين، إلا أنهم أعظم المؤمنين به انتفاعاً.

وفائدة نسبة الهدى للقرآن، أن نستقي الهدى في معناه العام من الكتاب، لا من المناهج الوضعية القاصرة.

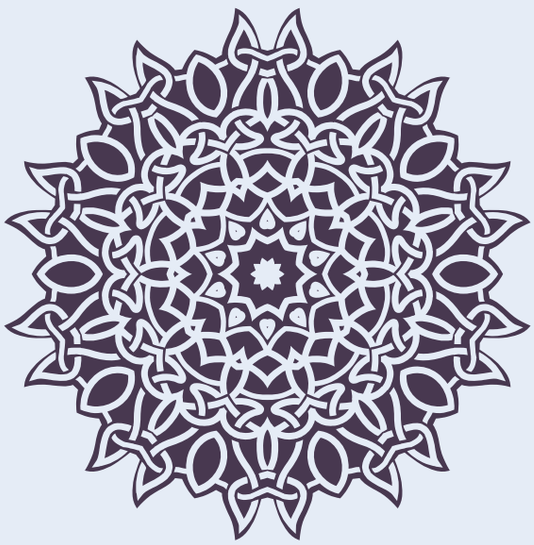

المقدمة الثانية

التقسيم العالمي للواقع البشري بالنسبة للانتفاع بدستور الحياة (القرآن)

(2-20)

المقدمة الثانية:

التقسيم العالمي للواقع البشري بالنسبة للانتفاع بدستور الحياة (القرآن) (2 - 20)

تبدأ هذه المقدمة من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:2)، وهنا ترى:

المناسبة والاتصال بين الآيات يُظهران جمال النظم القرآني:

فبعد معرفة خصائص الكتاب العظيم في القسم الأول من المقدمة، يأتي السؤال: ما حال العالم في التعامل مع ذلك الكتاب العظيم المكانة؟ وكيف يتفاعل البشر معه؟ وما صفات من ينتفع به؟ ومن الذين يعملون ضدهم؟

هنا تأتي الإجابة في الآيات من (2-20) من هذه السورة المباركة؛ لتبين أقسام العالم في المنظور الإسلامي، ويظهر من خلال ذلك التقسيم العالمي الحقيقي، لا الزائف الذي تخدع به جماهير الناس.. إنه التقسيم الذي ينبغي أن يكون حاضرًا في العقلية المسلمة عند التعامل مع العالم، وهو التقسيم الذي يجب بناء العلاقات المحلية، والدولية وفقه.

ذكر الله في أول السورة الأقسام الثلاثة المتفاعلة مع دستور الحياة تطبيقًا، أو محاربة، ولكنه أشار بعد ذلك إلى بقية أصناف الناس، وهذه القسم هي:

أقسام العالم في المنظور القرآني من حيث الموقف من القرآن الكريم (2-20)

القسم الأول:

المتقون، وهم صنف خاص من المؤمنين، (الآية 2-5)

القسم الثاني:

الكفار المتطرفون، وهم صنف خاص من الكفار، (6-7)

القسم الثالث:

المنافقون، وهم نوعان: الخُلّص (المثل الناري)، والمترددون (المثل المائي)، (8-20)

القسم الرابع:

المؤمنون عامة (متقون وغير متقين)

القسم الخامس:

الكفار غير المعاندين وتبدأ مخاطبتهم ما سائر الأصناف مع المعاندين من قوله تعالى ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾

القسم السادس:

اليهود ويبدأ ذكرهم من الآية (21) ثم خصصوا بنصيب كبير من الآية (40)

القسم السابع:

النصارى دخلوا في خطاب الآية (21) وصرح باسمهم ابتداء من الآية (62)

القسم الثامن:

الصابئون دخلوا في خطاب الآية 21 وصرح باسمهم ابتداء من الآية 62

اشتملت السورة على خريطة عالمية تنير الوعي بأوضاع العالم، وتقدم توعية سياسية فريدة، تجمع بين تحليل النفسيات، ووصف الواقع، وكشف خفايا المؤامرات، وبيان كيفية التعامل العادل في الحالات المختلفة؛ لذا وجب أن تكون السورة محور الاهتمام الإعلامي، والتعليمي، والثقافي في وسائل الإعلام، والتوجيه، والتربية

الأقسام الثلاثة المتفاعلة مع دستور الحياة الهادي:

القسم الأول:

المتقون، وهم صنف خاص من المؤمنين (البقرة2-5)، مكافأتهم على الاستقامة على تلك الصفات

مرتبة التقوى

بصيرة 1 يبصرنا قوله تعالى ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ بمراتب الترقي في الكمال الإنساني

فتبدأ بالعبادة الجبرية:

فإن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً، رضي منهم رضي وكره من كره، وهذه المرتبة ذكرها الله في الفاتحة في تعريف الخلق بأنفسهم في قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خلقهم الله كما شاء في الوقت الذي شاء، وزود كلاً منهم بما يحتاج إليه من نظامٍ حياتي ضروي غير إرادي من النفس وطريقة الحياة شرباً وطعاماً

ثم تأتي المرتبة الثانية:

وهي مرتبة العبادة الاختيارية التي دل عليها قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

ويتم الترقي من المرتبة الثانية إلى المرتبة الثالثة

إنها مرتبة التقوى، فنقلهم الله من مقام العابدين نقلة نوعية إلى مرتبة المتقين

بصيرة 2 يبصرنا قوله تعالى ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 2) بأن معيار الانتفاع الكامل بالقرآن إنما يكون بالتقوى، وأن التقوى لا تتحقق دون الانتفاع بالكتاب، وبذا يكون بناء التقوى أهم الأهداف التي يجب أن تعمل الأفراد والحكومات على تحقيقها

فما معنى التقوى؟

التقوى هي الوقاية الحقيقية والحماية الصادقة للإنسانية بترك كل ما يسبب الضرر من الجرائم والصفات الخسيسة والرذائل، ولا يتم ذلك على أحسن وجه إلا إذا ملأ الإنسان نفسه بالصفات الكريمة النفيسة والفضائل، فالتقوى توجد الإنسان الصالح الذي يعمر الحياة ويحمي نفسه من نقاط الضعف الكامنة، والأخطار المستقبلية

وقال إبراهيم بن أدهم -رحمه الله-: أن لا يجد الخلق في أفعالك عيباً، ولا الله في سرك ريبا

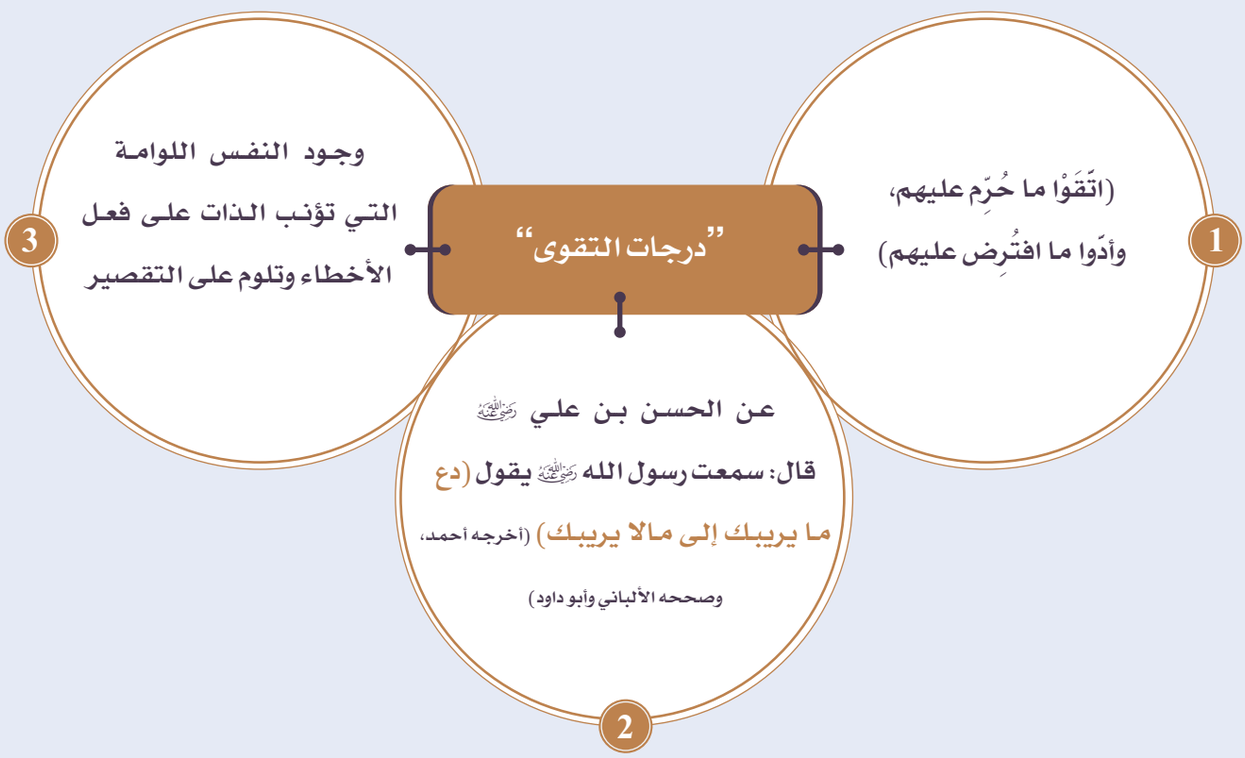

صفتان تؤسسان التقوى في قوله (هدى للمتقين) (البقرة: 2)

الصفة الأولى:

النفس المضيئة الطموحة المتطلعة إلى التقوى، ويبصرنا بذلك ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾: فبدأ القرآن بمرتبة التربية الإلهية للخلق ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم نقلهم إلى مرتبة العبادة الاختيارية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ثم رقاهم إلى مرتبة التقوى ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾

الصفة الثانية:

أن يكون القرآن هاديًا للإنسان، ويبصرنا بذلك: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، فالانتفاع الكامل بالقرآن إنما يكون بالتقوى، والتقوى لا تتحقق دون الانتفاع بالكتاب

فالصفتان اللتان تكونان مصدرًا للتقوى بصرنا بهما قوله: ﴿هدى للمتقين﴾

لكن الآيتين (3-4) تحتويان على الصفات الخمس المؤسسة للتقوى، وهي:

الصفة الأولى:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

آمن أي صار ذا أمن، والغيب ما غاب عن الإنسان رؤيته أو إدراكه على وجهه، يعني أنهم استطاعوا أن يكونوا ذَا أَمْنٍ وسُكُونٍ وَطُمَأْنِينَةٍ؛ لأنهم آمنوا بما يحميهم من التذبذب والارتباك والتردد والحيرة حيث اعترفوا بما أخبر به الرسول ﷺ من الغيب، وقدم هذه الصفة لأنها أساس الصفات الأخرى، ولأنها تمنك من أن تحدد أهدافك في الحياة بوضوح، وما يتلوها مظاهر جزئية لها، وتمثل صفةً قلبيةً عقلية لإدراك بناء الكون المخلوق الذي يتكون من عالم الشهادة، وعالم الغيب، وكلاهما يدل على الخالق الذي لا تدركه الأبصار، ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

القسم الأول:

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، الصفة التي توجد الإشراق الإنساني بصلة بالمخلوق بالخالق مالك الملك، ووصف أداءهم للصلاة بأنهم يقيمونها لأن الإقامة تقتضي أداء صورتها، وإنجاز حقيقتها، والتكلف لذلك، وسميت صلاة لأن الصلاة هي الداء لغة، فغايتها ذكر الله، وتعويد النفس على دعائه لتستمد منه النجاح في الحياة

الصفة الثالثة:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

صفة العطاء لتواصل المخلوق ببقية الخلق في عالم الشهادة، فنيفق كل رزقٍ رزقه الله إياه من قوة ومال وجاه وعلم ابتغاء العطايا في عالم الغيب.

الصفة الرابعة:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾

ومن القرآن والسنة المقبولة، ﴿وما أنزال من قبلك﴾ من الكتب سواء أوصلت أم لا، وهذه الصفة تمثل صفة السلام الديني بالإيمان بجميع الكتب الإلهية؛ وهذه الصفة أعظم مميز للمسلمين عن غيرهم من أهل الكتاب.

الصفة الخامسة:

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

صفة اليقين المطمئن بالعدالة اللازمة، وإنصاف العاملين والمظلومين في الحياة الحقيقية القادمة بعد الحياة الأولى، واليقين علم تشاهد منه الغُيوب بصَفَاءِ القُلوب

الصفة الأولى:

الإيمان بالغيب ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ الصفة القلبية العقلية لإدراك بناء الكون

ويتعلق بها ثلاث معان:

أولًا:

﴿يؤمنون بالغيب﴾ وجدوا الأمن والاطمئنان بالتصديق بالجنان والإقرار باللسان، والخضوع والعمل بالجوارح والأركان، فآمنوا المغيّب عن العيون البشرية لأن العقول تقتضيه، والأخبار الثابتة ترويه كالإيمان باللّه وملائكته ورسله، وما خفي على البشرية من العوالم الزمانية والمكانية (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) (النحل 77)، والأحداث التاريخية الماضية والمستقبلية

ثانيًا:

تؤمن بالله في السر كما آمنت به في العلن (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ) (فاطر 18)

ثالثًا:

صفة ﴿يؤمنون بالغيب﴾ من أعظم أبواب الردود على الملحدين، وتقدم حقيقتين:

(1) تقدم للإنسان أهدافاً حقيقية في الكون، وتحقق للحياة غاياتها العظمى، وتبين أن هناك معنىً للوجود: فآمنوا بما يحميهم من التذبذب والارتباك والتردد والحيرة، فتقول الملائكة لربها عن المؤمنين: «يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ»، فيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فيَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا" فيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟" فيَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا

(2) الإيمان بالغيب يؤدي إلى اكتشاف الكون روى أحمد عن ابن مسعود يبلغ به النبي ﷺ: ((ما أنزل الله داء الا قد أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله))

الصفة الثانية:

"﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: وهي صفة تقتضي اتصال الضعيف بالملك القوي"

ولها أربع حقائق:

1. ﴿يقيمون الصلاة﴾ أن يظهروا الاهتمام بها فالْقِيَام هُوَ الِانْتِصَابُ الْمُضَادُّ لِلْجُلُوسِ وَالِاضْطِجَاعِ والخمول والكسل
2. ﴿يقيمون الصلاة﴾ يداومون فيربحون مِنْ قَامَتِ السُّوقُ إِذَا نَفَقَتْ
3. ﴿يقيمون﴾ صورة الصلاة وهيئتها، بتعديل أركانها وحفظها من الخلل كما يقام العود
4. ﴿يقيمون﴾ حقيقتها وروحها؛ حتى يتلذذون بها
5. ﴿ويقيمون الصلاة﴾ ذكرها الله في أول سورة البقرة ليدلل على صدق نبوة النبي ﷺ وليقيم الحجة على أهل الكتاب

لأن آل إبراهيم عليه السلام كانوا يقيمون الصلاة﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ (الأنبياء: 73)، وفي سفر (التكوين 17 :5-3) "فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ ...»، ولكن أهل الكتاب أضاعوا هيئة صلاتهم

لماذا اختار الله هذا المصطلح (الصلاة)؟

لأنها أعظم أوجه صلة الإنسان الضعيف المحتاج بربه القوي الغني، فكلمة الصلاة تعني:

1

الصلة الممتلئة بالثناء الحسن الدال على المحبة والمكانة المتميزة للمصَلّى عليه، ومن ذلك صلاة الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

2

الصلة الممتلئة بالدعاء ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة 103) أي ادع لهم أن يثني الله عز وجل عليهم فَقَالَ صلى الله عليه وآله وسلم لبعضهم: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»

3

الصلة الممتلئة بالثناء والدعاء من خلال الهيئة الخاصة العظيمة.

إنها الصفة التي تحرر الإنسان من عبادة العبيد ليكون سيد قراره بهداية العزيز الحميد.

سجدة تخفض الجباه ولكن *** عز فيها مسبح وتعالى
ظنها الجاهلون غُلاً على العبد *** ولكن تحطم الأغلالا
تثبت الوجه والجوارح في الأر *** ض، ولكن تقلقل الأجبالا
تهدم الشرك والوساوس في النف *** س، ولكن تشيد الأجيالا
في سكون، وللقلوب مسير *** سخر الأرض رهبة وجلالا
هي لله، وحدته، فقرت *** ومحت كل غاشم يتعالى
من وعاها: وعى السيادة في *** الأرض جلالاً، ورحمة، وجمالا

عبد الوهاب عزام (رحمه الله)

الصفة الثالثة:

"الإنفاق ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: 3)، الصلة بالمخلوقين حيث تنفق ما عندك في عالم الشهادة ابتغاء العطايا في عالَم الغيب"

لماذا ذكر الله الإنفاق ضمن الصفات الأساسية للمتقين في أول سورة البقرة؟

الصلاة تبين الصلة المباشرة بالله، والإنفاق يبين الصلة المباشرة بخلق الله.

سورة البقرة تبني عاصمة الحضارة الإسلامية الجديدة التي بدأت بالإشراق على العالم، وذلك يعني أن تبني لها الاستقلال الاقتصادي في العالم

فيدخل في الإنفاق: التكافل التطوعي، والتعاون الاستثماري، وتكرر الإنفاق في هذه السورة في أكثر من اثني عشر موضعًا، وذلك يعني تحصيل المال وسائر أنواع الرزق المكتسب ليتم إنفاقه في الوجوه المشروعة

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ﴿من﴾ التبعيضية تعني المراتب الآتية:

1. النفقات الواجبة كالنفقة على النفس والأهل
2. الزكاة، ففي «البخاري» قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «مَنْ كَنَزَهَا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهَا ، فَوَيْلٌ لَهُ، إِنَّمَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ الزَّكَاةُ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللَّهُ طُهْرًا لِلْأَمْوَالِ».
3. الْإِنْفَاقُ فِي أنواع الْجِهَادِ لحماية الثغور العلمية والأمنية والمكانية
4. الإنفاق على قضاء الدين
5. الإنفاق على المحتاجين خارج نطاق الزكاة: إن لم يكن معهم ما يكفيهم.
6. الْإِنْفَاقُ الْمَنْدُوبُ
7. إنفاق الزائد الذي لا يُحتاج إليه في الحال أو في المآل القريب مما جرت العادة بعدم التضرر بإنفاقه
8. ينبغي أن تعرف التوازن الكامل بين الإنفاق وبين الإمساك ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (الإسراء 29) .

ففي «صحيح ابن حبان وحسنه الأرناؤوط» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عِنْدِي دِينَارٌ فَمَا أَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: "أَنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِكَ". قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، فَمَا أَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: "أَنْفِقْهُ عَلَى أَهْلِكَ". قَالَ: عِنْدِي آخَرَ، قَالَ: "أَنْفِقْهُ عَلَى وَلَدِكَ". قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، فَمَا أَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: "أَنْفِقْهُ عَلَى خَادِمِكَ". قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، فَمَا أَصْنَعُ بِهِ قال: "أنت أعلم".

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنه وإبراهيم النّخعي ومجاهد قال: كانوا يرون في أموالهم حقًا سوى الزكاة، وعن ابن عباس رضي الله عز وجل عنهما -وصححه الألباني- أن النبي ﷺ قال: ((ليس المؤمن بالذي يشبَعُ وجارُه جائع إلى جنبه)).

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

ما معنى قوله: ﴿رزقناهم﴾؟

الرزق الذي ينفقونه هو العطاء الجاري الذي يصلهم من ربهم، وهو النصيب المقسوم، والحظ المعلوم سواء أكان من المال أم من الجاه أم من العلم أم من القوة.

قال عُوَيْف القَوافي في عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز:

"سُمِّيتَ بالفارُوقِ فافْرُقْ فَرْقَه *** وارْزُقْ عِيالَ المُسْلِمينَ رَزْقَهْ"

فيدخل في الرزق كل عطاء يصل من رب الأرض والسماء: مثل الغذاء كما قال تعالى ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ (يوسف 37)، والمسكن والماء: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود 6)، والمال السائل والكنوز المدخرة مهما كان مصدرها كما قال الله تعقيباً على كنوز قارون: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ (القصص 76-82)

أنواع الرزق

* ظاهرة: للأبْدانِ كالأقْواتِ والكنوز والطعام، ومنه قوله تعالى: (فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ) (الكهف 19)، أي: بطعام يتغذّى به.

* باطنة: وهي أرزاق القُلُوبِ والنُّفوسِ والعقول كالمَعارِف والعُلُوم.

قال ﷺ:

((إن من أبواب الصدقة: التكبير، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وأستغفر الله، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتعزل الشوكة عن طريق الناس والعظمَ والحجرَ، وتهدي الأعمى، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه-أي تعلمهما وتوضح لهما- وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك، ولك في جماعك زوجتك أجر))

(أحمد، وصحح إسناده الألباني وشعيب الأرناؤوط)

سؤال:

لماذا أسند الله عز وجل الرزق له لا لك، فقال: ﴿ومما رزقناهم﴾ ولم يقل: ومن رزقهم؟ ؟

أولًا: الرزق من ربك، فلا تغتر بنفسك لا تكن كما قال قارون:﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص: 78)

أَنَـا الْفَقِيـرُ إِلَـى رَبِّ الْبَرِيَّـاتِ *** أَنَـا الْمُسَـكِينُ فِـي مَجمـوعِ حَالاتِـي
أَنَـا الظَّلُـومُ لِنَفْسِـي وَهِـيَ ظَالِمَتِـي *** وَالْخَيْـرُ إِنْ يَأْتِنَـا مِـنْ عِنْـدِهِ يَأْتِـي
لَا أَسْـتَطِيعُ لِنَفْسِـي جَلْـبَ مَنْفَعَـةٍ *** وَلَا عَـنِ النَّفْسِ لِـي دَفْـعُ الْمَضَـرَّاتِ
وَلَسْـتُ أَمْلِـكُ شَـيْئًا دُونَـهُ أَبَـدًا *** وَلَا شَـرِيكٌ أَنَـا فِـي بَعْـضِ ذَرَّاتِ
وَالْفَقْـرُ لِـي وَصْـفُ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَـدًا *** كَمَـا الْغِنَـى أَبَـدًا وَصْـفٌ لَـهُ ذَاتِـي

شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله)

ثانيًا: يذكرك بأنك تضارب في رزق أعطاكه الله، وستربح من الله عز وجل الذي أعطاك هذا الرزق عندما تخرج منه شيئاً يسيراً تنشره على بقية بني الإنسان والمخلوقات حولك.

سؤال:

لماذا قال: ﴿رزقناهم﴾ بنا الدالة على العظمة ولم يقل: رزقتهم مع أنه واحد أحد جل جلاله؟

- التعظيم هنا أقوى في إدخال الهيبة عليك

لماذا اختار الله الفعل ﴿ينفقون﴾ على أي فعلٍ آخر مثل: يقدمون، يعطون؟

مشتقةٌ من أنفق، وأصلها (نَفَقَ)، من نَفَق البَيْعُ نَفَاقاً كأن رأس المال ذهب، وخلفه عوض عنه: رأس مال مع ربح، فالنفقة تقتضي ذهاب شيء مقابل الحصول على شيء، فهم عندما ينفقون لا بد أن يربحوا، والسبب واضح.. أنهم يتعاملون في إنفاقهم مع ربهم، فهو الضمين لهم بتحقق ما يريدون، وفوق ما يريدون.

الصفة الرابعة:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ صفة السلام الإيماني بالجمع بين الكتب الإلهية.. إنها أعظم مميز للمسلمين عن محرفة أهل الكتاب

المعنى: والذين يؤمنون بما أنزل إليك من الوحي الخاتم إيمانًا تفصيليًا، ويؤمنون بما أنزل من قبلك من الوحي السابق على الأنبياء على إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام إيمانً إجماليًا

﴿والذين﴾ عبرت عن المتقين عمومًا، وعن صنفٍ آخر خاصٍ من المتقين في الوقت ذاته هم المؤمنون من أهل الكتاب، فالواو مع تجدد ذكر الاسم الموصول يحبوانك بمعنيين:

أولاً: إكمال صفات المتقين الذين ذكرهم من قبل، فتكون هذه الصفة الرابعة، وميز الصفتين: الرابعة والخامسة بالنسبة للمتقين عمومًا بإعادة الاسم الموصول دون الاكتفاء بالعاطف، ورجح هذ المعنى ابن كثير فيدخل في الْمَوْصُوفِينَ مُؤْمِنُو الْعَرَبِ وَمُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرُهُمْ، كما قرر ذلك مُجَاهِدٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ (الْأَعْلَى: 1-5) فَعَطَفَ الصِّفَاتِ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَالْمَوْصُوفُ وَاحِدٌ.

ثانيًا: تجدد الاسم الموصول مع العاطف ينبئك بصنف آخر من أصناف المتقين: إنهم مؤمنون أهل الكتاب، ورجح هذ المعنى الطبري.

هذه الصفة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ داعيةٌ بذاتها لأهل الكتاب عن محبة وقوة لأنها أظهرت تميز المسلمين بالإيمان بجميع الكتب، وهذا يعني الإيمان بجميع الرسل دون تفريق، أما أهل الكتاب فيفرقون.

من أسرار نزولها في أول سورة البقرة:

أن تمثل حكمة تربوية عظيمة لتجميع الصفوف حول النبي ﷺ وأن تحرج مَن أبى من أهل الكتاب

وقبل الهجرة أنزل الله:

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (القصص 54) يبشر الكتابيين، وذكرهم النبي ﷺ بذلك في المدينة، فيروي «البخاري» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "((ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ...)).

وصف النبي ﷺ موجود عندهم، فروى البخاري عن عبد الله بن عمرو في صفة رسول الله ﷺ في التوراة: (يَا أَيُّهَا النبي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (الأحزاب: 45)، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكل، ليس بفظّ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق -السخب: الصياح- ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولا يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح أعينا عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً)

هذه البشارة موجودة في سفر أشعياء42:

1. هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ.
2. لاَ يَصِيحُ وَلاَ يَرْفَعُ وَلاَ يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ.
3. لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَنْكَسِرُ حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ، وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ».
4. أَنَا الرَّبَّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرِّ، فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ وَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ وَنُورًا لِلأُمَمِ.
7. لِتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ، لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ، مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ.

ثم يُكمِل السفر الكلام بما يشعرك بأن المقصود محمد ؛ إذ يذكر ديار قيدار (وهم بنو إسماعيل) فيقول:

11. لِتَرْفَعِ الْبَرِّيَّةُ وَمُدُنُهَا صَوْتَهَا، الدِّيَارُ الَّتِي سَكَنَهَا قِيدَارُ. لِتَتَرَنَّمْ سُكَّانُ سَالِعَ. مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ لِيَهْتِفُوا.
18. «أَيُّهَا الصُّمُّ اسْمَعُوا. أَيُّهَا الْعُمْيُ انْظُرُوا لِتُبْصِرُوا.

الصفة الخامسة:

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

بصيرة

الآخرة مقابل الأولى، ويجمع هذا اللفظ ثلاثًا: وصف المكان فهي الدار الآخرة، ووصف الزمان، فهو اليوم الآخر، ووصف طبيعة الحياة فهي الحياة الآخرة، فالآخرة هي المستقبل الحقيقي القادم (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ) (العنكبوت : 64)

ذكر الله عز وجل الآخرة في الآية الرابعة من سورة البقرة التفاعل الحقيقي مع أهل الكتاب: لينبه الوثنيين أنه حق، وليحيي في اليهود ما طمسوه ونسوه من حقيقته

بصيرة

جاء لفظ ﴿يوقنون﴾ بدلًا من لفظ ﴿يؤمنون﴾ في قوله: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ لأن اليقين أعلى درجات الإيمان:

فهو العلم الصافي الذي يورث سكون النفْس، وثَلَجُ الصدر، وصفاء النفس من شوائب الريب والشك، ويثمر استقرار التفكير، ورسوخ التصور والحكم، فيجمع الصفاء والصلابة في أعماق النفس، من (الموقونة)، وهي الجارية المصونة المخدّرة التي لا يحوم حولها حائم، ويقال: يَقِن الماءُ إذا سكن وصفا وظهر ما تحته

فكلمة (يوقن) أخص من كلمة (يؤمن)، فشدة الإيمان ومنتهاه هو اليقين،

يعبر عَبْد الله بْن مَسْعُودٍ عن ذلك، فيقول: "الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ" أي غايته وذروته ومنتهاه

بصيرة
حتى يصل المؤمن إلى اليقين ينبغي أن يمر بمراحل:
1
أن ينظر في القضية أمامه، ويفكر في أدلتها.
2
ينتقل من العلم الفكري إلى الاطمئنان القلبي بصحة تلك القضية، ويرسخ علمه بها، وهذا هو علم اليقين، ولذا قالوا في تعريف اليقين:
3
يزداد عنده الفهم للقضية والإدراك لحقيقتها، فيصل إلى مرتبة العلم.
رُؤْيَةُ العِيانِ بقوّةِ الإيمانِ وليس فقط بالحجّةِ والبُرْهانِ، وقالوا: هو مشاهَدَةُ الغُيوبِ بصَفاءِ القُلوبِ، ومُلاحَظَةِ الأَسْرارِ بمحافَظَةِ الأفْكارِ

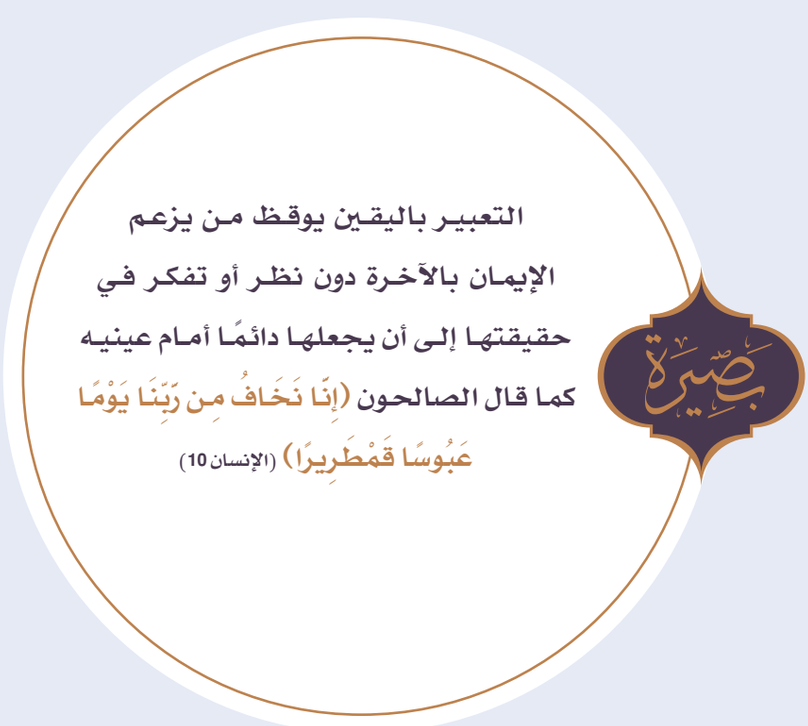
بصيرة
التعبير باليقين يوقظ من يزعم الإيمان بالآخرة دون نظر أو تفكر في حقيقتها إلى أن يجعلها دائمًا أمام عينيه كما قال الصالحون (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) (الإنسان 10)

هذه الصفة جاءت مباشرة بعد الإيمان بالوحي اللاحق السابق في هذه السورة المدنية، فلها علاقة وثيقة ببني إسرائيل؛ إذ الإشارة هنا لليهود واضحة، ليحيوا ذكر الآخرة الذي نسوه.

1

فالمصريون القدماء يعتقدون بوجود اليوم الآخر فقد قال يوسف عليه السلام لهم: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (يوسف 37)، ولكنهم حرفوا تفاصيله

2

والنصارى يسمون الآخرة "الاسخاتولجيا"، ومن عقائدهم ما رواه ابن ماجه—وحسنه الألباني- أن مهاجرة الحبشة حدثوا رسول الله ﷺ أن عجوزًا نصرانية قالت لشاب ظلمها: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا) (ابن ماجة، وابن حيان، وصححه الألباني لغيره، وقواه شعيب الأرناؤوط بشواهده)

3

ولكنك لا تجد ذلك اليهود في (التناخ) على الرغم من وروده عنهم عندما كانوا يجاورون النبي ﷺ، حيث روى البخاري قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ليهود خيبر: مَنْ أَهْلُ النَّارِ فَقَالُوا نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخْلُفُونَنَا فِيهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ اخْسَؤُوا فِيهَا وَاللَّهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا،من إشارات اليوم الآخر في التناخ ما ورد في سفر دانيال 12:

(وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ، هؤُلاَءِ إِلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، وَهؤُلاَءِ إِلَى الْعَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِيِّ)

قال أبو الدرداء: "أَضْحَكَنِي ثَلَاثٌ، وَأَبْكَانِي ثَلَاثٌ: أَضْحَكَنِي مُؤَمِّلُ دُنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ، وَضَاحِكٌ بِمِلْءِ فِيهِ، وَلَا يَدْرِي، أَرَضَى اللَّهَ أَمْ أَسْخَطَهُ؟ وَأَبْكَانِي فِرَاقُ الْأَحِبَّةِ، مُحَمَّدٍ وَحِزْبِهِ، وَهَوْلُ الْمَطْلَعِ عِنْدَ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ، وَالْوُقُوفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ تَبْدُوَ السَّرِيرَةُ عَلَانِيَةً، ثُمَّ لَا أَدْرِي إِلَى الْجَنَّةِ أَمْ إِلَى النَّارِ؟".

ومما بقي مركوزاً من الملة الإبراهيمية في نفوس عقلاء العرب: الإيمان بالآخرة كما قال زهير:

فَلا تكتُمُنَّ اللَهَ ما في نُفوسِكُم لِيَخفى *** وَمَهما يُكتَمِ اللَهُ يَعلَمِ
يُؤَخَّر فَيوضَع في كِتابٍ فَيُدَّخَر لِيَومِ *** الحِسابِ أَو يُعَجَّل فَيُنقَمِ

مكافأة المتقين عندما يستقيمون على تلك الصفات

المكافأة الأولى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾، وهذه المكافأة تبصرنا بالآتي:

البصيرة الأولى:

الاستقامة على الصفات الخمس يورث الصوابية في القرارات، والاطمئنان في تحقيق المصير.

البصيرة الثانية:

من أسباب هداية المتقين، صحة المصدر الذي استقوا منه الدليل، لا تمسّكهم بالهوى، والعبث، والأقاويل.

البصيرة الثالثة:

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾، تعني أنهم يزدادون هداية مع استمرار استقامتهم على الصفات الخمس.

البصيرة الرابعة:

﴿من ربهم﴾، تدل على احتياجهم الدائم لاستقاء الهدى والتوفيق من الله، وافتقارهم لإثبات صدق العبودية له جل في علاه.. ألا تراه سبحانه قال: ﴿من ربهم﴾، ولم يقل: (من الله).

البصيرة الخامسة:

﴿أُولَئِكَ﴾، تدل على تعظيم من عظّمه الله، فلم يقل: "هؤلاء" باسم الإشارة للقريب؛ لأن المراد بيان بعد منزلتهم، وعلو مكانتهم، وعِظَمِها، ولمكانتهم في الدنيا استحقوا مثلها في الآخرة.

المكافأة الثانية: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة:5)، تحقيق الفلاح الدنيوي والأخروي.

الكفار المتطرفون، وهم صنفٌ بشريٌّ خطيرٌ، يهدد البشرية بسبب عناده، وتحجره، وإغلاقه لأدوات المعرفة والتواصل (البقرة: 6-7):

المناسبة والاتصال: لما ذكر الله المتقين -وهم المؤمنون الصرحاء حقًا-، ذكر أعداءهم الصرحاء حقًا مقابلهم، وهم فئةٌ خاصة من الكفار؛ إنهم الكفار المتطرفون.

صفات الكفار المتطرفين

الصفة الأولى:

تغطية الحق والحقائق لئلا يراها العالم: ﴿إن الذين كفروا﴾، فأصْلُ الكفر عند العرب: تَغطيةُ الشيء؛ ولذلك سمّوا الليل: "كافرًا"؛ لتغطية ظُلمته ما لبستْه، كما قال الشاعر:

فَتَذَكَّرَا ثَقَلا رثِيدًا بَعْدَمَا ... أَلْقَتْ ذُكاءُ يَمِينَهَا في كافِرِ.

أي: أن الشمس ألقت يمينها في الليل، والمقصود أنها غابت، فدخل الليل.

الصفة الثانية:

القلب المغلق؛ وذلك بسبب العناد، والتعصب، وعدم المبالاة بسماع ما ينفع، ويبصرنا الله تعالى بهذه الصفة في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة:6)، فلم يتلقوا الإنذار المشفق بالاهتمام، بل كأنه معدوم في حياتهم، فرفع (سواء) على أنه خبر لإن، فيكون المعنى: إنّ الّذينَ كَفَرُوا مُسْتَوٍ عَلَيْهِمْ إنْذارُكَ وَعَدَمُهُ، وفي هذه الصفة البصائر الآتية:

بصيرة 3

البصيرة الأولى: يبصرنا تأكيد حقيقة المتطرفين بالحرف (إن) هنا بضرورة معرفة النفسيات الإنسانية التي تتقبل الحقائق، أو تحاربها أشد المحاربة، فأكد هذه الحقيقة بـ(إن)، كأنه أخبرهم بأَمْرٍ قد يستبعده السامع، كقَوْلِ أبي نواس: عليك بالْيَأْسِ مِنَ النّاسِ ... إنّ غِنَى نَفْسِكَ في الْيَاسِ.

بصيرة 3

إذَا كَانَ يُوجَدُ فِي النّاسِ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ، فَلَيْسَ هَذَا عَيْبًا وَتَقْصِيرًا فِي هِدَايَةِ الْكِتَابِ، وَإِنّمَا الْعَيْبُ فِيهِمْ، لَا فِي الْكِتَابِ؛ لِأَنّهُ هِدَايَةٌ كَسَائِرِ الْهِدَايَاتِ الطّبِيعِيّةِ الّتِي أَعْرَضَ النّاسُ، وَعَمُوا عَنْهَا، وَقَدْ يَحْكُمُ الرّجُلُ بِأَنّ فِي الْعَمَلِ مَضَرَّةً تَلْحَقُ بِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَعْدِلُ عَنْ حُكْمِهِ؛ انْتِهَازًا لِلَذّةٍ زَيّنَهَا لَهُ حِسُّهُ، أَوْ وَهْمُهُ..

انْظُرْ إلَى رَجُلٍ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ، وَيَمْشِي فِي طَرِيقٍ لَا يَعْرِفُهَا، فَيَسْقُطُ فِي حُفْرَةٍ، وَتَتَحَطّمُ عِظَامُهُ، هَلْ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ قَدْرِ بَصَرِهِ، وَيَبْخَسُ مِنْ حَقّ اللهِ تَعَالَى فِي الْإِحْسَانِ بِهِ عَلَى هَذَا الّذِي لَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ فِيمَا خُلِقَ لَهُ؟

بصيرة 3

تعال لنرجع بَصَرَ التدبر كرتين في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾، فما الذي سينذرهم به المُبلّغ، سواء أكان النبي ﷺ أم ورثته؟ سينذرهم بالرسالة القرآنية، وبما تتضمنه المعرفة القرآنية.. ألم يقل الله مبيناً ذلك: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (الأنعام:18) فعبر عن رسالة القرآن بالإنذار؛ لأنه رسالة إنذار لحماية العالم من الشرور (الحاضرة والمستقبلة؛ وهذه هي الرحمة الحقيقية بالعالمين؛ فالإنذار يدل على شدة الحرص على سلامة من وصله النذير

بصيرة 3

أن الإخبار عن عدم إيمانهم لا يعني عدم تكليفهم، ولا يعني عدم التكليف بإنذارهم وتبليغهم، فالآية تبين لنا أن هذا الصنف المعاند لن يؤمن مهما كان، لكن ذلك لا يعني عدم تبليغه نور القرآن الكريم؛ إقامة للحجة عليه، وهذه البصيرة أدركناها من الآيات الأخرى التي نجمعها مع هذه الآية، مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:1).

الصفة الثالثة:

مختوم على قلوبهم، صفة تعليلية مآلية عقلية نفسية، هي صفة إغلاق أدوات المعرفة، ويبصرنا بها قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾، فالتحذير القرآني، والنبوي، يبين المراحل الخطيرة التي يصل إليها القلب بسبب الذنوب، وهي ست مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة القلب الأبيض الذي يدنس بطروء الذنب المجرد عليه، ثم يدنس بذنب آخر مع إحداث توبة لا تلبث أن تنقض.

المرحلة الثانية: مرحلة الاستمرار على الذنوب، وإلفها، واعتيادها.

المرحلة الثالثة: مرحلة الران، حيث يستمر المرء على غشيان الذنوب، والران والرين صدأٌ يعلو الشيء الجليل، فيحدث فيه صدأ، يدمر جودته، وبياضه، وتتضاءل مقاومته للشرور: ((إن المؤمن إذا أذنب، كانت نكته سوداء في قلبه، فإن تاب، ونزع، واستغفر، صقل قلبه، وإن زاد، زادت؛ حتى يعلو قلبه ذاك الرين، الذي ذكر الله عز وجل في القرآن: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾)). (أخرجه أحمد، وحسن شعيب الأرناؤوط إسناده)

المرحلة الرابعة: مرحلة الطبع، فهو تطبع القلب على الذنوب حتى تصبح عادته التي لا يصبر على غيرها، ولو فعل لشعر بانزعاج كما قال الله جل جلاله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الزمر: 45).

المرحلة الخامسة: مرحلة الإقفال، وهي التي ذكرها الله في قوله ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد: 24).

المرحلة السادسة: مرحلة الختم: وهي المذكورة في هذه الآية، بعد تكاثر حصارها، فإذا أغلقتها جاء الطبع والختم فمنع ظلمات الذنوب والمعصية والإجرام من الخروج منها، ومنع أنوار التوحيد والحق والمحبة والخير من الدخول إليها

الصفة الرابعة:

وهي صفةٌ مآليةٌ جسديةٌ معنوية، ويبصرنا بها قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة:7)، فنتيجة ما سبق أن يجدوا العذاب، والْعَذَابُ اسْمٌ لِمَا يُؤْلِمُ، وَيَذْهَبُ بِعُذُوبَةِ الْحَيَاةِ في الأمور المعنوية والأمور الحسية مثل الضَرْب، وَالوَجَع، وَالجُوع، وَالظَمَأ.

من أهم الفوائد العملية لذكر هذا الصنف: التبصير القرآني ببيان سبيل المجرمين، وكيفية التعامل السياسي، والحياتي معهم: بالاحتراس منهم، وإعداد العدة لمواجهتهم في الميادين المختلفة، مثل ميادين الحجة، والجدال، وعدم الغلو في التعامل معهم شدة، أو رخاوة.

القسم الثالث:

زاعمو الإيمان من المنافقين، وغيرهم: (الآيات: 8 - 20)

المناسبة والاتصال:

أراد الله –جل في علاه- أن يملأ العقلية المسلمة بمعرفة الأصناف الأساسية المؤثرة على الواقع العالمي، وموقفها من الانتفاع بدستور الحياة الحقيقي (القرآن)، فذكر المتقين الذين ينتفعون بهدى القرآن أعظم الانتفاع، وذكر مقابلهم الكفار المعاندين، وهم أعداء النور القرآني الذين يغطون حقيقة المجد الذي يرسمه القرآن للعالمين، وهذان الفريقان: (المتقون، والكفار المتطرفون) واضحان، واستدعى هذا ذكر الفريق الغامض المؤثر على الواقع العالمي، وهو ينتمي إلى المتقين في الظاهر، وإلى الكفار المعاندين في الباطن.. إنهم زاعمو الإيمان.

الفصل الأول: صفات زاعمي الإيمان من المنافقين وغيرهم: (البقرة: 8-16)

الأولى:

مخالفة قلوبهم لأقوالهم في زعم الإيمان، ويبصرنا بذلك قلوه تعالى جده: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: 8)، وينشأ عن ذلك مخالفة أفعالهم لأقوالهم، بدأ بالواو العاطفة، وبتقديم الخبر على المبتدأ للتشويق والتنبيه على هذه الفئة الغريبة الفريدة التي لا يتم التركيز على وجودها لشدة مكرها، وفيهم يقول ابن جريج: هذا المنافقُ، يخالِفُ قولُه فعلَه، وسرُّه علانِيَتَه ومدخلُه مخرجَه، ومشهدُه مغيبَه

الثانية:

ترديد زعم الإيمان أمام المجتمع، ويبصرنا بذلك صيغة المضارعة في قوله: ﴿ومن الناس من يقول﴾، ولم يقل: قالوا؛ وذلك يدل على تردد هذا القول، ليفعلوا الجرائم ثم ينكروا على من أنكر عليهم فعل الجرائم.. يا للإرباك الذي يحدثونه في التعامل معهم، وكذبهم الله فقال: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ لأن هذا النفي أعلى بلاغة حيث أخرج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون ضمن طوائف المؤمنين

الثالثة:

الخداع، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ذكره : ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ (البقرة:9)، والخداع يجمع الخفاء والفساد، لأن أَصْل هَذِهِ اللَّفْظَةِ: الْإِخْفَاءُ، وَسُمِّيَتِ الْخِزَانَةُ: الْمِخْدَعَ، وَالْأَخْدَعَانِ عِرْقَانِ فِي الْعُنُقِ؛ لِأَنَّهُمَا خَفِيَّانِ، والريق المتغير يخدع أي يفسد

الرابعة:

عدم الشعور، وفقدان الأحاسيس، ويبصرنا بذلك قول الله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، ففقدوا المشاعر مطلقاً، وخاصة في خداعهم لأنفسهم، فالشعور عدم الإدراك بالحواس للأمور الخفية.

الخامسة:

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ مرض القلوب يدل على السواد، والنتن، وعلى فساد التفكير، واعتلال العقل، والمرض: الخُرُوجُ عن حالة الاعْتِدَالِ، وعدم إعمال الوظائف على نحو مستقيم.

السادسة:

الكذب: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، وهو أسوأ أسلحتهم، ولذا قدم الله ذكر عقوبته عليه فما أكثر ما يعقدون العهود، ويقيمون المصالحات، ويحلفون الأيمان، ويبرمون المواثيق والاتفاقيات، ثم ما أسرع ما ينقضون كل ذلك، والتحذير من هذه الصفة حتى لا نركن إلى أي كلمةٍ تخرج من أفواههم الكاذبة؛ وينبغي أن نتعامل معها بحذرٍ شديدٍ خوفاً من أن نقع ضحايا أكاذيبهم

السابعة:

التكذيب، ويبصرنا بذلك قراءة الجمهور في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ﴾، فإذا سمعوا الصدق بادروا بتكذيبه، والرد عليه، فيقيموا السنوات الخداعات التي قال عنها النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ)) «ابن ماجه»

الثامنة:

الإفساد في الأرض ومنع الناس من الحصول على أي خير في الدنيا والآخرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، والإفساد إخراج الأرض عن الانتفاع بها إلى ألا تكون صالحة للحياة بالتمرد على النظام الذي يصلحها ويحفظ مواردها ونظمها. وكلمة ﴿قيل﴾ تدل على تنوع جهات نصحهم لتشمل الأنبياء والصالحين، وحتى الصادقين من الكافرين، فيجب ردعهم بالكلام من كل الجهات، حتى بتفعيل الأقل سوءاً ضد الأكثر شراً

التاسعة:

تبديل المعاني، وتغيير الحقائق من خلال اللعب بالألفاظ، واستخدام المصطلحات التمجيدية لتغطية الجرائم الجسيمة، ويبصرنا بذلك قول الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة:11).

العاشرة:

عدم الشعور بإفسادهم في الأرض، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: 12)، وهذا يعني أنه يجب إيجاد الوسائل المناسبة على جميع الأصعدة لتعقب المفسدين، والعمل الإعلامي، والتبليغي العام؛ للرد على افتراءاتهم، والتعليق على جرائمهم اللفظية، والفعلية، فالاكتفاء بمجاملتهم يؤدي إلى استفحال شرهم.

الحادية عشرة:

نبز الصالحين بالألقاب المنفرة، ومطاردة القوى الصالحة في المجتمع بحملات التشويه الإعلامية القذرة، التي تطعن في أهليتهم التفكيرية، حيث يسمونهم بالسفهاء، ويحدث الله عن ذلك فيقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ وَالسُّفَهَاءُ جَمْعُ سَفِيهٍ وَهُوَ الْمُتَّصِفُ بِالسَّفَاهَةِ، والسفه خِفَّة في العقل وسَخَافَة في التفكير، واضطراب مدمر لإدارة الأمور

الثانية عشرة:

يتصفون بالجهل المركب، والبعد عن العلم، ويبين الله هذه الصفة في قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾، فهذه الجملة تضمنت أمرين: وصفهم بعدم العلم، والرد الإعلامي عليهم في وصفهم المصلحين في الأرض بالسفهاء.

الثالثة عشرة:

التآمر المستخف المستهزئ بالمؤمنين بتقديم ما يظنه المؤمنون كلاماً حسناً، ونلمس هذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة:14)، فيجتمعون مع قياداتهم الشيطانية؛ ليقدموا تقاريرهم حول مدى تلاعبهم بالمؤمنين.

والشياطين كل بعيد متمرد محترق يستشيط غيظاً وغضباً وحنقاً على الحق وأهله، وقد يكونون من الإنس، وقد يكونون من الجن ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ (الأنعام: 112)، والمراد بهم هنا: قياداتهم من متطرفي القوى المعتدية المجرمة داخلياً وخارجياً، وانظر كيف يؤكدون ولاءهم لشياطينهم بتكرار حرف ﴿إن﴾، واستعمل الحرف (إلى) دون (الباء) في فعل (خلا) ليضمنه معنى أسرع إلى، ويدل على حركتهم المسارعة لقيادات الفساد الشيطانية، وتختصر لك كلمة مستهزئون تحركاتهم الغادرة؛ فالهزء مَزْحٌ ساخر ماكر في خفية مشتق من الْهَزْءِ وَهُوَ الْعَدْوُ السَّرِيعِ

الرابعة عشرة:

ازدياد العمى على طول المدى، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، فتضمنت الآية كشفاً لصفة جديدة من صفاتهم، ورداً عليهم في الوقت نفسه على الأسلوب القرآني المعجز، وهذه الجملة العربية المبينة تعني المشاكلة لأفعالهم، فهم يظنون الاستهزاء والسخرية مصدر قوتهم، فيرد الله عليهم بالمنطق ذاته؛ إذ هو الذي يستهزئ بهم، ويمدهم يزيدهم بقوى يستخدمونها في السوء، والطُّغْيَان هو مجاوزة الحدُ المعتاد في الإجرام، ويعمهون من: عَمِه فلان يَعْمه عَمَهانًا وعُمُوهًا، إذا ضل فتحير

الخامسة عشرة:

باعوا الهدى واشتروا الضلالة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾، فهذه صفةٌ تعليلية (سببية) مآلية في الوقت ذاته.. كأن السامع تعجب من شدة العقوبة الواردة في الصفة قبلها عندما سمع: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة: 15)، فسأل عن السبب الذي أوجب لهم هذا المصير المخزي، كما أن هذه الصفة تبين مقدار سفههم، وانظر إلى قوة التصوير:

فهذه المخلوقات بلغ بهم الأمر أن يشتروا القذارات ويعطوا مقابلها الذهب والمجوهرات، انظر إليهم:

يقدم أحدهم الأثمان الباهظة لقاء فعلٍ محرم يدمر نفسه أو بلده.. يبيعون تعليم القرآن مقابل تعليم شرب الخمر ونشر المخدرات.. يعينون الخبراء والقدرات العسكرية والأمنية ليمدوهم بأفكار إبداعية في ضلالات قتل المستضعفين، واغتصاب الأموال والبلدان، ويأتي الرد المزلزل على ظنونهم الكاذبة ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ فلا ربح، ولا صواب في القرارات، والتعبير بالتجارة مدهش في كشفه لهم يصف حالهم فهم يعتقدون أن العالم عبارة عن صفقات تجارية للمواد والأفكار والأجساد، فلن يجدوا ربحاً ولن يوفقوا إلى محافظة على ملك

الفصل الثاني: المعرفة القرآنية تنير الوعي بإدراك أصناف زاعمي الإيمان (البقرة: 17-20)

المناسبة والاتصال:

بعد أن عرف العقل المسلم صفات زاعمي الإيمان، (وأولهم: المنافقون، ويدخل فيهم من يزعم الإيمان بالله واليوم الآخر من الديانات الأخرى)، وامتلأ إدراكه من كيفية مخالطتهم دعوة؛ ورداً مفحماً.. هنا يأتي البيان القرآني ليكشف حقيقة أنواع المنافقين، ويبين طبقاتهم؛ حتى لا يتم التعامل معهم وفق نمطٍ واحدٍ.. ولكن البيان القرآني لأنواع المنافقين لم يتخذ طريقاً مباشراً، بل سلك أسلوب التمثيل لهم؛ لينوع في الخطاب، ويشوق الناس إلى معرفتهم، ويحرك العقول لتتدبر الكلام الذي يلقى لهم.

الصنف الأول:

الخُلَّص من كَذَبة زاعمي الإيمان، وضرب الله لهم المثل الناري.

وذكرهم الله في الآيتين 17-18

الصنف الثاني:

المترددون من زاعمي الإيمان، وضرب الله لهم المثل المائي.

مَشهَد 1 ظهور قائد المنافقين:

تبصرنا كلمة ﴿الذي﴾ من قوله تعالى ذكره: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ (البقرة 17) بأن أحد المنافقين كان نشطًا ذا صفات قيادية وطلب أن يكون له دور في الأرض، فأوقد له نارًا ينشر من خلالها نورًا له يجمع الأتباع من حوله، وبدأ بأقوى المؤثرين، فكون معهم قيادة مشتركة هو أعلاهم فيها:

فالسين والتاء يدلان على الطلب، والانتقال من الإفراد في قوله: ﴿الذي، حوله﴾ إلى الجمع في قوله: ﴿بنورهم، وتركهم﴾ دلنا على أثر نشاط هذا القيادي في محيطه.

مَشهَد 2 قائد النفاق يمتلك المهارات القيادية الفذة للتأثير على من حوله:

فقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ يبصرنا بأن انتشار النفاق بدأ بمنافق صلب عنده روح المبادرة، وصفات القيادة طلب إيقاد النار وبعث النور حتى يضيء ما حوله ليحقق إنجازًا في حياته، لكنه يوجه طاقته نحو الجانب المظلم المجرم من خلال الكذب بأنه يوقد نارًا.

مَشهَد 3 ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ الثوب مسلم، والفعل كالقلب مجرم:

فيبصرنا قول الله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ بأن الذي استوقد كان قياديًا فريدًا في عقليته، وجمع آخرين حوله، لكنه أسر المعصية كإسرار إبليس ثم أظهرها، فذهب الله (بنورهم) أي بنور الجميع: القيادي والأتباع، ولم يقل بنوره وحده، وذهابه إما ذهاب نور الإيمان والقرآن، وإما ذهاب نور النصر والنجاح الحيوي. . لماذا ذهب الله بنورهم؟ لخلل ظاهر أو مستتر في المستوقد وأتباعه

مَشهَد 4 النفاق الخفي يكشفه جواب ﴿لمّا﴾ الخفي

فيحتمل أن يكون جواب ﴿لما﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ (البقرة 17) ظاهرًا مذكورًا هو قوله جل مجده: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِم﴾، كما يحتمل أن يكون محذوفًا كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله عمل الشقي قائد المنافقين على محاصرة النور وإيقافه، والتلاعب به، وتابعه على ذلك أتباعه، وهنا يأتيك ما بعد الجواب ليدل على الجواب المحذوف، وهو قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

مَشهَد 5 يعيش المنافقون في الظلمات، ويحاولون نشرها في العالم،؛

لأنهم لا يبصرون الخير مهما أخبروا به، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

مَشهَد 6 ذهاب النور وحلول الظلمة، وعدم الإبصار تمتد من الدنيا إلى الآخرة:

فيبصرنا الله بقوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة: 17) بأن ذهاب النور، وغشيان الظلمات، وعدم الإبصار صارت حالات ملازمة في الدنيا والآخرة

الصنف الثاني:

المترددون من زاعمي الإيمان، وهم الذين ضرب الله لهم المثل المائي ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ • يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: 19-20) ، وذكرهم الله في الآيتين 19-20

مَشهَد 1 تعدد أصناف المنافقين، وتبادل الأدوار، ويبصرنا بذلك: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾

ف: ﴿أو﴾ تبصرنا بأن التمثيل هنا لبيان صنفين من المنافقين، وليس لتكرير وصف فئةٍ واحدة، فالنوع الثاني هو المنافق المتردد المراوغ، فهي للتنويع، والتوزيع؛ ليشمل ضرب الأمثال الحالات المختلفة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾، فإن المراد تساويهما في عصيانهما، ولكن كلًا منهما غير الآخر في إجرامه

مَشهَد 2 المثل المائي في قول ربنا: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾

يصور هذا النوع من المنافقين متردد بين الإيمان والكفران، وبين الإخبات والطغيان، فتراه أحيانًا مبصرًا يطلق التصريحات الصادقة الرائعة، ويقوم بالأفعال الصالحة الطيبة ، ثم ما يلبث أن ينتكس، فكأنه ليس ذلك الذي سار في هدىً سائق، ولا الذي صدر عنه نورٌ فائق

مَشهَد 3 صيب كثيف من نواحٍ متعددة، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾:

فكلمة ﴿من السماء﴾ تصور لنا أن الصيب ليس قليلاً محدودًا، بل هو صيب مخصوص كثيرٌ كثيفٌ قد جاء مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِ الْجَوِّ المحيط مع علوه إِذَا قُلْنَا: إِنَّ التَّعْرِيفَ فِي السَّمَاءِ يستغرق جميع جوانب السماء التي يعيش تحتها هذا الفريق الذي يماثل المنافقين في تفكيره وحركته، فكل أفق من آفاقها سماء.

مَشهَد 4 صيب كثيف من نواحٍ متعددة، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾:

فيبصرنا قوله: ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ بأن الهدى القرآني مثل الصيب وهو الماء المصوب على الأرض ليغيث الأبدان والنفوس، وتصحبه ظلماتٌ كثيفة لغزارته وكثافته وتعدد جهات نزوله، وبدلاً من رؤية الجمال الكلي يرى المرضى الظلمات وبالاً عليهم:

فعن ابن الزبير ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي ﴿يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾(الرعد:13)، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا لَوَعِيدٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ شَدِيدٌ (الأدب المفرد (723)، وصححه الألباني)

مَشهَد 5 صيبٌ مهدِّد!! :

المنافقون يرون في الصيب القرآني تهديدًا كما يرى السائرون في ظلمات الصيب المائي تهديدًا يظهر في الصواعق النازلة، فيحاول المنافقون التحصن بما يقدرون عليه من الاحتياطات، وقد اعتنقوا عقيدة استحوذت عليهم ملخصها أن أهم التهديدات التي يخافون منها إنما جاءت من القرآن، ويبصرنا الله بكل هذا في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾

مَشهَد 6 إحاطة غير قابلة للاختراق:

الاحتياطات الأمنية والمخابراتية والعسكرية التي يتحصن بها المنافقون لا يمكن أن تحميهم من الإحاطة الإلهية، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ (البقرة 19)

مَشهَد 7 البرق الخاطف:

يظهر مشهد البرق الخاطف ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾، فالْبَرْقُ هو النور السريع القوي المنبعث في السماء، ويمثل النور القرآني، ولشدة لمعانه يكاد يخطف أبصارهم؛ لأنهم لا يريدون أن يصلح الحياة، والخطف: الأخذ بسرعة وحِدّة، فإذا وجدوا فيه ما يحقق لهم الشهوة، والشهرة، قبلوه بصورةٍ مؤقتة، وخدعوا العالم بذلك

مَشهَد 8 التلاعب المصلحي:

يصور لنا قول الله –تعالى مجده– ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ أنهم إذا وجدوا في النور ما يزيدهم ظلمات، ويسوغ لهم المحرمات، ويحقق لهم الشهوة والشهرة قبلوه بصورةٍ مؤقتة، وخدعوا العالم بذلك.

مَشهَد 9 القيام في الظلام:

فالمنافقون ينظرون إلى القرآن نظرتهم إلى الظلام المخيف، ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ فإذا عارض أهواءهم وشهواتهم وحقدهم وحسدهم أظلم عليهم، فقاموا أي ثبتوا ولم يسيروا في ضوئه؛ لأنهم لم يعودوا يرونه كالبرق بل يجدون الظلمة في التعامل معه، ويعودون إلى ظلمهم كما يعيش هؤلاء في ظلماتهم

مَشهَد 10 التلاعب المصلحي:

مشهد القوة المحيطة القادرة القاهرة: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تبصرنا بأنه لو شاء الله لحرمهم الانتفاع بحواسهم التي لم يستخدموها إلا الاستخدام الخاطئ، ولو شاء أن يهلكهم على إفسادهم لفعل

مَشهَد 11 ختمت الآية الأولى بقوله ﴿وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، والثانية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

والشيء أعم العام، فنبه الذين بهرهم تقلب الكافرين والمنافقين ونشرهم للكفر العالمي أن ذلك لا يعني قدرتهم على الخروج من ملك الله، فالله محيط بهم ولو أراد الله إهلاكهم لفعل فهو على كل شيء قدير، لكنه جعل ذلك وفق سنن كونية وبشرية

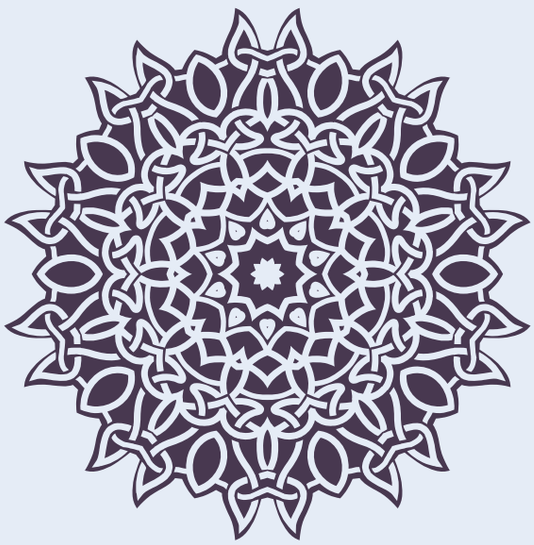

المحور الأول

الإعلان الإلهي للبشرية عن نظام الحياة الحقيقي المتمثل في العباة الموحده وبراهين ذلك

(21-29)

المحاور العامة لسورة البقرة

المحور الأول:

الإعلان الإلهي للبشرية عن نظام الحياة الحقيقي المتمثل في العبادة الموحدة، وبراهين ذلك [البقرة:21-29]

المناسبة والاتصال:

كانت الآيات العشرين الأولى بمثابة المقدمة الكبيرة الجليلة لهذه السورة المباركة، ذكر الله فيها أهمية المعرفة القرآنية في الحياة البشرية، فالقرآن المجيد لا ريب في أنه منزل من الله، ولا ريب في إدارته للنظام العالمي الإنساني على أحسن الوجوه، وبين الله بعد ذلك أقسام العالم بالنسبة للتفاعل مع القرآن، فقسم العالم إلى ثلاثة أقسام، وبين حقيقة كلٍ منهم، وصفاته ثم جاء (الإعلان الإلهي للبشرية عن نظام الحياة الحقيقي الوحيد، المتمثل في العبادة الموحدة، وبراهين ذلك).

انقسم هذا المحور إلى إعلانين:

الإعلان الأول:	الإعلان الثاني:
الإعلان الإلهي العالمي للبشرية عن نظام الحياة في الأرض (البقرة21)	الأدلة والبراهين، والمخاطبات الإقناعية على استحقاق الله -تعالى مجده- للعبادة (البقرة21-29)

تنقسم هذه الأدلة والبراهين والمخاطبات إلى أربعة أقسام:

- **القسم الأول:** أدلة الحياة السبعة التي تعود إلى آيات الأنفس والآفاق المادية المشاهدة المحسوسة
- **القسم الثاني:** المخاطبات العقلية الجدلية الكلامية المقنعة
- **القسم الثاني:** المخاطبات العاطفية التي تثير عاطفة الإنسان رهباً ورغباً
- **القسم الرابع:** أدلة القدرة والعظمة والإحاطة التي لا يمكن لأحد أن يدعيها

القسم الأول:

الإعلان الإلهي العالمي للبشرية عن نظام الحياة في الأرض (البقرة 21)

الآن استمع معي لمضمون هذا الإعلان المذهل الذي يأخذ الأنفاس.. إنه الإعلان الإلهي الموجه للعالم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ (البقرة:21)، أعلن الله أعظمَ إعلان للعالم أجمع، ومنهم الأصناف الثلاثة السابقين: المتقون، والكفار المتطرفون، وزاعمو الإيمان:

التزموا بالنظام الوحيد الذي يصلح لكم أنفسكم ويصلح العالم من حولكم: أن تعبدوا ربكم موحدين له في العبادة، ونظام العبادة يوصلكم إلى تحقيق مرتبة التقوى التي تعني الإنسان الصالح الذي يتقي المخافات والمكروهات المستقبلية الدنيوية والأخروية، فيكون صالحاً في بيئة صالحة لا يفسدها

بصيرة 1

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ إنه نداء عالمي، وإعلان كوني يخاطب الله فيه البشرية على قدم المساواة.

بصيرة 2

التعريف بالله هو المحور الأول في السورة؛ لأنه يمثل البداية المنطقية في كتاب المعرفة الإنسانية؛ ولذا ساق أدلته بأوضح طريق يمكن للإنسانية أن تدركه.

بصيرة 3

يبصرنا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ بأن العبادة هي النظام الذي يذلل الحياة الإنسانية للتوافق الكامل السعيد مع النظام الكوني، الذي جعله الله في السماوات والأرض، وهو النظام الذي يكون التقوى في النفس، والمجتمع.

الأدلة، والأساليب الإقناعية على استحقاق الله تعالى للعبادة (البقرة 21-29)

أدلة الحياة السبعة التي تعود إلى آيات الأنفس والآفاق المادية المشاهدة المحسوسة

1. الدليل الأول: دليل التربية، ويبصرنا بهذا الدليل قوله تعالى: ﴿رَبَّكُمُ﴾ (البقرة:21).
2. الدليل الثاني: دليل الخلق: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ (البقرة:21).
3. الدليل الثالث: دليل خلق من كان قبلنا إلى الإنسان الأول: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة:21).
4. الدليل الرابع: دليل المسكن: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾
5. الدليل الخامس: البناء العظيم: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (البقرة:22).
6. الدليل السادس: تكوين الماء والتحكم في إنزاله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ (البقرة:22).
7. الدليل السابع: دليل الرزق والتغذية (الأمن الغذائي) ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ (البقرة: 22)

من ذا الذي بسط البسيطة للورى ... فرشا وتوجها بسقف سمائه

من ذا الذي جعل النجوم ثواقبا ... يهدي بها السارين في ظلمائه

من ذا أتى بالشمس في أفق السما ... تجري بتقدير على أرجائه

أسواه سواها ضياء نافعا ... لا والذي رفع السما ببنائه

من أطلع القمر المنير إذا دجى ... ليل فشابه صبحه بضيائه

من ذا الذي خلق الخلائق كلها ... وكفى الجميع ببره وعطائه

يا ويح من يعصي الإله وقد رأى ... إحسانه بنواله وندائه

الأمير الصنعاني -رحمه الله-

وهنا تسمع الله جل جلاله يسوق لك أدلة استحقاقه للعبادة بأوضح سبيل يمكن أن تدركه أفهام الإنسانية، فالأدلة ووسائل الإقناع التي ساقها تتسم: بأنها يفهمها الجميع ويستوعبونها سواء أكانوا من العامة أم من الخاصة، وهذه الخاصية يتكرر التأكيد عليها ضمن ذكر مزايا القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر: 17)، وبأنها متنوعة، فبعضها مادية محسوسة مشاهدة، وبعضها عقلية منطقية، وبعضها عاطفية شعورية

1 الدليل الأول دليل التربية، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّكُمُ﴾ (البقرة:21) من التربية، والرب هو السيد المطاع، والمربي للشيء حالاً فحالاً، والمالك له، فهو أنشأنا من العدم، وغذّانا بالنعم، ووالى علينا شتى أنواع العطاء والكرم

2 الدليل الثاني: دليل الخلق: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وخلق تدل على إيجاد شيء لم يكن موجوداً ثم تقديره الشيء الذي تم إيجاده، وفي هذه الحالة فالخالق الأول هو مصدر الخلق، فلا يحتاج إلى خالق

ويبطل السؤال: من خلق الخالق، فالله أحد صمد لم يلد ولم يولد، ولهذا قال علماؤنا: "إلهي كيف يستدل عليك من هو في وجوده مفتقر إليك»

ويبصرنا تقديم الله ما يدل على ربوبيته وتربيته للعالم على قوله ﴿خلقكم﴾ بأن التربية أهم من الإيجاد.

ويبصرك الاهتمام القرآني بأفعال الربوبية التي تشعر معها بعظمة الله، فلا يصرفنك عن ذلك قول بعضهم: حتى الوثنيون يقرون بذلك، بل اهتم بتفاصيل ذلك، فكُلُّ ما لفت القرآن المجيد نظرنا إليه فَالِاشْتِغَالُ بِهِ من أعظم العبادات التي تبني العلاقة بين الإنسانية وربهم العظيم

3 الدليل الثالث: دليل خلق من كان قبلنا إلى الإنسان الأول: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة:21)

بصيرة العبادة سببها العلم بأن الله خلق الكون، والعبادة مجاهدة للنفس نتيجتها تحقق التقوى، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 21)

4 الدليل الرابع: دليل المسكن: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أي جعلها لكم فراشاً تصنعون على ظهرها ما تصنعونه على الفراش الذي تتحكمون به كيف شئتم، وجمع الله لها بين خصائص مدهشة: فهي مسطحة حال تكورها، وساكنة حال تحركها، ومتنوعة التضاريس والعناصر والمواد ليستعان ببعضها على تشكيل بعضها الآخر

5 الدليل الخامس: البناء العظيم: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (البقرة:22) وسميت السماء لعلوها على الأرض وعلى سُكانها، وهي بناء محكم مرتفع السمك بغير عمد مرئية لا يمكن أن تختل قوانينه أو نظمه بفعلٍ إنساني

6 الدليل السادس: تكوين الماء والتحكم في إنزاله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ (البقرة:22) ولا يستطيع أحدٌ أن يزعم أنه يمكنه توليد الماء من العدم، أو التحكم في إنزاله في المناطق المختلفة من الأرض

7 الدليل السابع: دليل الرزق والتغذية (الأمن الغذائي) ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ والأمن الغذائي الإلهي لن يستمر لسنتين كما تفعل الدول التي تتخذ الاحتياطات الغذائية خوفاً من النكبات والحروب، بل هو مستمر منذ ما قبل آدم على امتداد السنوات والأعوام ولمختلف الأجناس والأقوام

لذا قال النبي ﷺ: ((أدعو إلى الله وحده الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن ضللت بأرض قفرٍ دعوته ردّ عليك، والذي إن أصابتك سَنَةٌ —يعني جدبٌ وجفاف مطر- فدعوته أنبت عليك))

النتيجة الحاسمة

لهذه الأدلة التي تشكل أعظم المعجزات البرهانية على استحقاق الله للعبادة:

التأكيد على توحيد من صنع ذلك، ونفي الشرك عنه، وتجد هذه النتيجة الحاسمة في ختام الآية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ ثم قال: ﴿وأنتم تعلمون﴾ (البقرة:22)؛ لأنه يخاطب كل واحدٍ من أفراد البشرية بما هو بدهي في عقله، سواء أكان عالماً نحريراً أم كان من عامة الناس، والنِّدّ: العِدْلُ والمِثل، وهو ما كانَ مثل الشيءِ يُضادُّه في أموره، أو كفؤه يقدر عليه، ففي هذه الأدلة السبعة تبرز كليتان من كليات التصور الإسلامي: وحدة الخالق لكل الخلائق ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ .. ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة وللإنسان ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً. وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾

ولذا قال أريك ميتاكساس موجهاً ضربة قاضية للإلحاد: ويختتم الكاتب مقاله بالقول: إن أعظم معجزة على مر الزمان هو وجود الكون، ولا يكاد يقترب شيء من عظمة هذه المعجزة. إنها أم المعجزات. إنها المعجزة التي تشير حتماً عند كل ومضة ضياء تنبعث من كل نجم من النجوم إلى شيء، أو أحد، فوق الكون

بصيرة 1 أدلة الخلق الإجمالي، والتفصيلي السابقة، تشكل أعظم المعجزات البرهانية على استحقاق الله للعبادة.

بصيرة 2 النتيجة الحاسمة لهذه الأدلة: التأكيد على توحيد من صنع ذلك، ونفي الشرك عنه، وتجد هذه النتيجة الحاسمة في ختام الآية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:22).

بصيرة 3 ختم الله هذه الجملة: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ بقوله: ﴿وأنتم تعلمون﴾؛ لأنه يخاطب كل واحدٍ من أفراد البشرية بما هو بدهي، سواء أكان عالماً نحريراً أم كان من عامة الناس.

8 الدليل الثامن: دليل التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:23).

بصيرة 1 هذا دليلٌ مزدوجٌ له هدفان: أولهما: تتمة إثبات وحدانية الله بأسلوب عقلي مختلفٍ عن الأدلة الأخرى؛ إذ القرآن مكونٌ من الأحرف التي تتكلمون بها، لكنه معجزٌ في ذاته، فلا بد أن يكون دالًّا على أنه كلمات الإله الذي تجب عبادته.

والثاني: هذا الدليل انْتِقَالٌ لِإِثْبَاتِ ركن الإيمان بالملَك الذي أنزل الكتاب، وبالكتاب، وبالرسول الذي جاء بالكتاب، فَأَقَامَ فيما سبق الدَّلَائِلَ المادية المشاهدة الْقَاهِرَةَ عَلَى إِثْبَاتِ وحدانية الله في استحقاقه لأن يعبد، وَأَبْطَلَ الشرك، وهنا أثبت ما يتعلق بالنبوة: الملك، والكتاب، والرسول، على هيئة التحدي.

بصيرة 2 التّحدّي بسُورَةٍ، وليس بآيات تعادل سورة؛ لأَنَّ مِنْ جُمْلَةِ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ أُمُورًا لَا تَظْهَرُ خَصَائِصُهَا إِلَّا بِالنَّظَرِ إِلَى كَلَامٍ مُسْتَوْفًى فِي غَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ، كما أن التحدي بالسورة يثبت بقاء التواتر اللفظي للقرآن الكريم، ويحقق استعصاءه على التغيير، مهما حاول شانئوه.

بصيرة 3 منشأ التحدي المذهل: الإعجاز القرآني المتنوع والمذهل؛ إذ يملك الكنوز التي يعجز الكلام البشري عن استيعابها، فمنها ما يرجع إلى اللفظ، ومنها ما يرجع إلى المعنى، وبعض أنواع الإعجاز ظاهرة بمجرد النزول، وبعضها تظهر تباعاً حسب تقدم البشرية، واكتشافها للجديد إما من خلاله، وإما من خلال معارفها، فتجد حقائقها متطابقة مع ما تم ذكره في القرآن الكريم.

هنا تدرك ما أراد ابن كثير حينما ذكر وجود وجوه خفية للإعجاز القرآني في قوله: "وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ، وَجَدَ فِيهِ مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ فُنُونًا ظَاهِرَةً وَخَفِيَّةً مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ، وَمِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى".

فما هذا الذي تجدّد بالقرآن من عظيم المزيّة، وباهر الفضل، والعجيب من الرّصف؛ حتى أعجز الخلق قاطبة، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القوى والقُدَر، وقيّد الخواطر والفكر؛ حتى خرست الشّقاشق، وعدم نطق الناطق، وحتى لم يجر لسان، ولم يبن بيان، ولم يساعد إمكان، ولم ينقدح لأحد منهم زند، ولم يمض له حدّ، وحتى أسال الوادي عليهم عجزًا، وأخذ منافذ القول عليهم أخذًا!؟

يروي الدكتور موريس بوكاي أنموذجاً للإعجاز العلمي المذهل من خلال قصة هامان المسؤول عن المحاجر الفرعونية، ورئيس البنائين، الذي لم توجد قصته في الكتب السابقة، ولم تكتشف إلا مؤخراً عبر الكتابة الهيروغليفية، حيث ذكره القرآن بوصفه وزيراً بفرعون طالباً منه أن يبني له صرحاً وهذا عين ما وجد في المكتشفات التي كتبت باللغة الهيروغليفية

والآن ماذا نقول؟ إلا كما قال الله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص:46-44).

بصيرة 4 وُصِفَ النبيُّ ﷺ في آية التحدي بالقرآن بالعبودية، ولم يوصف بالرسالة؛ لبيان المصدرية الإلهية للقرآن، وكون عبده قائماً برسالته على وجه الجبر، والالتزام.

بصيرة 5

قوله ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، جملة إثارية استفزازية، تتضمن تحدياً صارخاً مدهشاً؛ وذلك حتى يكتمل التحدي، ويظهر العجز من الخصم.

وبذا يظهر لنا معانٍ لهذه الجملة الإثارية الجدلية المتضمنة للتحدي: المعنى الأول: ادعوا آلهتكم من غير الله ممن هو معبوداتكم، أو: ادعو أكابركم من نصرائكم؛ ليعينوكم على المعارضة، والإتيان بشيء يماثل القرآن، فيكون الشهيد مجازاً عن الناصر، والمعين. ويكون معنى قوله: ﴿وادعوا﴾: استنصروا، واستغيثوا.

والمعنى الثاني: ادعو من يشهد لكم، أو ممن يشهد لكم ممن نرضاه وترضونه، ممن يقبل قولهم بأن ما أتيتم به يماثل القرآن.

ويكون معنى: ﴿ادعوا﴾: اطلبوا حضورهم؛ ليشهدوا لكم.

بصيرة 6

العجز عن معارضته، واستمرار ذلك العجز: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾، معجزة قرآنية مدهشة؛ لأنها تستفزهم استفزازاً شديداً إلى أن يبذلوا أقوى وسائلهم لمعارضته؛ ليثبتوا كذب هذه الجملة فحسب، لكن النتيجة أنهم: لم يفعلوا، وإمعاناً في التحدي، رأيت النفي القرآني لفعلهم مقترناً بالمستقبل: (ولن تفعلوا) في تحدٍ مستمرٍ عَلَى تَعَاقُبِ السِّنِينَ.

قصة طبيب مسيحي حاول أن يستجيب للتحدي:

تعالوا بنا إلى الدكتور إبراهيم خليل في كتابه الماتع: "لماذا أسلم صديقي؟ ورأي الفاتيكان في تحديات القرآن"؛ إذ نجده يحكي قصة طبيب مصري نصراني قرّر كتابة كتاب يرد فيه على تحدي القرآن، واختار له عنواناً مثيراً: "وانتهت تحديات القرآن"، وقد كتب عناوين بعض الفصول قبل أن يكتب تفاصيل الكتاب، فاختار هذه العناوين الأشد إثارة: (القضاء على أكبر الأكاذيب الدينية في التاريخ)، (أخيراً: هزمنا القرآن بالضربة القاضية).. كتب لأجل ذلك ثمانية آلاف خطاب لجميع أنحاء العالم يستحثهم على كتابة (خمس عشرة كلمة) فقط، هي عدد كلمات أصغر سور القرآن؛ لإثبات أن التحدي القرآني قد فشل.. المفاجأة بعد أربع سنوات من إثارته لكل من خاطبه لم يأته إلا أربعة ردود باهتة، تثبت بفحواها صدق القرآن بدلاً من أن تتحداه.. خاطب ألفي عالم، ومعهد، وجامعة، يستحثهم على الاستجابة لتحدي القرآن.

عبر عن خيبة أمله، فقال: إنه أمر غريب أن يصاب العالم أجمع بعقم فكري، فلا يستطيع أحد من علماء القرن العشرين أن يعارض القرآن ب 15 كلمة فقط.. إنه أكبر ألغاز القرن العشرين.!!!

9 الدليل التاسع: الإقناع بالترهيب من المآل المستقبلي لمن يغطي الحقائق: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:24)، وهذا التهديد لهم بالنار وأنهم وقودها

10 الدليل العاشر: الإقناع بالترغيب بالمآل المستقبلي لمن يجمع الاعتقاد النظري الصحيح، والعمل الصالح: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:25) وهذا التبشير قائم على ستة أصول هي أهم ما يضمن السعادة الدائمة للبشر، ويقيمون حياتهم في الدنيا لتوفيرها:

الأصل التبشيري الأول: إشاعة البشرى المحفزة للنفس المطربة للقلب.

الأصل التبشيري الثاني: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾، الجنات جمع جنة، فهي تشكل المسكن الهانئ المريح، حيث يمتلئ بالخضرة المتعدد الألوان؛ حتى أصبحت جمعاً، لا مفرداً.

الأصل التبشيري الثالث: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.. هناك ترى المياه المتدفقة، الجالبة للامتلاء، والسعادة، والمرح.

الأصل التبشيري الرابع: تجدد الطعام، مع المحافظة على حسن المنظر، والجوهر، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا...﴾.

الأصل التبشيري الخامس: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ (البقرة: 25).

الأصل التبشيري السادس: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، إنه نعيم أمن الانقطاع.

11 الدليل الحادي عشر: دليل صغار المخلوقات: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة:26):

بصيرة 1 ضرب الأمثال أسلوبٌ قرآني لا يستحيى منه، فهو يُنَمّي العقل، ويزكي الروح، ويوسع آفاق التفكير، ويلفت النظر إلى استكشاف البيئة التي تحيط بنا، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة:26).

بصيرة 2 مثل البعوضة يختصر صورة الحياة الدنيا، فهي تجمع البساطة لوضوحها، والضعف لصغرها وهشاشتها، والتعقيد لما تحتويه من أجهزة هائلة في حجم صغير، والإدهاش لامتلاكها ما لا يمتلكه الإنسان، والقوة لقدرتها على سلب الإنسان، ﴿فما فوقها﴾ ما هو أقل منها في الصغر والحقارة أو ما هو أكبر منها

بصيرة 3 تبصرنا الآية بردة الفعل التي ينبغي أن نستعد للتعامل معها أمام هذه الأمثال، حيث تنقسم البشرية إلى فريقين:

الفريق الأول:	الفريق الثاني:
﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، يؤمنون بالغيب، ويتيقنون أن هناك كنوزاً من المعاني فيما ضربه الله من مثل: فتكون مركزاً للاستكشاف والتفكر	الكفار يغطون الحق بالتشويش والإعلام المضلل: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾

بصيرة 4 يبصرنا قوله جل ذكره ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ بالأثر العظيم الذي يحدثه المثل القرآني حسب صفاء القلوب: فالفساق قساة القلوب يضلهم الله به لرداءة قلوبهم، حيث يصرون على رد الحق، وأما المؤمنون فيهتدون به لصفاء قلوبهم، حيث يسمعون الحقائق ويعتنقونها

بصيرة 5 ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ الإضلال.. جزاء وفاقاً، فليس المثل القرآني منشأ للإضلال بذاته، لكن الفاسق يتلقى الخير بالرد والصد واستخدامه في السوء، فهذه طبيعته الفاسقة، من قول العرب: فَسَقت الرُّطبة من قشرها إذا خرجت منها لعَاهَةٌ أفسدتها فجعلتها رديئة:

وقوله -تعالى ذكره- ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ تعني انتبه لخطواتك فالله تعالى خلقك على الفطرة، ولكنه مع ذلك جعلك مختاراً، فإن أنت خرجت عن طاعة الله فقد تعاقب بالطرد والإبعاد عن مهيع السعادة والرشاد

بصيرة 6

الصفات العملية الثلاث الكبرى المجرمة المدمرة للفاسقين، وبها استحقوا أن يضلهم الله سواء انتسبوا للكفر أم للإسلام:

الصفة الأولى:

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ (البقرة: 27) فدمروا علاقتهم بالله، فالنَّقْضُ: إفساد ما كان محكماً، أو نكث ما كان مبرماً، والعهد هو الوَصِيَّةُ الملزمة الحاضرة دومًا وتكون من طرفٍ يلتزم بها طرفٌ آخر، ميثاق الشيء المؤكد المحكم للعهد، والمعنى: ينقضون وصية الله الملزمة التي عاهدوه عليها مع إحكام هذا العهد بشتى المواثيق المؤكدة، مثل عهد الألوهية، وعهد العدل بين الناس، وذكره في أول سورة البقرة ليشير إلى العبث الإسرائيلي بالعهد الإلهي، حيث جعلوه مزية لهم لا يترتب عليه أي التزامات من جهتهم، وفسروه تفسيراً عنصرياً

الصفة الثانية:

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ (البقرة:27)، فدمروا العلاقة مع البشرية، فقد أمر الله بوصل كل علاقة بين أفراد الإنسانية ابتداء بالوالدين، ووصولاً إلى كل فردٍ بما يفضي إلى التنمية والاستقرار، ووصفها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصفاً توضيحياً تنموياً مدهشاً فقال: ((وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار))

الصفة الثالثة:

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة:27)، فدمروا العلاقة مع الحياة وبيئة الحياة، فيفسدون فيها بالإدارة الأنانية، وسن قوانين وتشريعات تدمر الأرض، وتقضي على الحياة الطيبة فيها، وكل ذلك يعكس الجشع الفظيع الذي يستحوذ على قلةٍ غنيةٍ لا تبالي بالآخرين، وتريد فقط مضاعفة أرباحها السنوية، حتى لو دمرت الأرض، ويشرعون نظاماً مفترى قائماً على الأكاذيب، والتغيرات المناخية مجرد نذير صغير لإفسادهم في الأرض

بصيرة 7

من بصائر واو الجماعة في هذه الأفعال الثلاثة: (ينقضون - يقطعون - يفسدون): بناء الصداقات، والتحالفات –الصغيرة، والكبيرة، المحلية، والدولية- التي تجتمع على الإثم والعدوان، بدلاً من إسعاد الناس، وتنمية الحياة. فيجب على المتقين، أن يواجهوا هذه التحالفات الفاسقة؛ ببناء صداقات، وتحالفات صغيرة وكبيرة، محلية، ودولية، تجتمع على البر، والتقوى، والحق، والعدل.

بصيرة 8

يبصرنا الله بنتائج فسقهم وأفعالهم المجرمة، فأما في الدنيا فإن يعاقبهم الله بأن يبعدهم عن الهدى ويضلهم ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة: 26)، وأما في الآخرة فقد قال الله عنهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة: 27) والخاسر هو الذي أضاع جزءاً من رأس دون مقابل، فكيف بمن أضاع نفسه وأهله وماله

12 الدليل الثاني عشر: دليل مراحل الوجود الإنساني ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: 28)

فالخطاب متصلٌ، حيث قال الله وهو يعلن للناس عن نظام العبادة، وبراهينها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البَقَرَة:21).. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً... فلا تجعلوا لله أنداداً..﴾ (البَقَرَة:22).. ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا..﴾، ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار..﴾، ﴿وبشر الذين آمنوا..﴾، ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً..﴾، ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم..﴾

أي كيف تسترون حقيقة الإيمان بالله ومراحل وجودكم الإنساني خمس لا يتحكم بها أحدٌ إلا هو: ثلاث مشاهَدة (العدم ثم الحياة ثم الموت)، واثنتان غيبيتان تدل عليهما المراحل المشاهدة السابقة، وهما (الحياة الأخرى ثم الرجوع إلى الله للحساب).. إن كفركم بمن يتحكم بكم وجوداً وعدماً وعنده حسابكم النهائي حالة خبل عقلي، فالاستفهام في قوله: ﴿كيف﴾ للتعجب والإنكار التوبيخي، وكتب **Lammens** بأن القرآن يعتبر تقريبا أن حالة الكفر هي حالة ضعف في العقل البشري

13 الدليل الثالث عشر: دليل التسخير لخيرات الأرض ليتم الاستمتاع بالحياة، ويبصرنا به قوله جل ذكره ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾

وكلمة ﴿جميعاً﴾ تدل على أن كمال الاستمتاع الحيوي بالأرض لا يتم إلا باستشكاف الأرض والبحث عن خيراتها كلها، وهذا يقتضي التعاون والتآزر والتساند والتعاضد بين أبناء البشرية

14 الدليل الرابع عشر: دليل الملك والحكم للمخلوقات العظيمة: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ (البقرة: 29)، والمعنى كما يفهم من كلام الطبري وابن كثير: قصد وأقبل إليهن فعلا عليهن وارتفع، فدبرهنّ بقدرته، وخلقهنّ سبع سموات، وخلقهن أكبر من خلق الناس، ولا يوجد أحد من الجبابرة الذين زعموا الألوهية يدعون أنهم يقدرون على شيء منها، فهي من أعظم أدلة استحقاق الله للإيمان به، وعبادته.

للإجابة على هذا السؤال أقدم لك هذه الخلاصة الهادية في الجمع بين هذه الآيات:

قصة تبين بداية الخلق الكوني، وتشير إلى تحديد الموعد الزمني بين خلق الأرض والسماء.

خلاصة هادية في الجمع بين هذه الآيات: فقد مرّ الخلق الأول للسماء والأرض بخمسة مراحل متداخلة:

المرحلة الأولى: خلق الله السماء، ولكن على هيئة دخان، ويدل لذلك قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، وخلق الأرض في الوقت ذاته؛ لتكون جزءاً من السماء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (فصلت:9)، فكانتا مرتتقتين (متلاصقتين)، كما أفاد ذلك قول الحق: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء:30)، ففتق الله السماء في هذه الحالة، فبناها: بأن رفع سمكها فسواها

المرحلة الثانية: لما فتق الأرض عن السماء، جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا، وَبَارَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي يومين آخرين؛ وبذا خلق لنا ما في الأرض جميعاً، وتم ذلك في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سواء

المرحلة الثالثة: بعد ذلك استوى إلى السماء وهي ما زالت دخاناً: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

المرحلة الرابعة: ولما قالتا: أتينا طائعين، وهو قد استوى إلى السماء، قضاهنّ –كما في سورة فصلت المكية– وسواهنّ –كما في سورة البقرة المدنية– ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾، أي: قدّر أنظمتها، وقوانينها، ثم قال: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت:12)، فخلق نجومها، التي صارت مصابيح للسماء، وواكب هذه المرحلة مرحلة خامسة خلال تلك اليومين

المرحلة الخامسة: مرحلة دحو (دحي) الأرض، فقد قرر أئمة اللغة أن الدحو غير الخلق، وقد قال الله عن هذه المرحلة: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ والدحو يدل على التمهيد والبسط والسعة بما يتناسب مع من يعيش على الأرض، كالبسط المناسب لبيضة النعام، فإنه بسطٌ على هيئة البيضة، وليس امتداداً محضاً، وقد قالوا: اندحى البطن اتسع، ولا يظهر اتساعه إلا إذا انبسط واستدار للسمن، وفسر الله الدّحْيَ بِإِخْرَاجِ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ فَأَخْرَجَ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا مِنَ الْمِيَاهِ، فَنَبَتَتِ النَّبَاتَاتُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا، وذلك في قَوْلِهِ: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (النَّازِعَات: 30-32)

فمن لا يعلم شيئًا أو يعلم شيئًا يسيرًا لا يستحق أن يعبد، بل الذي يعبد هو الذي علم كل شيء، وناسب وجود هذا الدليل قبل قصة آدم عليه السلام حيث لا يعلم بتفاصيلها إلا الذي خلق آدم عليه السلام

نقل موقع عربي21:

قال عالم الفيزياء الفلكية البريطاني مارتن جون ريس: إنه وبعد إجراء سلسلة من البحوث، انتهى إلى أن الكون لم يأت من عدم، وأنه من صنع خالق.

وأوضح "ريس" أنه وبعد أن كان يعتبر نفسه غير متدين في السابق، رغم ارتياده الكنيسة، إلا أنه لم يؤمن بالله إلا بعد بحوثه، والفتوح العلمية التي توصل إليها.

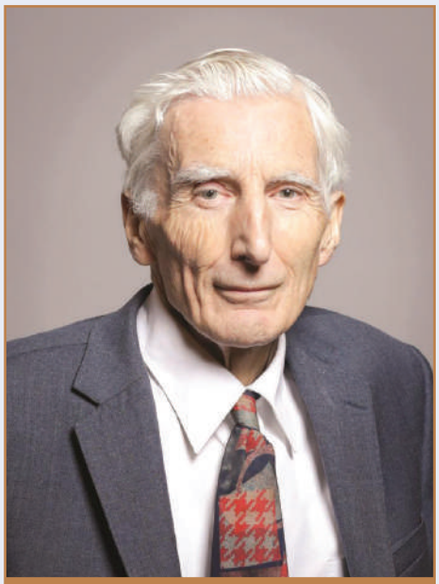

مارتن جون ريس (1942 م)

وهذا مثال أورده موقع موسوعة (Wikimedia)

لقد كان معلومًا للناس قديمًا إن الذكورة والأنوثة لا توجد إلا في الإنسان والحيوان، أما في النباتات فلم يعلم الناس حقيقة هذا الأمر إلا في الوقت الراهن بعلم النبات، مع تقدم علم التشريح للنبات، في حين أن القرآن ذكر ذلك في قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس:36)، كما كان الناس قديمًا يجهلون حقيقة النباتات وتكوينها، وكشفت العلوم الحديثة أن النباتات تتكون من مواد أساسية واحدة هي :(كربون، وهيدروجين، ونتروجين، وكبريت أو فسفور) وبعض المواد الضئيلة الأخرى، غير إن سبب اختلاف نسبة التراكيب الكيمياوية في النبات يرجع إلى اختلاف أوزان النبات في كل منها، وإن جذر كل نبات لا يمتص من المواد في الأرض إلا بمقادير موزونة محددة، وبهذا تكلم القرآن لنا عن هذه الحقيقة العلمية بقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (الحجر: 19)

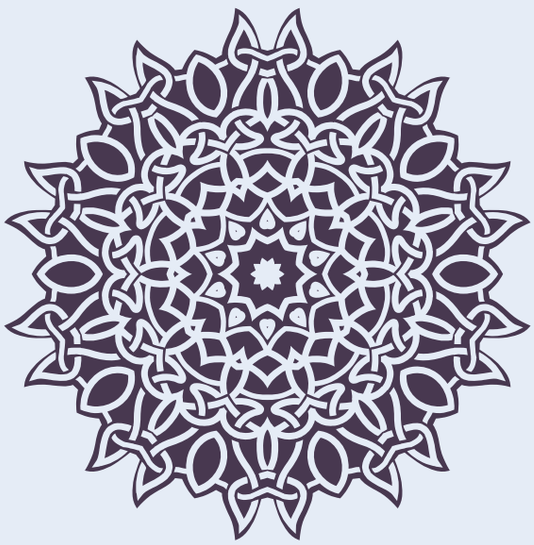

المحور الثاني

القصة الحقيقية لبدء التاريخ البشري والتكريم الإلهي للإنسانية بالاستخلاف في الأرض

(30-39)

المحور الثاني

القصة الحقيقية لبدء التاريخ البشري، والتكريم الإلهي للإنسانية بالاستخلاف في الأرض [البقرة:30-39]

المناسبة والاتصال:

تتجلى الوجوه الآتية في المناسبة والاتصال بين هذا المحور وماقبله:

1. الوجه الأول: بدأت سورة البقرة بذكر الكتاب الذي لا ريب في إصلاحه للعالم، ثم ذكرت الخلق الكوني، والتسخير الأرضي قبل ذكر البداية الوجودية للبشر؛ ليستبين للإنسانية أن الله جعل الشريعة لصالحهم، كما جعل الطبيعة مسخرة لهم، وهنا ترى القرآن المجيد يقدم لك وحده ثروة هائلة "من الحقائق، والتصورات القويمة، وثروة من الإيحاءات، والتوجيهات الكريمة، وثروة من الأسس التي يقوم عليها تصور اجتماعي، وأوضاع اجتماعية، يحكمها الخلق، والخير، والفضيلة".

2. الوجه الثاني: الاتصال اللغوي الخطابي الذي يؤديه حرف العطف: (الواو) بصورةٍ مدهشة!، فكأن الله -سبحانه وتعالى- قال لهم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:28)؟

3. الوجه الثالث: ختم المحور السابق بصفة العلم، وهنا بين تميز النوع البشري بصفة العلم.

- وكيف تكفرون بالله و﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة:29)؟
- وكيف تكفرون بالله وهو الذي ﴿اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ (البقرة:29)؟
- وكيف تكفرون به ﴿وهو بكل شيء عليم﴾؟
- وكيف تكفرون به وقد قال للملائكة: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، فأعطاكم هذه المكانة..؟

المحور يتكون من ثلاثة أقسام، توضح للبشرية البداية الحقيقية لوجودهم في العالم، وهذه الأقسام هي:

القسم الأول: القسم الأول: بداية الوجود البشري، ومظاهر تكريم الإنسان الأول (آدم عليه السلام): (30-34)

القسم الثاني: تدريب آدم -عليه السلام- على الحياة الأرضية النظامية خلال الفترة التجريبية للتعامل مع الواقع: (35-36).

القسم الثالث: عوامل النجاح في اختبار الاستخلاف في الحياة الدنيا: (36-39).

القسم الأول:

بداية الوجود البشري، ومظاهر تكريم الإنسان الأول (آدم عليه السلام) (30-34) ويتكون هذا القسم من 7 أصول تكريمية:

الأصل التكريمي الأول:

بيان الخريطة الحقيقية للحياة الإنسانية، بعيداً عن التخمين، والتيه، والضياع، والضلال، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:28).

الأصل التكريمي الثاني:

تهيئة البيئة المناسبة للحياة الإنسانية، فالإنسان هو السيد الأول للأرض، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:29).

هنا توقن بالنظرة الإسلامية للإنسانية.. إنها نظرة مدهشة، لقد خلق الله لنا ما في الأرض جميعاً، وبذلك ترى الإنسان "أعز، وأكرم، وأغلى من كل شيء مادي، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعًا. ولا يجوز إذن أن يستعبد، أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية، أو شيء مادي.

الأصل التكريمي الثالث:

التكريم بالإعلام عن خلق آدم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ (البقرة:30).

1

فـ(إذ) اسم مبهم يدل على حدثٍ في زمنٍ مضى، ويلزم الإضافة إلى الجمل أبداً، أي: كيف تكفرون الله وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً، واذكروا إذ قال للملائكة تكريماً لكم: إني جاعل في الأرض خليفة، فاسمعوا القصة الحقيقية لوجودكم على الأرض، بدلاً من الأوهام، والخرافات، والأساطير التي يتم بها إضلال العقل البشري.

2

(إذ) تأتي لمعنيين أساسيين:

الأول: لبيان الماضي

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:30)، كأنه يقول: أيها البشر، إليكم قصة مجيئكم إلى هذا الكون.

الثاني: لبيان الحقيقة

كما في قوله تعالى ذكره ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ (النجم: 32)

3

ولا يظهر سببٌ مقنعٌ يتناسب مع جلال الألوهية، وواقع البشرية لإخبار الله تعالى ملائكته عن هذا المخلوق الجديد الذي سيكون خليفة في الأرض إلا سبب واحد، هو تكريم الله تعالى آدم وذريته؛ بإعلام العباد المكرمين من الملأ الأعلى -وهم الملائكة- عن خلق البشرية.

الأصل التكريمي الرابع:

التكريم بجعل آدم -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- خليفة في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:30).

بصيرة 1

الوجود الإنساني يعكس الرحمة الإلهية، والتكريم الرباني، والخلافة في الأرض ليست عقوبة، بل تشريفٌ يتضمن التكليف، حيث قرره الله قبل الخلق الإنساني، وأعلم به الملائكة، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فكأنه قال: إني خالق بشرًا وجاعله خليفة، فوصول الجنس البشري إلى الأرض ليقوم فيه بوظيفته الوجودية، كان محسوماً من قبل.

بصيرة 2

الاستخلاف هنا يعني القيام على عمارة الأرض، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:61)، وقال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هود: 84، 85)، وإذا كان الله -تَعَالَى- خَلَقَ الْعَالَمَ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً، فإنه قد سخر كل تلك الأنواع لخدمة خليفة الأرض المختار وهو الإنسان. .

بصيرة 3

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾، تبصرنا بأخطر جريمتين يمكن أن يقوم بهما مخلوق، وهما:

الأولى:

الإفساد في الأرض، وهي كلمة جامعة لكل تغيير سيء، أو هدمٍ للواقالثانية: ع الصالح الذي خلق الله عليه بيئة الأرض وفطرة أهلها

الثانية:

سفك الدماء يعني التخلص ممن خلقهم الله ليشاركوا إخوانهم في الإنسانية في حق الحياة، فيسكبها المعتدي بسطوة وبطش من خلال القوة الغضبية والاستكبارية لتخرج خارج الجسد، وتفارقه، فيموت الجسد

بصيرة 4

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، يبصرنا السؤال الملائكي بأن سؤال الاستفهام، والاستعلام، والاستكشاف جزء من النظام الإلهي في الخلق، وهو مفتاح المعرفة المبصرة الصادقة لاستكشاف الوجود الكوني.

بصيرة 5

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، تبصرنا بأن الملائكة ذكرت التسبيح ليبينوا اجتهادهم في تنفيذ أمر الله، لا على أنهم يمنونّ في ذلك، فهم أرادوا أن يخبروا أن سؤالهم كان للاسترشاد، لا للاعتراض.

والتسبيح هو التنزيه والتعظيم، والحمد هو الشكر والثناء أي ننزهك عن النقص في فعلك، ونعظمك في ذاتك حال كونين حامدين لك، ويظهر لي أن معنى قولهم ﴿ونقدس لك﴾ هنا معناه نطهر لك أنفسنا من ذنوبنا وخطايانا لتكون لائقة بالتسبيح بحمدك، ولذلك عدّوه باللام فقالوا: ﴿نقدس لك﴾

بصيرة 6

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾من واجب المخلوق المستخلف في الأرض -بحسب التصور الملائكي- أن يلزم خطة العبودية لله مديما لذكره وتسبيحه حتى تستمر أهليته لمنصب الخلافة.

بصيرة 7

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا الجواب عن سؤالهم: لا يمكن لهم أن تظهر لهم الحكمة لضعفهم، لكنهم يجب أن يذكروا أن هناك أهداف يعلمها الله، ربما استبان لهم بعضها لاحقاً، فالجواب تذكيرٌ بما تعلمه الملائكة من سعة علمة ليكون تذكيراً مُشَوِّقاً للمعرفة المستقبلة، ويعطي أمرين معاً:

التسليم للغيب، والاندفاع للبحث عن المعرفة الكاشفة لما يمكن معرفته من هذا العلم الإلهي وفق الاستطاعة؛ كما تدل على أن وجود إفسادٍ مستقبليّ جزئيّ لا يعني ترك إقامة ما يؤدي إلى الصلاح الكلي

الأصل التكريمي الخامس:

تكريمه بالعلم، والمعرفة (الاستعداد الإنساني للمعرفة) ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾ (البقرة:31-33).

بصيرة 1

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:31)، تبصرنا بأن تسمية الله تعالى لآدم بهذا الاسم؛ ليعبر عن طبيعة ذريته المختلفة حيث خلق آدم من أديم الأرض، ولذا قال النبي ﷺ: ((إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم: الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب)) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، فينبغي التعامل بواقعية معهم، لا بمثالية تعمي، وتصم.

بصيرة 2

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:31)، تبصرنا بأن أعظم المزايا الإنسانية تعليم الأسماء كلها أي أسماء كل شيء، وذلك يعني معرفة سبب التسمية، ومعرفة خصائصها.. فعلى ماذا يدل هذا؟ يدل على وجود الأساس المعرفي لتكوين المعارف المتراكمة.

بصيرة 3

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:31)، عرض هذه المسميات بأشكالها، وشخوصها؛ وفي ذلك إشارة إلى استعمال الأساليب المختلفة لإيصال العلم، وبيان الحكمة.

بصيرة 4

جواب الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:32)، من أعظم مفاتيح صلاح القلوب، وتملك المعرفة، فطلب العلم يكون بالاعتراف بعدم العلم. وفي ذلك تزكية النفوس وصفاء القلوب، وفتح المغلقات، ومعرفة الجديد

بصيرة 5

هذه القصة من أعظم الأدلة على المصدرية الإلهية للقرآن الكريم، ومن أكبر المعجزات التي تدل على صدق نبوة النبي ﷺ؛ إذ إنها تتضمن علماً غيبياً ليس بيد البشر اكتشافه، وتتضمن معلومات وجدت في الكتب السابقة، فجاء القرآن مصدقاً لها

وتتضمن تصحيحاً لمعلومات مغلوطة محرفة وردت في الكتب السابقة، فجاء القرآن مقوّماً لها، وكل ذلك بيانٌ للتحدي الوارد في قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:23).

بصيرة 6

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، العلم الكامل، والحكمة المطلقة أهم صفتين للتدبير الحق في الكون، ولا يتصف بهما أحدٌ على سبيل الكمال إلا الله، وذلك يعني أن نسلم له في شرعه.

فـ﴿عليم﴾ صيغة مبالغة من عالم فله العلم الذاتي كله من غير تعليم، و﴿حكيم﴾ صيغة مبالغة من المحكم فله الحكم والإحكام الذي يتضمن الحكمة التامة، وَالْحِكْمَة «معرفَة أفضل الْأَشْيَاء بِأَفْضَل الْعُلُوم» عند الغزالي، وهي المتقنة للصنع المانعة للفساد

بصيرة 7

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، العلم المؤسس على الوحي الإلهي، سرّ تميز الجنس البشري، فاستمد آدم علمه من الوحي الإلهي، وبَنَى على تعلم أسماء كل شيء: العلم المتراكم المبني على التجربة. فتم تعليم آدم، ولكنه استمد علمه من الذي يعلم السر في السموات والأرض

بصيرة 8

﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة:33)، تبصرنا بأن الأصل في التعليم الحوار، والحلم، والتلطف، وإعادة المعلوم نظرياً لتثبيته واقعياً.

وفَرّقَ بين الإبداء والكتمان حيث قال ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ لأن الإبداء يتحقق فور الفعل، أما الكتمان فإنه يكون قبل الحوار، ثم يستمر بعد الحوار، فهذه الكلمات تجمع الخوف والفرح، فحريٌ بالبشرية أن تخاف منه جل ذكره وترجوه، فهو يعلم آلام النفوس وخفي مكرها

الأصل التكريمي السادس:

تكريم آدم عليه السلام بإسجاد الملائكة له: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ (البقرة:34).

فكانت الطاعة لله، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم بأن أسْجَد له ملائكته

وتجد آية الحجر، وص، تدلان على أن الأمر بالسجود تم الإعلام به قبل خلق آدم -عليه السلام-، حيث قال الله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر:29-28)، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص:-71 72).

اجمع بين هذه الآيات جميعاً ليتضح لك أن الأمر بالإسجاد أمرٌ مستقل تم قبل خلق آدم عليه السلام، والعطف بالواو هنا، فأذعنت الملائكة لذلك دون مراجعة. والسجود في الإسلام أعلى أنواع الذل أمام الله الرب الأجل إذ هو أخفض طأطأة للرأس ليلامس الأرض لقصد التعظيم أو التكريم لمشاهَدٌ بالعيان أو لمشاهدٌ بالجَنان

الأصل التكريمي السابع:

رسم خريطة المستقبل بالتمييز بين الأولياء الحلفاء وبين الأعداء: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ (البقرة:34)، وفي هذا الأصل البصائر الآتية:

بصيرة 1 التحالف مع عدو البشرية الأول (إبليس)، يعني جلب الخسارة، واليأس، والحرمان؛ فـ(إبليس) على وزن إفعيل، من أبلس، أي: أصيب بالدهشة، والوجوم؛ لخيبة أمله، ويأسه، وانقطاع رجائه.

بصيرة 2 اعرف عدوك، واحذر خطواته؛ فقد جمع إبليس بين ثلاث صفات إجرامية هي المراحل المتدرجة للوصول إلى مرحلة الإجرام الكامل: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، فالإباء رفض السمع والطاعة، والاستكبار طلب تكبير نفسه فوق حجمها، فرفع نفسه إلى مرتبة فوق مرتبة المخلوق، والكفر يعني التغطية الذي يؤدي إلى الجحود.

والمبادرة إلى السمع والطاعة والانتظام في النظام الكوني العام الذي وضعه خالقه أعظم معين على ترك النزعة الإبليسية، والبعد عن اليأس والندم، والأحزان والألم، وهذه الصفات الثلاث بوابة سفك الدماء، والإفساد في الأرض

بصيرة 3 ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، الصفات الثلاث بوابة سفك الدماء، والإفساد في الأرض.﴿أَتَجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها وَيَسفِكُ الدِّماءَ﴾ (البقرة: 30)

وهو الأصل التكريمي الثامن:

تدريب آدم وحواء -عليهما السلام- على الحياة النظامية خلال الفترة التجريبية للتعامل مع الواقع (35-36)

بصيرة 1

خلق الله البشر لمصلحتهم ومنفعتهم وتكريمهم، ولذا أسكن أبويهم الجنة ابتداء، ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، خاطب الله آدم باسمه تكريماً حسب السياق، فقال له: ﴿اسْكُنْ﴾ من السكون والاطمئنان، والأمان، والاستقرار، وعدم القلق، وهيأ له رفيقاً يأنس به، أمره بالأكل ليجد اللذة، ويبقي الجسد حياً نشطاً قوياً ﴿رغداً﴾ أي كلا هنيئاً واسعاً رافهاً لا يتعب صاحبه؛ ولا يجد فيه من يحاسبه

بصيرة 2

﴿من أعظم أهداف الشريعة الإسلامية حماية الإنسان من الوقوع في الظلم، وتربية الإرادة القوية الذاتية في الإنسان ليتعود على النظام الدقيق، ويبصرنا بذلك قوله جل مجده: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فلم يقل: ولا تأكلا، بل نهى عن مجرد القرب فقال: ﴿ولا تقربا﴾.. مدهشٌ جداً أن ترى أن أول الأهداف المرسومة من التنظيم الشرعي للحياة الإنسانية هي منعه من الظلم.. وللمنع من الظلم لا بد من إقامة منطقة عازلة للمشتبهات بين الظلم والعدل

بصيرة 3

يبصرنا قوله تعالى مجده: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (البقرة: 36) بالبداية المبكرة لاختراق الشيطان للمناعة الإنسانية حيث أوقعه في الزلل، فانتصر الشيطان في المعركة الأولى، حيث وضع دراسة تجريبية مبكرة حول الطبيعة الإنسانية، إذ يقول ﷺ: « لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِى الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لاَ يَتَمَالَكُ »

قرأ حمزة ﴿فأزالهما﴾ أي أزالهما الشيطان عنها أنه نحاهما تنحية صادرة عن التشويق للشجرة، أي زينها لهما فأزالهما عن المنطقة الواسعة المباحة، فدخلا في المنطقة المحظورة ولما دخلا المنطقة المحظورة تصور قراءة الجمهور ﴿فأزلهما﴾ أنه أوقعهما في الزّلة وهي الخطيئة، وكان ذلك مؤشراً على إخراجهما مما كانا فيه من النعيم ، فربح الشيطان هذه الجولة

بصيرة 4

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (البقرة:36)، تبصرنا بوجوب الحذر الشديد من ارتخاء الدفاع البشري أمام الشيطان، وضرورة تنمية خواطر الخير مقابل خواطر السوء، فربح الشيطان الجولة الأولى من المعركة مع الإنسانية، فنسب الله الإزلال والإخراج إلى إبليس.. إلا أننا ينبغي أن نستذكر أنه لم يكن ليوقعهما في الزلة لولا قابليتهما لذلك، وارتخاء جدارهما الدفاعي، كما أن في ذلك تلطفاً بهما ليستعينا بربهما على ضعفهما وعدوهما

بصيرة 5

الوقوع في الزلل كان مسؤولية مشتركة بين الرجل والمرأة.. ويبصرنا بذلك الضمير في: ﴿فأزلهما – فأخرجهما﴾، وليس كما يزعم المحرفون أن سببه المرأة، ورواية التوراة الحالية تناقض ذلك، فتلقي باللائمة على المرأة، وتجعلها السبب في إغواء آدم عليه السلام، حيث جاء في الأصحاح الثالث من سفر التكوين أن سبب زلل آدم هو حواء وسبب زلل حواء هو الحية

بصيرة 6

اقتضت تهيئة آدم لطبيعة العيش في الأرض أن يختبر في الجنة بموقف من جنس مواقف العيش الأرضي المستقبلي بنوازعه وتجاذباته الخيرة والشريرة.

القسم الثالث:

عوامل النجاح في اختبار الاستخلاف في الحياة الدنيا (36-39)

العامل الأول

استيعاب أن الاستخلاف الأرضي تشريف، وتكليف، وليس بسبب نظرية الخطيئة الأصلية، التي انتقلت من آدم إلى بنيه بغير ذنب منهم، كما زعم المحرفون، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:30)، مع قوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ وبذا تتضح طبيعة الوجود الإنساني في الأرض، فخروج آدم وزوجه إلى الأرض، جزء مقرر مسبقاً ضمن الخطة الكونية في الخلق البشري، ووقوعهما في الزلل علامة على الخروج، وإن كان في لمحة منه تأديباً لهما على ما وقع من الزلل، لكنه محى السيئة المترتبة عنه بالتوبة، ويظهر هذا عند الجمع بين هذا الموضع وبين الآية (30) التي أخبر الله فيها أنه سيجعل في الأرض خليفة، وليس في الجنة

العامل الثاني

الاستعداد لمواجهة العداوات المستقبلية، والفشل نصيب من جعل عدوه صديقاً له؛ إذ العداوة هنا أبدية، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (البقرة:36)، و﴿اهبطوا﴾ معناه الانتقال غالباً من أعلى إلى أسفل عَلَى سَبِيلِ الْقَهْرِ أو الاختيار، وضمير الجمع هنا يعود لآدم وحواء عليهما السلام وإبليس لعنه الله

العامل الثالث

الاستفادة من البيئة المهيئة مكانيًا، وزمانيًا: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة:36)، فالمستقرّ مكان الاستقرار الذي يدل على التمكن، والاطمئنان، والمتاع كل شيء ينتفع به في مدة، وتصحبه لَذَّةٌ، من معاش أو شهوة نفسية أو جسدية أو عقلية، والمستقر والمتاع ﴿إلى حين﴾ فطبيعتهما الأرضية تأبى الدوام بل هما مؤقتان

العامل الرابع

التوبة تظل مفتوحة عند أي فشلٍ مؤقت في المعركة مع الشيطان باقتراف المعصية، فيلجأ العبد إلى الله منيبا فيتقبله ربه ويزكيه بما يعينه على قلب الهزيمة إلى انتصار، ويبصرنا بهذا قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة:37).

بصيرة 1

مدى التوبة مفتوح، وكلمة: (حين) التي جاءت في الآية السابقة، تدل على بقاء التمتع إلى خروج الإنسان من الأرض: إما بالموت، وإما بقيام الساعة.

بصيرة 2

﴿فتلقى آدم﴾، تبصرنا بمدى رحمة الله بالإنسانية؛ إذ علمها ما به ترجع إليه، وتكسب رضاه، فالمعنى: فلقى الله آدم كلمات بأن علمه إياهن ليقولهن فيتوب، وهنا قرأ ابن كثير ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ﴾

فالكلمات تلقت آدم في حمأة سقوطه المدوي في تلك المعصية فأنقذته، وتكمل التصوير قراءة الجمهور؛ إذ تلقاها آدم تلقي إقبال وأخذ ومسرة، ولم يردها كما رد إبليس أمر ربه، ولما قال تلك الكلمات فرحاً بها نادماً على زلته ﴿فتاب عليه﴾ فتاب آدم أي رجع عن الذنب على أجمل الوجوه، فتاب الله عليه أي رجع عليه بمحبته وإحسانه كأن لم يذنب

بصيرة 3

﴿فتاب عليه﴾ تبصرنا هذه الكلمة من خلال لفظها بكيفية قطف ثمرتها فكلمة (تاب) توباً وتوبة تعني رجع رجوعاً فإن رجعت إلى الله رجع الله إليك، وذهب الخليل إلى أن معنى التوبة: الاستِحياءُ، وذهب الراغب إلى تعريف التوبة على أساس أثر الاستحياء والندم والرجوع فقال: "التوب ترك الذنب على أجمل الوجوه"

بصيرة 4

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:37)، تبصرنا صيغ المبالغة هنا بمدى الرحمة الإلهية بالحياة الإنسانية، ويبصرك صيغ المبالغة في قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 37) بمدى الرحمة الإلهية بالحياة الإنسانية؛ فالتواب تبصرك بكثرة من يذنب، وكثرة ما يصدر من الذنب عن الواحد منهم، ولكن الله ﴿تواب﴾ كثير التوبة على الجميع

والنبي ﷺ يقول –فيما يرويه الترمذي-: ((قال الله يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي))، وقرن اسم الرحيم بالتواب لأن الرحمة أساس التوبة، ولأن الله –تعالى مجده- لا يغفر لهم السيئات، بل يغدق عليهم بالخيرات

العامل الخامس:

اتباع المنهاج الإلهي الدستوري الهادي لكيفية بناء الحياة الأرضية؛ لضمان عدم الخوف من المستقبل، وعدم الحزن على الماضي، وإلا واجهنا المصير الخطير للكافر الذي يغطي أعظم حقائق الكون، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ...﴾. (البقرة38)

بصيرة 1

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ تبصرنا بأن ذكر الهبوط مرة أخرى لمصلحة عظيمة للبشرية؛ ليتم التنبه إلى التخطيط الجيد والواعي للحياة المستقبلية القادمة، فذكره في الأول لبيان تحقق علامة الهبوط وهو الأكل من الشجرة، وذكره هنا لبيان أنه مقصودٌ من خلق البشرية حتى تتحقق المصالح المتعلقة بالاستخلاف، فهو مقصودٌ عند خلق آدم عليه السلام وقبل أن يُذنب

بصيرة 2

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، تبصرنا بأن الهدى منهج يجب اتباعه، يضمن القيادة للبشرية إلى الحياة الممتعة؛ إذ هذه الجملة شرط، وجوابه هو الشرط الثاني مع جوابه.

بصيرة 3

بمجيء المنهاج الذي يحوي الهدى الإلهي، يعطي الله البشرية الإرادة الحرة للاختيار، ويحذرهم بصرامة ليتعاملوا مع الحياة بجدية؛ لأنه سيترتب على اختيارهم نتائج خطرة، وهنا تبين لك الآيتان أهمية الاختيار؛ لأنهم سينقسمون إلى صنفين:

الصنف الأول:

الصنف المتبع للهدى الإلهي، وقال الله فيه: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:38)، وكلمة (تبع) "بِالْإِقْدَامِ عَلَى مَا يَلْزَمُ وَالِاحْجَامِ عَمَّا يَحْرُمُ" كما يقول الرازي، وهي كلمة تدل على أن التابع يقفو الهدى ويتلوه، ويتتبع أثره وخطاه وتعاليمه، ويبحث عن نظمه ليلتزمها.. وهي كلمة تتضمن تحديداً واضحاً للخطوات التي ينبغي أن يتحرك خلفها الفائزون، فهؤلاء ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المستقبل الدنيوي والأخروي ﴿ولا هم يحزنون﴾ على الماضي، فالأمان المستقبلي من المخافات القادمة، وإزالة الأحزان على الآلام الماضية يعطي الشعور الحقيقي بمتعة الحياة

الصنف الثاني:

الصنف المعرض عن الهدى﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:39) كفروا فغطوا الحقائق، وكذبوا أي نسبوا الكذب للآيات، مع أن الآيات جمع آية وهي العلامة والحجة والبرهان؛ لِأَنَّهَا تُظْهِرُ الْحَقَّ الْخَفِيَّ، وعند الجمع بين الآيتين يكون المعنى: فمن آمن وصدقوا بآياتي وتبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهم أصحاب الجنة هم فيها خالدون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فاتبع ضلالات الخلق بدلاً من هدي لحقه الخوف والحزن، وصار من أصحاب النار هم فيها خالدون.

العامل السادس

استلهام تجربة الإخفاق الأولى التي خاضها الأبوان وتوظيفها في التقرير المستمر للعداوة الأبدية مع إبليس وأتباعه.

المحور الثالث

(المحور الإسرائيلي) الأنموذج الإسرائيلي بين النجاح والفشل في إقامة مبادئ الاستخلاف

(البقرة40-123)

المحور الثالث:

(المحور الإسرائيلي) الأنموذج الإسرائيلي بين النجاح والفشل في إقامة مبادئ الاستخلاف [البقرة:40-123]

أقسام هذا المحور:

القسم الأول:

أسباب الاهتمام بالنموذج الإسرائيلي والمكانة الإسرائيلية ضمن القوى الفاعلة في الأرض (البقرة: 40 - 48).

القسم الثاني:

أعظم النعم على بني إسرائيل في تكوينهم أمة متمدنة مستخلفة (البقرة: 49-60).

القسم الثالث:

القصة الحقيقية لتاريخ بني إسرائيل: مجمل مظاهر ظلمهم لأنفسهم وللعالم، وردود أفعالهم على التكليفات والمعجزات (البقرة: 49-61)

القسم الرابع:

تصحيح معيار التفضيل، فليست الأفضلية لبني إسرائيل ولا لغيرهم بسبب جنسهم (البقرة 62)

القسم الخامس:

الميثاق الإسرائيلي الأول الذي شكل ملامح الحضارة الإسرائيلية: ميثاق الكتاب العظيم (البقرة: 63-73)

القسم السادس:

قساة القلوب يغيرون الآيات، ويدمرون المجتمعات (البقرة 74-82)

القسم السابع:

الشبه الإسرائيلية في عدم اتباع النبوة الخاتمة (البقرة 80-123)

القسم الثامن:

الدين الباطل الذي صنعوه لأنفسهم واستبدلوا به الوحي (البقرة 99 - 105)

القسم الأول: أسباب الاهتمام بالنموذج الإسرائيلي والمكانة الإسرائيلية ضمن القوى الفاعلة في الأرض (البقرة:40 - 48).

السبب الأول:

إنشاء قنوات التواصل اللفظي المباشر معهم بأن نخصصهم بالخطاب، والحوار، ومزج الخطاب السياسي بالخطاب الدعوي الإنساني، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة:40)، كما تبصرنا بأن يتخذ خطابنا لهم الأساليب المختلفة المناسبة مع حالهم، ومن ذلك خطابهم بأرق الألفاظ في الموضع المناسب لذلك، وفي ذلك البصائر الآتية:

بصيرة 1

لا بدّ أن يعم خطابنا الفئات الإسرائيلية المختلفة: الرأي العام، والقيادات السياسية، والدينية، وإنشاء علم فنون هذا التواصل.

بصيرة 2

التذكير الدعوي السياسي لبني إسرائيل بالتكليف الأول الذي كلفه بنو إسرائيل، وكل الأمم: تذكر نعمة الله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾

والتذكر من الذكر، وهو حفظ الشيء، واستحضاره ليخطر على العقل، فلا ينسى، أو يُغفَل عنه، والنعمة كلمة تدل على ما يرزقه المخلوق من شيء يجعله في تَرَفُّهٍ وَطِيبِ عَيْشٍ، وعرفها الرازي بأنها المَنْفَعَةُ المَفْعُولَةُ على جِهَةِ الإِحْسَانِ إِلَى الغَيْرِ، وذكرها يتم إعلامياً وتعليمياً وتربوياً، و(نعمتي) مفرد مضاف يظهر العموم الشامل للنعم، والعموم التجزيئي للنعمة الواحدة، فهو تحوي ملايين النعم في ذاتها

بصيرة 3

وجود النفسية الإسرائيلية القاسية المعاندة لا يعني اليأس من دعوتها إلى الخير الذي يكتنزه النظام الإسلامي

، ويتخذ خطابنا لهم الأساليب المختلفة المناسبة مع حالهم، ومن ذلك خطابهم بأرق الألفاظ في الموضع المناسب لذلك، وهنا ترى أن الله خاطبهم بأحب الأسماء إليهم (إسرائيل)، فإسرائيل هو النبي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام

السبب الثاني:

التذكير بالعهد المأخوذ على الأمة الإسرائيلية، كالعهد المأخوذ على أمتنا، وسائر الأمم، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، بأن تحقق آيات الوعد يعتمد على تنفيذ شروط العهد، والعهد هو الوصية التي يجب الاحتفاظ بها، وانبثق من هذا السبب البصائر الآتية:

بصيرة 1

العهد الإلهي الموثق ينجي من الخسارة في إقامة مبادئ الاستخلاف في الواقع الفردي، والحضاري، وقد أُكِّد على بني إسرائيل كما لم يؤكد على غيرهم.

بصيرة 2

وإقامة عهد الله المطلوب من بني إسرائيل، أساسه الرهبة الموحدة من الله، لا من غيره، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة:40).

الرهب خوفٌ شديد مفاجئ يورث الاضطراب والانزعاج ثم يستمر، فأمرهم بأن يوحدوه في الرهب، ويصدق ذلك في سفر التثنية: 7: 21 لاَ تَرْهَبُوهُمْ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَكُمُ الحَال بَيْنَكُمْ إِلَهٌ عَظِيمٌ وَمَرْهُوبٌ

السبب الثالث:

الإسرائيليون إما أن يكونوا قدوة للهداية العالمية، بإعلان الإيمان بالوحي الإلهي الخاتم المصدق لما جاءهم من الأنبياء، وإما أن يكونوا أئمة للإضلال العالمي، بإعلان الكفر بالكتاب الإلهي الخاتم، ويبصرنا بذلك أمرهم بالإيمان بما أنزل الله مصدقاً لما معهم، ونهيهم عن أن يكونوا الأوائل في الكفر به في قوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (البقرة:41)، ويشرح هذا السبب البصائر الآتية:

1 بصيرة

المناسبة والاتصال بين هذا السبب وما سبقه ظاهرة في أن الآية السابقة ذكَّرتهم بالوفاء بالعهد بصفة عامة، وهنا يذكرهم بنوعٍ خاصٍ منه، وهو الإيمان بما أنزل الله مصدقاً لما معهم من كتب، وإرث علمي؛ وذلك لأهميته، ولتعلقه بصلاح الإيمان الذي يزعمه بنو إسرائيل، ولتعلقه بالصلاح العالمي.

2 بصيرة

بنو إسرائيل هم الأوائل في الكفر والإيمان لضخامة تأثيرهم العالمي، ويبصرنا بذلك قوله ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾، وبناء على ذلك فكل ما خوطب به الإسرائيليون فهو خطاب لنا إلا ما وضح فيه التخصيص، فنهيهم عن أن يكونوا أول كافر به يعني أنهم سيكونون أئمة في الكفر أو في الإيمان لمعرفتهم بالكتاب، وكذلك الأمر بالنسبة للمسلمين، فالأولية هنا حقيقية معنوية إضافية، فالأولية لضخامة تأثيرهم، وليست أولية تاريخية استدعى مخاطبتهم بها معرفة أحبارهم بالنبي ﷺ، فيصيرون للكافرين الآخرين كالقادة الأوائل

3 بصيرة

يبصرنا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، بأن أهم سبب لعدم الإيمان الحقيقي بآيات الله التي أنزلها في الوحي السابق والخاتم، الشهوات الدنيوية العاجلة، فيبيع آيات الله، ويشتري شيئاً من الدنيا، مع أن الدنيا كلها ثمن قليل أمام أرباح الآخرة.

وسمى الله الوحي القرآني آيات علامات معجزة تدل على صدق النبي ﷺ

4 بصيرة

يبصرنا قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾، بأن بناء الإسرائيليين للحياة ينبغي أن يقوم على التقوى، وهو الذي أقام الله عليه الحضارة الإسلامية الخاتمة في سورة البقرة، والتقوى مصباح الرؤية، ومطفأة الفتن، والحماية من المخاطر والاختراقات الشيطانية، ومصداق ذلك في سفر التثنية: 10: 12 فالان يا اسرائيل ماذا يطلب منك الرب إلهك إلا أن تتقي الرب إلهك لتسلك في كل طرقه وتحبه وتعبد الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك

وهنا تلاحظ الترتيب متناسب؛ إذ جاء الأمر بالرهبة أولًا (آية:40)، ثم بالتقوى ثانيًا (آية:41)، فبدأ بالخاص: (الرهبة)، ثم بالعام: (التقوى)؛ وذلك لأن التربية على الرهبة يناسب مقترفي الجرائم.

السبب الرابع:

خطورة الأسلوب الذي تتبعه القيادات الدينية، والسياسية الإسرائيلية الفاسدة في إضلال الأمم.. إنه أسلوب لبس الحق بالباطل، ويبصرنا بهذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:42).

بصيرة 3

قوله: ﴿لا تلبسوا﴾ من لبَست عليه الأمر ألبِسه بكسرها أَي خَلَطت بعْضَه ببعْضٍ، فاللَّبْس إبداء الشيء في غير صورته بإلباسه شيئاً يتزخرف به، فيُلبس الحق لباس الباطل والعكس، فيختلطان ولا يتضحان

بصيرة 3

فالآية قسمت الرأي العام إلى صنفين:

الأول:

من يعرفون بعض الحق في قضية معينة فيضلهم المكرة بخلط الحق بالباطل، ويبصرنا بهم قوله تعالى: ﴿ولاَ تَلْبِسُوا الْحَقّ بالْبَاطِلِ﴾.

الثاني:

من لا يعرف الحق أصلًا فهو جاهل به: فيتم إضلاله بكتمان الحق عنه، ويبصرنا الله تعالى بهم في قوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

السبب الخامس:

القرب بين بقايا الشريعة اليهودية الموجودة وبين الشريعة الإسلامية في العبادات الأساسية، التي لا تتغير في أصلها، ويبصرنا بهذا السبب قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة:43)، فذكر أهم العبادات: وهي العبادة التي تكوّن الصلة القوية مع الخالق: (الصلاة)، والعبادة التي تكوّن الصلة مع المخلوق: (الزكاة) والعبادة التي تكوّن مفهوم الأمة، والدولة: (واركعوا مع الراكعين).

بصيرة 1

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، والصلاة عبادة فردية ذاتية، تمثل الصلة بين الخالق والمخلوق، وللشعور بأثرها العظيم لا بدّ من إقامتها، وليس مجرد تأديتها فقط، ولذا قال: ﴿وأقيموا﴾.

بصيرة 2

﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، والزكاة عبادة متعدية، تمثل الصلة المجتمعية بين المخلوقين، وهي تمثل العطاء المتدفق الذي يزكي النفس الإنسانية، ويسمو بها بعيدًا عن الأنانية، والأثرة.

بصيرة 3

﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، فهذه العبادة التي تكوّن مفهوم الأمة، والدولة؛ إذ تدل على أهمية الجماعة، فهي اصطفاف واحد في صلاة الجماعة، يدل على الخضوع المطمئن، والانتظام المخبت.

السبب السادس:

إخفاق كثيرٍ من الإسرائيليين في الجمع بين النظرية والتطبيق، والضعف في اقتران الأقوال بالأفعال، وعدم ضم الممارسة إلى التنظير؛ مما يجعل تصدرهم للقيادة العالمية مصدراً للفتنة، بدلاً من نشر الخير، ويبصرنابهاقوله–جلّمجده-:﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:44)، ولحقهم المسلمون في عهود الانحطاط، فصارت الغلبة للأذكى من الفريقين، لا للأصلح، وفي هذا البصائر الآتية:

بصيرة 1

الأمر بالبرّ مع تركه من أسوأ أنواع الفتنة العقلية، والقلبية، وقد تدفع بالناظر إلى الكفر بالحق المبين.

والاستفهام للإنكار التوبيخي والتعجيب من حالهم، فما بعد الهمزة واقع وفاعله ملوم، و(البِر) مشتق من البَر، فيشمل إيفاء الحقوق والإحسان؛ أي أتأمرون الناس بالعدل والإحسان وتتركون أنفسكم من إقامتهما؟

بصيرة 2

عدم الجمع بين النظرية والتطبيق يعني إهمال أهم مصالح النفس الإنسانية. فمعنى ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تهملونها من القيام بمصالحها، فالنِّسْيَانُ تركٌ عَنْ عَمْدٍ أَوْ عَنِ تَّهَاوُنٍ وعدم مبالاة

بصيرة 3

كل ما خوطب به الإسرائيليون فهو خطاب لنا، إلا ما وضح فيه التخصيص.

بصيرة 4

فعل المنكر لا يعني عدم النهي عنه، وترك البر لا يعني عدم الأمر به، فالله أنكر عليهم ترك البر مع أمرهم به، ولم ينكر أن يأمروا بالمعروف من حيث هو، ولا أن ينهوا عن المنكر من حيث هو

بصيرة 5

أن عين العقل الائتمار بما أَمَرَ الإنسان به غيرَه، والانتهاء عما نهى الناسَ عنه، وهذا ما أفاده ختام الآية الكريمة ﴿أفلا تعقلون﴾.

السبب السابع:

تحقق الاستخلاف الإسرائيلي؛ بسبب استعانتهم بالصبر، والصلاة، مع شدة حرص كليم الله موسى -عليه الصلاة والسلام- على تربيتهم على ذلك، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، فهما أهم وسيلتين تعينان على القيام بواجبات الاستخلاف، وترى أن الله أمر بهما الأمة الخاتمة أيضاً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة:153)؛ ليعطي درساً بالغاً في الاستفادة من التجربة الإسرائيلية، وفي هذا السبب البصائر الآتية:

بصيرة 1

الصلاة وسيلة للنجاح في الحياة، كما هي غاية للتقاة الهداة. ﴿واستعينوا﴾ الأمر بالاستعانة على أداء المهمات يدل على مشقاتٍ قادمةٍ متوقعة سواء أكانت مشقات نفسية أم خارجية، ولا تُدفع إلا بالصبر الذي يعني حبس النفس على ما لا يلائمها والصلاة التي تعني التلذذ بمناجاة الله؛ إذ لا ينفع الرجوع إلى البشر

بصيرة 2

الاستعانة بالصبر والصلاة وسيلة ثقيلة إلا على الخاشعين وهم ذوو الهمم العالية، والأهداف العظيمة، ويبصرنا بذلك قوله ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: 45) والخشوع: جسدي وقلبي، فالجسدي ترى فيه التطامن وطأطأة الرأس، ورَمْيُ البصر إلى الأرض، وهو السكون، والقلبي تجد فيه التواضع والتذلل والاستكانة

بصيرة 3

ذكر الخاشعين بصيغة الاسم: (جمع المذكر السالم)، يدل على أنهم دربوا أنفسهم على الخشوع؛ حتى صاروا متمرسين فيه، ووصفهم بصفتين:

الأولى:

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ وعبر عن اليقين بالظن لأنهم لم يعاينوا، فكان ظنهم يقينا، والملاقاة قد تكون في الدنيا في الصلاة مثلاً.

الثانية:

﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فيجدون عنده الثواب أو العقاب، فتخشع قلوبهم.

السبب الثامن:

التحذير من الاستغلال الضال للتفضيل الإلهي لبني إسرائيل، حيث تلاعب به فساقهم، فخدعوا عامة الإسرائيليين، وغيرهم، بأن لهم مزية تفضيلية إلهية، فالتفضيل الخاص يعني جسامة المسؤولية، وليس استحقاق التمييز العنصري، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة:47، 48).

ولذا ذكر الله لهم محفزين على الاستقامة:

المحفز الأول

الترغيب من خلال التلطف بالتذكير بالنعمة، والتفضيل الإلهي لهم على العالم في وقتٍ محددٍ بشرطه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(47)﴾، فتبين لهم بذلك إنصافك، ومعرفتك، وتدفعهم على أن يفكروا في مقالتك، والقرآن ينبئك في الكيفية اللائقة بمخاطبتهم معايشة ومخاصمة، وتجعل بين الأسلوبين برزخاً واضحاً فلا يبغيان

المحفز الثاني

الترهيب من خلال التحذير من حساب يوم القيامة، فالتفضيل الإلهي يعني جسامة المسؤولية، فالحساب قادم، ويبصرنا الله بأن الأمور الربعة المنجية في الدنيا لن تكون مؤثرة في الآخرة:

الأول:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي لا تكفيها أدنى شيءٍ مما لزمها من الحقوق، ولا تغني عنها شيئاً، ولا تقضي لها شيئاً، وفي الكتاب المقدس في سفر الأيام الثاني مما هو في معنى هذه الآية: 25: 4 لا تموت الآباء لأجل البنين، ولا البنون يموتون لأجل الآباء، بل كل واحد يموت لأجل خطيته

الثاني:

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي لا يقبل من النفس العاصية شفاعة نفس طائعة إلا بإذن الله، فالمقام هنا كما ترى مقام تحميل كل نفسٍ أوزراها، وتحذيرها من الاتكال على التفضيل الإلهي لتفعل ما يحلو لها كما ترى فعل بعض بني إسرائيل والنصارى والمسلمين هذه الأيام

الثالث:

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي شيئاً مماثلاً يعادل جرمه ليصبح فدية له

الرابع:

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة:48)، فالنصر يأتي بمعنى العون فيكون وسيلة، وبمعنى الظفر بالمطلوب فيكون غاية، فلا يجدهما العاصي يوم القيامة؛ فقد ذهبت القوات المادية والبشرية التي تنصره

وانظر جمال الترتيب، فمن حكم عليه بعقوبةٍ يبحث عن نفسٍ تغني عنه شيئاً ليخرج من هذه الورطة، وإلا فعن شفاعة ممن هو أفضل منه عند صاحب الأمر، وإلا فيبحث عما يعادل ذنبه يفتدي به، وإلا يبحث عن ناصرٍ يعينه على إيقاف تنفيذ العقوبة

بصيرة

ترى التذكير بالتكليفات الأساسية التي كُلّف بها الإسرائيليون (40-45).

التكليف الأول:	تذكر نعمة الله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.
التكليف الثاني:	﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.
التكليف الثالث:	﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.
التكليف الرابع:	﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾.
التكليف الخامس:	﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾.
التكليف السادس:	﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.
التكليف السابع:	﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾.
التكليف الثامن:	النهي عن إجرام اللعب بالعقول بالإضلال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:42).
التكليف التاسع:	أُمروا بأهم العبادات: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة:43)
التكليف العاشر:	العمل بمقتضيات العلم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:44).
التكليف الحادي عشر:	أُمروا بأهم المعينات والمقربات: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.
التكليف الثاني عشر:	الحث على الوصول لمرتبة الخاشعين: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

الإنعام الأول:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، التنجية من مؤسسة الظلم، والبطش، والإفساد الفرعونية، وأشار إلى مؤسسية الظلم بقوله: ﴿آل فرعون﴾، والآل: أهل الرجل وأنصاره ممن هو في نظامه، فلا يدخل فيهم قرابته الذين يخالفونه دينه أو منهاجه

والتنجية كلمة لها جمالها فهي الخَلاصُ من مصدر الخطر خلاصاً لطيفاً دقيقاً، حيث يبعده إبعاداً فيه سترٌ وخفاء حال، فخلصهم الله من مؤسسة الظلم، والبطش، والإفساد الفرعونية، وأكبر ثلاث مآسٍ إسرائيلية حدثت:

الأولى:

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يتلذذون ويتفننون بإيقاع أسوأ العذاب عليكم حتى أصبح سيما لهم

الثانية:

﴿يذبحون أبناءكم﴾ فيكثرون التذبيح لهم عدداً وكيفية

الثالثة:

﴿ويستحيون نساءكم﴾ أي يبقونهن على قيد الحياة للاستخدام والعبث، ولاحظ كيف قابل بين قتل الأبناء وإبقاء النساء، ليبين عبثهم بالنساء حال بلوغهن، ومسارعتهم لقتل الأطفال حال ولادتهم

الإنعام الثاني:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾، فَرْقُ البحر بهم، وإغراق آل فرعون

بصيرة 1

بكم أي جعلناكم كالأداة التي يكون بها فَرْقُ البحر(بهم) لا (لهم) إنه التوظيف الفائق للطاقات في الفتح والتحول الكبير، والانعتاق من الأسر الممض والاضطهاد المميت

بصيرة 2

حدث الإنجاء للإسرائيليين والإهلاك للفراعنة بسببٍ واحد ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ فنظروا بعد خروجهم إلى الظالمين وجبال الماء تنطبق عيهم، وكان ذلك يوم عاشوراء، الذي صامه بنو إسرائيل شكراً لله، وصامه النبي ﷺ شكراً لله، ولإظهار عدم مخالفة الإسرائيليين في الأمور الصحيحة، وشكر موسى ربه فقال في سفر الخروج: 2 الرَّبُّ قُوَّتِي وَنَشِيدِي، وَقَدْ صَارَ خَلاَصِي. هذَا إِلهِي فَأُمَجِّدُهُ، إِلهُ أَبِي فَأُرَفِّعُهُ

الإنعام الثالث: مشاهدة هلاك عدوهم أمام أعينهم ﴿فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ وهذه من أعظم النعم على الإنسان المظلوم المقهور في الدنيا

الإنعام الرابع: العفو في أكبر جرائم الظلم البشرية، وهي الشرك: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)﴾ .

بصيرة 1 ذكر أنهم ظالمون ليبين أنهم لم يكونوا مكرهين على ما باتوا عليه عاكفين، بل كانوا لأنفسهم ظالمين، ففشلوا فشلًا ذريعًا في الثبات على النظام الرباني، وحمل الأمانة التي يمكنهم أن يكونوا فيها قدوات لسائر الخلق

بصيرة 2 ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)﴾، والعفو محو الفعل السابق، والشُكر: عرفان الإحسان وحمد موليه بالقلب واللسان والأعمال كما قال نحميا9: 18مَعَ أَنَّهُمْ سَبَكُوا لأَنْفُسِهِمْ عِجْلًا وَقَالُوا: «هَذَا هُوَ إِلَهُكَ الذي أَخْرَجَكَ مِنْ مِصْرَ!» فَاقْتَرَفُوا بِذَلِكَ إِثْمًا عَظِيمًا. 19فَأَنْتَ بِفَائِقِ رَحْمَتِكَ لَمْ تَنْبِذْهُمْ فِي الصَّحْرَاءِ

الإنعام الخامس: أعطاهم الدستور الذي ينظم حياتهم: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53)﴾، ووصف هذا الدستور بثلاث خصائص:

- أنه مكتوب
- وأنه فرقان أي فارق بين الحق والباطل
- ﴿لعلكم تهتدون﴾ فهو بذلك يعينهم على أن يهتدوا لأجمل نظم عبودية ربهم التي بها يحققون الحياة الطيبة

الإنعام السادس: التوبة عليهم بعد الشرك الصريح، والعصيان العنيد في وجود الأنبياء: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)﴾.

بصيرة 1: وتبصرنا كلمة ﴿الباري﴾ في قوله ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ بأن أعظم أنواع الظلم الإنساني جحود الباري، وهو الخالق الذي برأ وبرى يعني سوّى بريئته وبريّته أي خليقته المسواة من البرى وهو التراب، فبرّأها من الآفات والعيوب، وتاب الإسرائيليون فقتلوا أنفسهم أي قتل بعضهم بعضاً، وهذا تنفيذ مدهش لأمر الله لهم

الإنعام السابع: الإحياء بعد الموت الذي كان عقوبة على شدة العناد: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، فالفخر بعدم الإيمان حتى تتم رؤية الله ليس طلباً جديداً من الملحدين بل هو طلب قديم سببه اجتماع الثنائي القاتل: الغرور والجهل

بصيرة 1: وقالوا: ﴿لن نؤمن لك﴾، ولم يقولوا نؤمن بك، وهذا تناقض مثير، فهم بذلك يثبتون الإيمان برسالته؛ ولشدة ماديتهم طلبوا أن يكون ذلك جهرة، والجهر الظهور الشديد صوتاً أو صورة

بصيرة 2: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56)﴾، والبعث الإثارة في الواقع الميت ليتحرك، وكلمة ﴿لعلكم﴾ تفيد بأن هذا الإنعام تدريبٌ للاهتداء والشكر مرةً بعد مرة

الإنعام الثامن: معجزات الحياة الرغيدة في الطريق إلى بيت المقدس، وتمثلت مظاهر هذه الحياة في المستظل (المسكن)، والمأكل، والمشرب: فبصرنا الله بأربعة أسس تعبر عن الحياة الرغيدة:

الأولى: الظل ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ فهيأ الله لهم السقف الجميل المتنقل، وهو الغمام جمع غمامة وهي السحابة الداكنة السوداء، أو البيضاء الكثيفة التي تغم السماء أي تخفي رؤية ما خلفها

الثانية: هيأ لهم أفضل الطعام ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾فالمن اسم جامع لكل رزق حسن يَمُنُّ بِهِ اللَّهُ، ومنه الخبر الرقيق والحلوى التي تشبع صمغة بطعم العسل، والسلوى ما يسلى الإنسان ويطيب نفسه من ألذ أنواع اللحم، كطائر السماني

الثالثة: بعد هذا العيش الرغد يقول الله لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

الرابعة:

الحرية في اختيار الفعل أمام هذه النعم شكرًا أو كفرًا فاختاروا أن يظلموا أنفسهم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: 57)، وردة فعلهم مفاجئة للبشرية أمام هذه النعم المعجزة المتتالية، فقد ظلموا أنفسهم بالكفر والإفساد بدل الشكر والعمل الصالح

الإنعام التاسع: تكوين عاصمة إسلامية إسرائيلية مقدسة، وتسهيل دخولهم عليها، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾

الإنعام العاشر: التمتع بدخول العاصمة المقدسة أكلا وسكنا وعبادة ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة﴾ ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي احطط عنا ذنوبنا

الإنعام الحادي عشر: غفران الخطايا، وزيادة العطايا للمحسن، ﴿نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ وهما مكافأتان يدلان على الارتقاء بكم تخلية من الرذائل فالمغفرة الستر والحماية، وتحلية بالفضائل حيث يزيد المحسنين من فضله في الدنيا والآخرة

الإنعام الثاني عشر: الماء وفق هيئة معجزة: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ (البقرة:60).

بصيرة 1 استسقى﴾ أي طلب من الله السقيا حيث استحال أو عسر وجود الماء، فالاستسقاء مثال عظيم على﴾ استعمال سنن التغيير المتغيرة، وذلك يقود إلى التذلل الدائم بين يدي الله، ولذا لم يذكر الله المستسقى منه؛ لأنه لا يقدر على ذلك غيره، ولكن ذلك لا يعني إهمال السنن الثابتة، ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ ﴿البقرة: 60﴾، أي أوقع عصاك على الحجر إيقاعاً رفيقاً ليمسه بسرعة مسًا ضاغطاً

بصيرة 2 يبصرنا قوله جل ذكره: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ بجوانب من الإعجاز والتدريب التنظيمي لبني إسرائيل في الحياة المدنية مع أنهم في البادية، فالحجر يتكون من أربع جهات على هيئة المكعب، وكل جهة ينبجس منها ثلاثة أعين من الماء لتناسب عدد قبائل بني إسرائيل

بصيرة 3 التعود على التنظيم القانوني مع التعود على التنظيم الإداري، ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ فهذا أمرٌ في جانب البناء لحفظ حياتهم، وتلذذهم بمتعة الحياة أكلاً وشرباً، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة: 60) وهذا أمرٌ لاجتناب الهدم، أي لا تفسدوا في الأرض قاصدين للإفساد

القسم الثالث: القصة الحقيقية لتاريخ بني إسرائيل: مجمل مظاهر ظلمهم لأنفسهم وللعالم، وردود أفعالهم على التكليفات والمعجزات (البقرة: 49-61)

المظهر الأول: الإشراك بالله: فقد قابلوا نعمة الله بإنجائهم من آل فرعون وفَرْق البحر لهم باتخاذهم العجل إلهًا يعبدونه، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة: 51)، وهذا شيءٌ مدهش في الجحود وفحش النفس

المظهر الثاني: الاستكبار حتى طلبوا رؤية الجبار جل جلاله، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (البقرة: 55)، والاستكبار تعظيمٌ للنفس فوق منزلتها فهذه نزعة إبليسية.

المظهر الثالث: ظلم النفس بكفران النعم ومخالفة الأوامر ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ (البقرة: 51)

المظهر الرابع: تبديل القول الذي قيل لهم، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ (البقرة: 59) أي فبدل الذين ظلموا فقالوا قولا غير الذي قيل لهم

مثل: التبديل التطبيقي

أي الرفض لتطبيق أوامر الله، فالله قال: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ (البقرة: 58) وهم قالوا: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا﴾ (المائدة: 24)، ولما قيل لهم ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ (البقرة: 58) دخلوا متزحفين على أوراكهم، وقالوا: حبة في شعرة كما بين النبي ﷺ

ونتيجة التبديل:

﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة: 59) والرجز هو العذاب إما المادي المهلك، وإما المعنوي المخزي كتسليط الأمم

المظهر الخامس:

التضجر والتململ والتأفف والسأم وعدم مقابلة النعمة بالشكر، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ (البقرة: 61)، والفوم قيل الحنطة والخبز، وقيل الشعير وقيل الثوم

بصيرة 1

ليس اللوم عليهم أنهم ملوا من الطعام الواحد فهذا طبع بشري، ولكنك تلمس من الآية شدة نزقهم، وسوء أخلاقهم؛ فنادوا موسى باسمه دون وصفه عليه الصلاة والسلام، وقالوا: (لن) الدالة على نفي المستقبل، فعبروا عن تضجرٍ نُزع منه الصبر والشكر، وطلبوا خمسة أصناف

بصيرة 2

تعجب نبيهم موسى -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- من ظلمهم لأنفسهم وتضجرهم، فقال لهم موبّخًا: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ أي ما طلبتموه ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾؟! أي بالمن والسلوى

بصيرة 3

يبصرنا الله بعاقبة التبديل والتضجر: حيث ضربت عليهم ثلاثة أنواع من العقوبات: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾،

﴿وضربت﴾

يعني أُوقعت العقوبة عليهم على سبيل اللزوم والملامسة، والذلة خضوع جسدي على سبيل المهانة، والمسكنة خضوع قلبي بإظهار الفقر والعجز والخوف، ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ أي رجعوا بغضبٍ مساوٍ لعبثهم وتلاعبهم بدل أن يرجعوا بأجرٍ ورحمة

المظهر السادس:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (البقرة: 61)، وهذا يمثل الظلم الأكبر في حق الخالق الملك الحق.

فالكفر: تغطية الشيء وستره، و"آيات الله" حججه وأعلامه وأدلته على توحيده وصدق رسله

المظهر السابع: قتل أعظم القيادات البشرية، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (البقرة: 61) وهذا يمثل الظلم الأكبر في حق المخلوق، حيث قتلوا أعظم الخلق رحمة بالخلق. مثل زكريا ويحيى وأرميا عليهم السلام

والنبيئون

جمع نبيء بالهمز على قراءة نافع من النبأ، وهو الخبر العظيم

والنبيون

جمع نبي على قراءة الجمهور من النبوة، وهي ما ارتفع من الأرض، فاتصفوا برفعة المكانة في الإنسانية ورفعة التصور والتنظيم للحياة، والنُّبُوَّةُ: سِفارَةٌ بَين اللّه عزّ وجلّ وَبَين ذَوِي العُقولِ الزَّكِيَّة لإزَاحَة عللهم في أمر معادهم ومعاشهم

المظهر الثامن: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ (البقرة: 61) أي العصيان الذي دون الكفر مما يكون بينهم وبين الله والعصيان وسيلة إيقاع البشرية لارتكاب الظلم الأكبر في حق الخالق.

المظهر التاسع: ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة: 61) فانظر كيف أجمل معنيين هنا في قوله (يعتدون)؛ إذ المراد بالاعتداء هنا معنيان: العدوان على غير الأنبياء بعد أن ذكر قتل الأنبياء فيما سبق، والاعتداء بتجاوز الحق إلى الباطل، إما بالبعد عن الدين أو الغلو فيه، والاعتداء وسيلة إيقاع البشرية لارتكاب الظلم الأكبر في حق المخلوق

القسم الرابع: تصحيح معيار التفضيل، فليست الأفضلية لبني إسرائيل ولا لغيرهم بسبب جنسهم (البقرة 62)

ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: 62)

بصيرة 1 المناسبة والاتصال

لما ذكر الله -تعالى جده- إنعامه العظيم على بني إسرائيل، وأنه فضلهم على العالمين، ثم ذكر تاريخهم الحقيقي المليء بظلم أنفسهم والعالم صحح مفهوم التفضيل، فبين هنا أن الثواب بالاكتساب لا بالانتساب لئلا يغتروا أو يغتر غيرهم، فالإنعام العظيم الذي أغدقه عليهم جعلهم يظنون أنهم قد فضلوا لجنسهم فقط، وأن جنسهم لا عملهم هو العهد الذي بينهم وبين ربهم، وذلك يظهر في تصرفاتهم حسب أوصاف كتابهم المقدس، فأراد الله أن يبين أن الجنس لا يغني من الحق شيئًا سواء تعلق بالإسرائيليين أم بالمؤمنين أم بغيرهم

بصيرة 2 المعنى الإجمالي للآية ينبئك عن

أن الإسرائيليين ظلموا أنفسهم والعالم معهم عندما حرفوا معنى العهد الإلهي، فجعلوا التفضيل للجنس لا للعمل على غرار النزعة الإبليسية التي جعلت فضيلة الجنس الناري مقدماً على الجنس الترابي، واستبعدت العمل، ويصحح الله هذا التحريف فيجعل الاصطفاء والثواب بالعمل والاكتساب لا بالادعاء والانتساب

بصيرة 3 يبصرنا حرف التأكيد في قوله ﴿إن﴾

أن الإسرائيليين ظلموا أنفسهم والعالم معهم عندما حرفوا معنى العهد الإلهي، فجعلوا التفضيل للجنس لا للعمل على غرار النزعة الإبليسية التي جعلت فضيلة الجنس الناري مقدماً على الجنس الترابي، واستبعدت العمل، ويصحح الله هذا التحريف فيجعل الاصطفاء والثواب بالعمل والاكتساب لا بالادعاء والانتساب

بصيرة 4 -ذكر الله -تعالى مجده

أهم الطوائف الدينية التي لها بقايا من وحيٍ إلهيّ في العالم، وأرجع الله الطوائف الدينية إلى أربع طوائف تشكل العالم تقريباً، وذكر أنها لو حققت ثلاثة شروط استحقت الثواب الذي يبحث عنه الخلق، شرطان منهما اعتقاديان نظريان، وشرط عملي، وذكر لها ثلاثة أنواع من الثواب:

فالطوائف الأربع التي تشكل العالم هي:

الطائفة الأولى:

بصرنا الله بها في قوله ﴿الذين آمنوا﴾: أي صاروا ذا أمنٍ نفسي وخارجي بالتصديق بالله وجميع أنبيائه، ومنهم الرسول الخاتم صلى الله عليهم وسلم

الطائفة الثانية:

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم أتباع موسى عليه السلام، وسموا بذلك إما لتوبتهم من أرجاسهم الكثيرة، فهدنا معناه: سكنا وتبنا، وإما لنسبتهم إلى يهوذا سبطهم الأعظم الباقي بعد السبي البابلي

الطائفة الثالثة:

﴿وَالنَّصَارَى﴾ (البقرة: 62) وهم أتباع عيسى عليه السلام، سموا كذلك لأنه جمع نُصْري حيث نصروا المسيح عليه السلام أَوْ نَاصِرِيّ نسبة إلى الناصرة موطن أم المسيح

الطائفة الرابعة:

﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ إما من صبأ أي ظهر وطلع وخرج من دين إلى دين، وإما من صبا يصبو أي مال إلى دين آخر، والجمع هنا على قراءة نافع: ﴿الصابين﴾، فهم الذين لم يسيروا على ملة اليهود ولا النصارى ولا المسلمين

ومن أبرز أمثلتهم الصابئة المندائية العراقية، ولعله يدخل فيهم بقية الأديان كالمجوسية والوثنية، ولعل احتمال دخول بقية الطوائف الدينية فيهم يبرز لنا السبب في تفاوت تقدمهم في سورة المائدة والحج وتأخرهم في سورة البقرة

بصيرة 5 الترتيب بين هذه الطوائف

في سورة البقرة يبعث رسائل تاريخية عقدية، فالمؤمنون مقدمون لأنهم الآخرون السابقون يوم القيامة، واليهود بعدهم لأنهم أصل في وجود الملتين اللتين بعدهم غالباً، والنصارى لأنهم الأكثر، ودينهم مرتبط بكتاب اليهود، ثم الصابئين لأنهم الذي خرجوا عن الملل الثلاث إلى دين آخر ارتضوه واقاموه مقام الدين الإلهي

بصيرة 6 ذكر الله للسعداء من الطوائف الأربع ثلاثة شروط:

الشرط الأول

الإيمان بالله ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ ويمثل القوة النظرية الأولى: إنه ايجاد الأمن بالإيمان بالله وذلك يقتضي الْإِيمَانُ بِمَا أَوْجَبَ الإيمان به كالْإِيمَانَ بملائكته وكتبه وَرُسُلِهِ

الشرط الثاني

الإيمان باليوم الآخر ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ويمثل القوة النظرية الثانية المؤذنة بالحياة الحقيقية، وذلك يقتضي الإيمان بأحوال الآخرة

الشرط الثالث

العمل الصالح وليس الإيمان القلبي فقط ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ويمثل القوة العملية المترتبة على القوتين النظريتين، والعمل الصالح يشمل كل خيرٍ يمكن للإنسان عمله في الدنيا

بصيرة 7 إن تحققت هذه الشروط الثلاثة ترتب على ذلك ثلاثة أنواع من الثواب:

النوع الأول ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، الأجر هو الثواب وهو ما أعده الله لعباده من التكريم العظيم برحمته، ولكنه سماه أجراً لحث عباده على العمل كأن الأجر مكافأة مقابلة، ولم يبين نوعه ليدخل فيه ما يليق بما يصدر عن ملك الملوك

النوع الثاني ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من المخافات التي ستقابلهم في المستقبل الدنيوي والأخروي

النوع الثالث ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فات في الماضي من ذنوبٍ أو تقصير، أو أهلٍ وأولاد خلفوهم في الدنيا بعد انتقالهم إلى الآخرة

بصيرة 8 هذه الآية (62) أصلٌ في كيفية الحوار مع الطوائف الدينية الأخرى

فتصلح أن تكون دستورًا يرسم ما ينبغي أن يفعله المسلمون في مؤتمرات الحوار، فهي تحدثك عن مختلف الفرق الدينية، كما تبين لك ضرورة الانطلاق معها من المبادئ الثلاثة إلى مناقشة التفصيلات المترتبة عليها

القسم الخامس:

الميثاق الإسرائيلي الأول الذي شكل ملامح الحضارة الإسرائيلية: ميثاق الكتاب العظيم (البقرة: 63-73)

المواثيق المأخوذة عليهم ذكرت أربع مرات في سورة البقرة:

المناسبة والاتصال:

جاء هذا القسم في إطار الكشف عن النفسية الإسرائيلية في جوانبها الإيجابية والسلبية، فبعد أن ذكر الله أبرز المحطات التاريخية في الحياة الإسرائيلية في الأقسام الثلاثة السابقة ومنها النعم الكبرى التي أرسلها لهم على هيئة معجزات، وردود الفعل السلبية من قبل كثيرٍ منهم، وبعد أن بين كذلك أن الثواب والعقاب يظهران في الواقع بالاكتساب لا بالانتساب أراد أن يبصرنا بتلاعبهم بالميثاق المأخوذ عليهم، وكيف ترتب على ذلك قسوة في القلوب أثمرت ظلماً عالمياً هائلاً،

الركيزة الأولى:

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، وصية بنوع التلقي، والتطبيق، أي: تلقوه وطبقوه بجد، واجتهاد وليس بكلل، ولا ملل، ولا ضجر، ولا تأفف، والقوة تدل على الاستيعاب الجاد، والإتقان للمُتَلَقَّى، والعزم المصمم، والعمل الصادق، والاتباع المخلص

الركيزة الثانية:

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، وصية بالإشاعة الإعلامية العالمية لتعليمات الميثاق التذكيرية للمُتَلَقَى، وذكر ما فيه يقتضي سبعة أعمال: التعلم، والتلاوة، والمدارسة الجماعية، والتدبر، والتعليم، والتطبيق العملي، والإشاعة الإعلامية

الركيزة الثانية:

الهدف الذي ينبغي أن يتحقق بعد التنفيذ:

بصيرة 4 الوصول إلى مرتبة التقوى، وقد ذكر الله تعالى هذا الهدف في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63)﴾ فكان رفع الطور من الرحمة بهم لحملهم على الصالح الإنساني العام لا على العبث والإفساد

بصيرة 5 يبصرنا الله بمدى التزامهم بالميثاق: لقد قابلوه بالترك الغادر المستخف، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ذكره ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، التولي تفعل يدل على شدة تكلفهم ليعرضوا عن الاستقامة المركوزة في فطرهم والخطاب يدل على مسؤولية الأحفاد عن أفعال الأجداد عند عدم إنكارها، وقال ﷺ: ((إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ، كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا - وَقَالَ مَرَّةً : أَنْكَرَهَا - كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا ، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا، كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا))

بصيرة 6 يبصرنا الله بنتيجة هذا النقض للميثاق فيقول: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64)﴾، فكادوا أن يخسروا الاختبار الدنيوي لولا فضل الله عليكم ورحمته، فالفضل الزيادة على النعمة الأصلية، والرحمة: صفة إلهية ذاتية تقتضي الإنعام على المَرْحُوم في ظاهره وباطنه، أدناها كَشْفُ الضُرّ وكَفّ الأذى، وأعلاها الاختصاص برفع الحجاب

الهدف المرجو أن يتحقق بعد التنفيذ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63)﴾

ردة الفعل:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾

النتيجة:

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64)﴾

الفصل الثاني:

أبرز نماذج نقضت هذا الميثاق:

الأنموذج الأول:

أنموذج أصحاب السبت.

الأنموذج الثاني:

أنموذج أصحاب البقرة.

تذكر الآيات لهم أربع قضايا:

الأولى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ (البقرة:65)، المعرفة الإسرائيلية بقصة أصحاب السبت وعواقبها، وإن حاولوا كتمانها.

الثانية: ﴿اعتدوا﴾، قاموا بارتكاب جريمة العدوان على الميثاق المأخوذ عليهم، ولم يلتزموه؛ من خلال تفتيت دينهم بالحيل الدينية.

الثالثة: العقوبة التي نزلت بهم: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (البقرة:65)، عقوبة فريدة هي عقوبة المسخ من الصورة الآدمية إلى صورة حيوان مستكره، والخاسئ هو المطرود المبعد الذميم الصاغر الذليل المقموع المطرود من أن يكون له مكانة، أو كرامة.

الرابعة: آثار العقوبة في الأحاسيس البشرية العالمية: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:66)

فالبشرية صنفان:

العصاة:

جعلها الله لهم (نَكَالًا)، مأخوذ من النكل، وهو المنع، والحبس؛ ولذلك يقال للقيود الشديدة: أنكال، يعني قيودا تحبس العصاة. "لما بين يديها وما خلفها"، أي: ما أمامها وما خلفها من القرى، أو ما تقدم من ذنوبها، وما تأخر.

المتقون:

فجعلها لهم موعظة، أي: نصحًا مقترنًا بالترقيق القلبي؛ خوفاً من المآلات المستقبلية.

المشهد الخامس:

تنفيذ المكره: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة:71)، فبين الله تعالى أنهم نفذوا، ولكنه ذكر أنهم ما كادوا يفعلون، ومعنى ذلك: أن التنفيذ شابه الكثير من التلاعب، والتثاقل، والبطء، والحرج، بدلًا من أن يصحبه الاستسلام، والإذعان، والانقياد.

بصيرة 3

القاتل كان واحدًا، ولكنه أسند القتل إلى مجموعهم، فقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ (البقرة:72)؛ لبيان المسؤولية الجماعية الواجبة على المجتمع في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وردع الظالم عن ظلمه، والقيام بنصرة المظلوم.

المشهد السادس:

إحياء الميت بميت؛ بيانًا لقدرة الله وعظمته: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:73).

القسم السادس

قساة القلوب يغيرون الآيات، ويدمرون المجتمعات (74-82)

الفصل الأول:

أسوأ نتائج عدم أخذ الكتاب بقوة أن تقسو القلوب (البقرة:74): ﴿قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ لسببين:

السبب الأول:

نقض العهد والميثاق بالتلاعب بالتكليفات، والأوامر، والنواهي ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (المائدة:13).

السبب الثاني:

مرور زمن التغير الإنساني: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحديد:16)، فيحتاج القلب إلى تعاهدٍ، ومراجعة.

﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة:74)

و﴿أو﴾ تقدم لنا صورتين:

الصورة الأولى:

أو لِلْإِضْرَابِ؛ للتبشيع، والتشنيع، أي، قلوب كالحجارة، بل أشد قسوة.

الصورة الثانية:

بيان أنواع القساة، فأقلهم سوءًا من قلبه كالحجارة، ومنهم من هو أسوأ من ذلك.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:74)

هذا الختام يعبر عن الإحاطة الإلهية بالقساة من جميع الأمم، بما فيهم من انتسب للإسلام، فقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:74)

بقراءة التاء في ﴿تعلمون﴾: خطاب لبني إسرائيل، ولنا، ولكل سامع،

وبقراءة الياء: كلام عن المتآمرين، والعاملين في الخفاء منهم.

الفصل الثاني:
أصناف قساة القلوب الذي يغيرون الشريعة، ويدمرون المجتمعات خمسة أصناف
(البقرة:75-79)
الصنف الأول:
المحرّفون (للمعنى بعد نقل اللفظ): ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(البقرة:75).
الصنف الثاني:
الكاذبون المترددون المنافقون: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ (البقرة:76).
الصنف الثالث:
المتآمرون المحرضون على الكفر، المتلاعبون بالأديان، والأبدان: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:76).
الصنف الرابع:
الأميون الذين لا يعلمون الكتاب، وهم الجماهير، والغوغاء، والرأي العام المضلّل المتلاعب به: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة:78).
الصنف الخامس:
المبدلون المجرمون الذين يغيرون الألفاظ ذاتها، وهم أسوأ من المحرفين: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ (البقرة:79).

القسم السابع:

الشبه الإسرائيلية في عدم اتباع النبوة الخاتمة (البقرة: 80-123)

الملمح الأول:

طول هذا القسم ضمن المحور (43آية)، ودخل القسم السابع أثناء ذكر هذه الشبه.

الملمح الثاني:

عدد الشبه إحدى عشرة شبهة صريحة، أو مضمنة.

الملمح الثالث:

ترجع هذه الشبه إلى التلاعب بالكلام الإلهي، والضحك على الرأي العام.

الملمح الرابع:

الردود على الشبه متنوعة الأسلوب.

الملمح الخامس:

دخل معهم في بعضها غيرهم من النصارى، والمشركين.

الملمح السادس:

ليسوا جميعاً قالوا كل واحدةٍ منها، بل كلٌ منها يعكس قول فئة.

ملامح هذه الشبه:

لماذا ذكرت هذه الشبه في البصائر القرآنية؟

الهدف الأول: تثبيت عقيدة الإيمان الحق في نفوس المسلمين.

الهدف الثاني: تدريب المسلمين على طريقة إدارة الحوار المثمر، الذي لا يستغل الطرف الآخر فيه طبيعتهم الرحيمة، وأخلاقهم الكريمة، فيستفيد المسلم من التعليم القرآني في التعامل مع الشبه.

الهدف الثالث: بيان الحقائق للعالمين، ومنهم الرأي العام الإسرائيلي خاصة، والكتابي عامة.

الهدف الرابع: تنوير العقلية الإسلامية بمعرفة أنواع الشبه والدعايات والتضليل الإعلامي المتنوع الذي لا يخلو منه زمان.

القسم السابع: الشبه الإسرائيلية في عدم اتباع النبوة الخاتمة (البقرة:123-80):

الشبهة الاولى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ (البقرة:80)، فيزعمون أنه لا حاجة بهم إلى الإيمان؛ فهم لن يطيلوا المكث في النار، وينشرون بين العالمين الاستهانة بوعيد الله تعالى وعقابه للمجرمين في الآخرة.

الشبهة الثانية: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ (البقرة: 88)، أي: هي خُلِقت مغلفة، فلا يمكن أن يصل إليها الهدى.

الشبهة الثالثة: هم مؤمنون بما عندهم وهذا يكفيهم، فإيمانهم وفق شروطهم الخاصة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ (البقرة:91).

الشبهة الرابعة: لهم الدار الآخرة عند الله خالصة، فلماذا يؤمنون؟ ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ (البقرة:94)

الشبهة الخامسة: كرههم لجبريل -عليه السلام- (فلو كان أمين الوحي غيره من الملائكة لآمنوا): ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة:97).

القسم الثامن: الدِّين الباطل الذي صنعوه لأنفسهم، ويحاولون إدارة العالم به (البقرة:99-105):

الشبهة السادسة: زعموا عدم جواز نسخ شريعة موسى -عليه السلام-، وأنكروا مبدأ النسخ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة:106).

الشبهة السابعة: زعموا أن الجنة حكر عليهم، ومنعوا دخولها لغيرهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ (البقرة:111).

الشبهة الثامنة: زعمت فرق أن الله اتخذ ولداً: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (البقرة:116).

الشبهة التاسعة: زعمت فرقٌ أنهم لن يؤمنوا حتى يكلمهم الله، أو تأتيهم آية تجبرهم على الإيمان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ (البقرة:118).

الشبهة الهاشرة: زعموا أن الهداية الحقيقية تكمن في اتباع اليهودية، أو النصرانية: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ (البقرة:135).

الشبهة الحادي عشر: أثاروا الشبه حول تغير الأحكام الإسلامية، وخاصة القبلة التي يتم الصلاة إليها: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ (البقرة:142).

الشبهة الاولى:

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ (البقرة:80)

كأنهم يقولون: ما الداعي للإيمان بنبي الأمّيين، والعصاة منا لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، فمنهم من قال: 12شهرًا، ومنهم من قال: 49يومًا، ومنهم من قال: 40 يومًا!؟

الرد القرآني على هذه الشبهة:

الرد الأول:

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:80)، قولكم يحتمل أمرين منطقياً: إما عندكم كتاب فيه عهد بما تقولون، وإما أنكم تكذبون على ربكم، والأول باطل، فلم يبق إلا الثاني، وهذا ناتجٌ عن التحريف، والتبديل، واتباع الأهواء.

الرد الثاني:

﴿بلى﴾، أي: اذكروا المبدأ الإلهي العادل: الثواب بالعمل، والاكتساب، لا بالادعاء، والأماني، والانتساب، فالناس صنفان:

الصنف الأول:

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:81).

الصنف الثاني:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:82).

الرد الثالث:

على الشبهة الأولى: تلاعبهم بالميثاق العقدي الاجتماعي العبادي: (البقرة:83):

1. العلاقة مع الله (العبادة، ونفي الشرك): ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ (البقرة:83).
2. العلاقة مع أقرب الناس، وهما الوالدان، (الإحسان): ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (البقرة:83).
3. العلاقة مع بقية الأقارب (الإحسان): ﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾ (البقرة:83)، وأحسنوا إلى ذي القربى
4. العلاقة مع الضعفاء في المجتمع: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ (البقرة:83)، أي وأحسنوا إلى اليتامى والمساكين
5. العلاقة مع بقية الناس: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة:83).
6. أهم العبادات: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (البقرة:83) (ذاتية)، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة:83) (متعدية).
7. ردة فعلهم: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾، التولي بالجسد، والإعراض بالقلب والتحذير للأمة الإسلامية أن تسير سير بني إسرائيل في الإعراض والمخالفة

الرد الرابع:

تلاعبهم بالميثاق السياسي الذي يكوّن الأمة المؤمنة الواحدة؛ لتأخذ دورها العالمي متكاتفة (البقرة:84).

الأول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ (البقرة:84)، من سفك دم أخيه، فكأنما سفك دم نفسه.

لكنهم نقضوا: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة:85)، عدّ الآخرين بمثابة نفوسهم.

الثاني: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ (البقرة: 84)، تحريم المعاقبة بالإخراج من الديار، مهما كان الخطأ.

لكنهم لم يفعلوا: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (البقرة:85).

الثالث: وجوب افتداء الأسير: فُهم من قوله تعالى جده: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾ (البقرة: 85)، أو يكون المعنى: أنكم تأخذون الفدية مقابل إخوانكم، فهذه جريمة ثالثة.

الرد الخامس:

بين أصل الخلل في إجرامهم: وهو التلاعب بالكتاب بفعل بعض أوامره، وترك بعضها: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

الرد السادس:

ردٌ تحذيري ببيان العقوبة التي لا محاباة فيها لمن يتلاعب بالكتاب: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ (البقرة: 85-86).

الرد السابع على الشبهة الأولى:

رد عليهم ببيان وضوح بينات الرسل الذين جاؤوهم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: 87)، فكيف قابلوهم؟

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة:87)

قابلوا رسلهم بالتكذيب، أو القتل، فكيف لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة؟

وفي الآية حثٌ شديد للنصارى الذين يستمعون هذه المحاورة على التفكير المنطقي، واتخاذ القرار المناسب؛ فإن عيسى ممن كذبته عصاة المتلاعبين، وحاولوا قتله، والأمر ذاته يحدث مع النبي ﷺ.

الشبهة الثانية:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ (البقرة:88)

يزعمون أنها خُلِقت مغلفة محمية من أن يصل إليها الهدى

الرد القرآني على هذه الشبهة:

الرد الأول

﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ (البقرة:88)، فسبب عدم وصول الهدى إلى قلوبهم: استحقاقهم اللعن؛ لتعمدهم الكفر، وتغطية الحقائق.

الرد الثاني

﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة:88)، لا يؤمنون إلا بشيء قليل من الدِّين.

ولها معنىً ثانٍ: لا تجد فيهم مؤمنين إلا قليلًا.

الرد الثالث

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:89)، كأنه يقول: انتظرتم النبي ﷺ، وإلا فلماذا جئتم إلى صحراء الحجاز، ورمضائها.. حتى إذا جاء كفرتم به، وغطيتم الحقائق على العالم!؟ ولها معنىً ثانٍ: لا تجد فيهم مؤمنين إلا قليلًا.

الرد الرابع

الهوى أفضى بهم إلى اختيار الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض، ثم انتقلوا إلى مرحلة البغي على الصادقين: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (البقرة:90)، ولها معنىً ثانٍ: لا تجد فيهم مؤمنين إلا قليلًا.

الشبهة الثالثة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ (البقرة:91)

يزعمون أنهم مؤمنون بما عندهم، وهذا يكفيهم، فإيمانهم وفق شروطهم الخاصة

ردّ الله عليهم شبهتهم؛ لأجل توعية عامتهم، وإقامة الحجة عليهم:

الرد الأول:

﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾، فلم ينكروا أن القرآن من عند الله، لكنهم زعموا أنه يكفيهم إيمانهم بما أنزل عليهم، فكيف يفرقون بين ما نزل من الله، فيؤمنون بالسابق، ويكفرون باللاحق؟

الرد الثاني:

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾، الذي وراء التوراة هو الحق يصدق ما معهم، فكيف يكفرون بما يصدق ما معهم؟ كأنهم بذلك يكفرون بما معهم.

الرد الثالث:

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وفي سفر الملوك الأول: 19: 10: فقال: قد غرت غيرة للرب إله الجنود؛ لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك، ونقضوا مذابحك، وقتلوا أنبياءك بالسيف.

الرد الرابع:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة:92)، فهل اتخاذكم العجل يعد إيماناً بما معكم؟ ونقلتم في سفر الخروج:32: 7: "فقال الرب لموسى: اذهب انزل؛ لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر". 32: 8 زاغوا سريعًا عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلًا مسبوكًا، وسجدوا له، وذبحوا له، وقالوا: هذه إلهتك يا إسرائيل، التي أصعدتك من أرض مصر.

الرد الخامس:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ (البقرة:93)، فكأنه قال: كيف تقولون نؤمن بما أنزل علينا وأنتم أُخذ عليكم الميثاق، مع تخويفكم برفع الطور فوقكم؛ لتلتزموا القيام بمقتضيات الإيمان، فتأخذوه بجد، واجتهاد، وعدم تلاعب، وتسمعوا سماع إجابة وقبول، فقلتم: سمعنا وعصينا؟

الرد السادس:

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، كيف تقولون: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾، وما زال حب العجل باقياً في قلوبكم؛ إذ جعلتموه علامة على تطهير بني إسرائيل.

الرد السابع:

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: هل هذه صفات المؤمنين: كفر بما اقتضاه كتابكم، وقتل للأنبياء، واتخاذ للعجل، وعصيان عند الأمر بالسمع والطاعة؟

الشبهة الرابعة:

زعموا أنهم يتحكمون بالدار الآخرة (البقرة:94-96)

فحوى الشبهة: لضعفها، وسفهها، رد عليهم مباشرة مشيراً إلى الشبهة، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ (البقرة:94)، فشبهة فئة منهم: أنهم لا يحتاجون إلى الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأن لهم الدار الآخرة خالصة من الشوائب، والأكدار من دون الناس، يتحكمون بها كيفما شاؤوا، فهم شعب الله المختار.

الرد عليهم:

الرد الأول:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:94)، بالتحدي أن يتمنوا الموت الذي يحول بينهم وبين الوصول إلى تلك الدار الكاملة (النعيم)، أو بالدعاء بالموت على الفريق الكاذب منهم، أو من المسلمين.

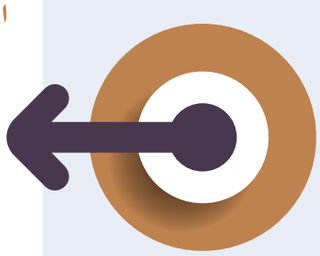

الرد الثاني:

فشلهم في التحدي فقال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ (البقرة:95)، فهو تحدٍ مضاعف.

وسبب عدم تمنيهم: سوء إدارتهم لأحوالهم، وإجرامهم في حق أنفسهم، والعالم.

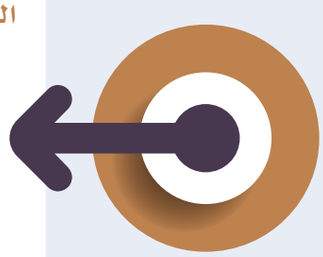

الرد الثالث:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:95)، كشف حقيقة نفسياتهم؛ فهو عليم بأدق أسرارهم، وبمن يظلمون أنفسهم، والعالم، فليس بغافل عن أفعالهم، التي سيجدون جزاءها في الآخرة.

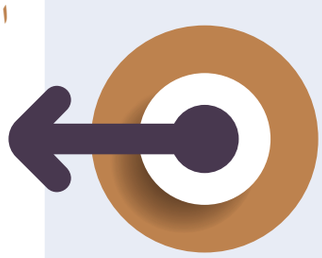

الرد الرابع:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (البقرة:96)، كشف حقيقة نفسياتهم، وحبهم للدنيا، فهم أحرص من المشركين على الدنيا، مع أن المشركين لا يؤمنون بالآخرة، فكيف يزعمون أن لهم الدار الآخرة!؟ وهذا واضح تشهد عليه بيوت الربا العالمية.

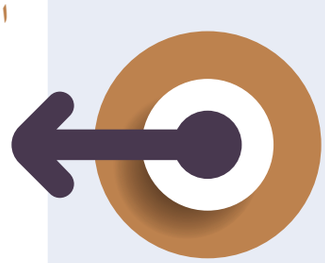

الرد الخامس:

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:96)، طول العمر لا يمنع من الحساب، والعذاب، ولا من مراقبة أعمال الدنيا، وإحصائها.

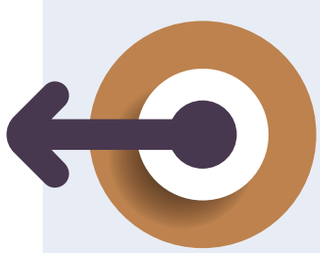

كرههم لجبريل عليه السلام (أي: لو كان أمين الوحي غيره من الملائكة لآمنوا)(البقرة:98-97)

فرد عليهم بالآتي:

الرد الأول:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة:97)، جبريل -عليه السلام- نزل القرآن على قلبك بإذن الله، أي: بأمره، وعلمه، ولم ينزل من تلقاء نفسه، فلم يعادون؟ أليس سفهاً في العقل!؟

الرد الثاني:

﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، نزول جبريل -عليه السلام- كان إلى القلب؛ ليبين شدة الحفظ، والوعي، الذي اتسم به النازل جبريل، والمنزل عليه ﷺ، وأنه لا اختيار لك، ولا لجبريل في النزول.

الرد الثالث:

جبريل -عليه السلام- هو الذي نزل على موسى، والأنبياء عليهم السلام من قبل أميناً للوحي: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: مخبراً في القرآن بصدق الوحي من قبله، فمعاداته تعني معاداة ما نزل به قبل ذلك.

الرد الرابع:

﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ما نزل به جبريل -عليه السلام- من الوحي هدى للصواب، وبشرى بإظهار جمال المآلات، وسعادة النهايات للمؤمنين، لا للمتلاعبين، فمن يتلاعب فيؤمن ببعض، ويكفر ببعض، لم يكن القرآن وما قبله عليه هدى، ولا بشرى.

الرد الخامس:

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:98)، حقيقة عداوة جبريل -عليه السلام- عداوة لله الذي أرسله، وهي عداوة لكل من يرسلهم الله من الملائكة، والرسل.

الرد السادس:

بالثناء العظيم على ما نزل به جبريل -عليه السلام- وهو القرآن، فأثنى عليه بست صفات: مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَبِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ، وَأَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا سَبَقَهُ مِنَ الْكُتُبِ، وَأَنَّهُ هَادٍ لِلصواب فِي الحياة، وَأَنَّهُ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وأن النازل به نزل بالوحي على من قبله، فأثنى عَلَى الْقُرْآنِ بِكَرَمِ الْأَصْلِ، وَكَرَمِ الْمَقَرِّ، وَكَرَمِ الْفِئَةِ، وَمَفِيضِ الْخَيْرِ عَلَى أَتْبَاعِهِ الْأَخْيَارِ خَيْرًا عَاجِلًا، وَوَاعِدٌ لَهُمْ بِعَاقِبَةِ الْخَيْرِ.

القسم الثامن: الدِّين الباطل الذي صنعوه لأنفسهم، واستبدلوا به الوحي (البقرة: 99-105)

المناسبة والاتصال: لما ذكر الله الشبهة الغريبة التي أوردها بعض بني إسرائيل حول كرههم لجبريل -عليه السلام-، أراد الله أن يفتح العقلية المسلمة المتفاجئة من هذا الاعوجاج العقلي، على سبب لجوئهم إلى مثل هذه الأقاويل، التي لا تكاد تعقل، وأن يبين أن حقيقة عداوتهم لجبريل هي عداوة للوحي الإلهي، وإصرار على صنع دِين استحلته شهواتهم، معرضين عن الآيات البينات.

الركن الخامس

بدلاً من اتباع الكتاب اتبعوا أمرين كفريين:

الأمر الأول:

الخرافات الكفرية التي وضعها شياطين الإنس والجن، وتقولوها على ملك سليمان، والحيل السحرية التي علمتها الشياطين الناس: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾(البقرة:102) والفعل المضارع يدل على الاستمرار.

الأمر الثاني:

السحر الذي أنزل على الملكين هاروت وماروت، مما كان تعلمه فتنة كفرية ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ (البقرة:102).

مفاسد السحر الدنيوية:

المفاسد الخاصة في التدمير الأسري: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾(البقرة:102)، مع ما جعل الله بينهما من المودة، والرحمة، ولكن الضرر لا يقع إلا بالإذن الكوني؛ ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(البقرة:102).

المفاسد العامة في بقية الأمور:

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ (البقرة:102)، فهو ضرر خالص، لا منفعة فيه.

العقوبة الأخروية لمن يتعامل بالسحر:

الخسارة الماحقة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ (البقرة:102)، "﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة"، وهنا يبين إصرارهم على هذه الجريمة الكبيرة، مع علمهم بسوء المصير في الآخرة ،كما يعلم إبليس سوء مصيره. ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لبئس بيعهم لأنفسهم مقابل السحر الكفري الذي أخذوه

أبقى حبل الدعوة لهم مفتوحًا بألطف أسلوب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(البقرة:103)، أي: لو آمَنُوا بالكتاب بدلًا من نبذه، وَاتَّقَوْا بِالْعَمَلِ بِهِ؛ لَكَانَ ثَوَابُ اللهِ لَهُمْ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ جَمِيعِ مَا تَوَهَّمُوهُ من المنافع في اتباع السحر، ونبذ الكتاب.

الركن السادس:

التلاعب الإعلامي اللفظي الساخر من العالم، وخاصة المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ (البقرة:104) و(راعنا) عندهم من الرعونة، أي: أنت سفيهنا.

الركن السابع:

عدم ودّهم لنزول أي خير ديني، أو دنيوي على المؤمنين الصادقين: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة:105).

رجع القسم السابع: الشبه الإسرائيلية في عدم اتباع النبوة الخاتمة (البقرة:80-123):

الشبهة السادسة: إنكار مبدأ النسخ (البقرة:106-110)

وذلك في جهتين:

الجهة الأولى:

أنكروا مبدأ النسخ داخل الشريعة الواحدة:

جعلوا ذلك مما يتندر به كنوع من العبث الإعلامي بالجماهير، فَقَالُوا: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مُحَمَّدٍ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِأَمْرٍ، ثُمَّ يَنْهَاهُمْ عَنْهُ، وَيَأْمُرُهُمْ بِخِلَافِهِ، وَيَقُولُ الْيَوْمَ قَوْلًا، وَغَدًا يَرْجِعُ عَنْهُ، فيغير أحكام شريعته.

الجهة الثانية:

عدم جواز نسخ شريعة موسى -عليه السلام-:

ادعوا أَنَّ شَرِيعَتَهُمْ لَا تُنْسَخُ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا وَصَفَ التَّوْرَاةَ بِأَنَّهَا حَقٌّ، وَأَنَّهُ جَاءَ مُصَدِّقًا لَهَا، فَكَيْفَ يَكُونُ شَرْعُهُ مُبْطِلًا لِلتَّوْرَاةِ.

الرد الأول:

التذكير بالعاطفة التي يخفيها كثيرٌ من الكفار الذين يخفون الحقائق من أهل الكتاب والمشركين، وهو أنهم يرغبون بشدة ألا ينزل على المسلمين من خير من ربهم: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (البقرة:105).

الرد الثاني:

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة:106)، رد مباشر مقترن بـ"نا" الدالة على التعظيم (ما ننسخ -ننسها)، فلم يورد هذه الشبهة كقولٍ من أقوالهم ثم يرد عليها؛ لأنها سفهٌ عقلي، مثل ادعاء التحكم بالآخرة، ومثل كرههم لجبريل -عليه السلام-؛ إذ كيف يعترضون على حكم الله، مع أنه معقول المعنى، فالله يربي عباده بما يناسب أحوالهم.

الرد الثالث:

كلمة: (آية) تؤدي دوراً عظيماً في الرد؛ إذ لم يذكر الله سبحانه بدلاً منها كلمة: (شريعة) أو كلمة: (حكم)؛ لأنه أراد تعليم مبدأ: (النسخ)، وهو مقصد كلي شامل للشرائع الكلية، والأحكام الجزئية، وجعل الشريعة والحكم آية لمراعاة المعنى اللغوي الأول لها، وهو أنها علامة على أنها من الله، الذي يرسل رسولاً، ثم يرسل رسولاً ثانياً، فتكون الطاعة له، ولمراعاة المعنى اللغوي الثاني، وهو أنها معجزة بذاتها من نواحٍ متعددة، ومن ذلك: أن تكون معجزة تشريعية.

الرد الرابع:

لم يخاطب أصحاب الشبهة، وجعل الخطاب عالمياً؛ لهوان ما اعترضوا به، فقال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ شَرِيعَةٍ؛ لبيان أن الآيات، والشرائع كأنها وحدةٌ واحدة.

الرد الخامس:

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة:106)، تبصرنا بأن الشريعة الإلهية منزلة لمصلحة العالم، والنسخ دليل على ذلك، فكل شريعة جاءت مع نبي، فهي لحراسة المصلحة البشرية، ونفع الإنسانية؛ وذلك ليوافق تربية الله للعالم، وتدرج السير بالبشرية نحو الختم في الكتب، والرسل، فيكون معنى الآية:

المعنى الأول

قراءة الجمهور: (نُنْسِها)، من النسيان بمعنى: الترك، فترك الآية كنسخها: إما أن تماثلها، وإما أن تكون أعلى في الخيرية، أي: ما نستبدل من آية، أو نتركها دون نسخٍ (استبدال)، فلا نبدلها، كما يقول ابن عباس.

المعنى الثاني

﴿ننسها﴾: نتركها كما هي، فلا نفصلها لك؛ وذلك مما نزل من قبل، وهذا يبينه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((وسكت عن أشياء رحمةً لكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها)).

المعنى الثالث

قراءة ابن كثير، وأبي عمرو: ﴿ننسأها﴾، من النسء بمعنى: التأخير، أي: ما نَنْسَخْ مِن اللَّوْحِ المَحْفُوظ من آية (شريعة، أو حكم)، فننزلها على نبيٍّ للبشرية، أَو نُؤَخِّرْها فلا نُنْزِلْها، نأت بخير منها أو مثلها، فلا يقال: لماذا لم يأت محمد بدلاً من موسى -عليهما الصلاة والسلام- لو كانت شريعته هي الناسخة؟ ولا يقال: لماذا يتأخر نزول عيسى الثاني ولماذا لا يكون محمد بدلاً من عيسى -عليهم الصلاة والسلام-؟

المعنى الرابع

ما نُنسِخ من آية لكم في قراءة ابن عامر أي نجعلكم ناسخين لها أو نجعلكم ناسين لها فتغفلونها، فلا تذكرونها إلا كان غيرها خيراً منها أو مثلها ... مثل نسيان تحديد ليلة القدر

المعنى الخامس

مَا نزيل (ننسخ) مِنْ آيَةٍ كانت دَلِيلًا عَلَى نُبُوَّةِ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ نُنْسِهَا النَّاسَ لِطُولِ الْعَهْدِ بِمَنْ جَاءَ بِهَا، أو نؤخرها فلا نأتي بها، نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي قُوَّةِ الْإِقْنَاعِ، وَإِثْبَاتِ النُّبُوَّةِ، أَوْ مِثْلِهَا فِي ذَلِكَ، كنسخ شريعة موسى أو عيسى -عليهما السلام- بالقرآن.

الرد السادس:

التذكير بالعاطفة التي يخفيها كثيرٌ من الكفار الذين يخفون الحقائق من أهل الكتاب والمشركين، وهو أنهم يرغبون بشدة ألا ينزل على المسلمين من خير من﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة:106)، النسخ من مظاهر قدرته سبحانه، ومن قدرته: حكمه في كل شيء، ومن أجلى مظاهر القدرة الإلهية: نسخ معجزات إبراهيم بمعجزات موسى، التي نسخت بمعجزات داود، التي نسخت بمعجزات سليمان، التي نسخت بمعجزات عيسى، التي نسخت بمعجزات محمد ﷺ.. أليس الله القدير على كل شيء هو الذي أرسلهم؟

الرد السابع:

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة:107)، النسخ من مظاهر ملكه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وإحاطته، وبما أن له ملك السماوات والأرض فهو يملك أموركم، ويدبرها، وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ أو منسوخ، وهذا الرد والذي قبله، يتعلق بجميع الشبه السابقة، وخاصة موضوع جبريل، والنسخ.

الرد الثامن:

استنكار الاعتراض على الأوامر الإلهية، التي يبلغها المقام النبوي قديماً وحديثاً: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ (البقرة:108)، أي: كما حدث مع البقريين، وهو خطاب للمؤمنين، والكفار؛ تذكيرًا، وتهديدًا، وزجرًا.

الرد التاسع:

﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (البقرة:108)، النسخ حكم الله، والتشكيك في حكم الله كفر، وترك الإيمان وتبديله بالكفر، تيه عن السبيل الحقيقي للعيش في هذه الحياة.

الرد العاشر:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة:109)، كشف حقيقة نفسية جديدة وراء كل الشبه: إنها حقيقة الحسد، الذي عند كثيرٍ من أهل الكتاب حقدًا، أفضى بهم إلى تمني أن يكفر المسلمون، وليس أن يدخلوا في دِين أهل الكتاب

الرد الحادي عشر:

بيان وجوب التعامل بأرقى الأساليب مع تشويش المحرفين، ومؤامراتهم:

أولاً:

﴿فَاعْفُوا﴾، العفو محو، وذلك يقتضي نسيان الأخطاء الفعلية مقابل دعوة أصحابها إلى الله، لا نسيان الأخطاء الفكرية ليستعان بها على تقويم مسيرة أصحابها.

ثانياً:

﴿ وَاصْفَحُوا﴾، الصفح إعطاء الرجل صفحته، أي: جانبه، وهذا يقتضي الإعراض، وعدم الاستجابة للاستفزاز.

ثالثاً:

التعبد بانتظار التغيير بعد بذل الأسباب الشرعية: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

رابعاً:

الثقة بقدرة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:109).

خامساً:

القيام بأسس العبادات الذاتية، والمتعدية (الصلاة، والزكاة): ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة:110)، وذكرها هنا كأنه يقول: لا يلهيكم حواركم، أو عداوتهم لكم عنها.

سادساً:

انشغلوا بنشر الخير على المستوى المحلي، والعالمي أكثر من انشغالكم بهم: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

سابعاً:

الثقة بعلم الله المحيط بكم وبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة:110).

الشبهة السابعة:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ (البقرة:111-115)

1 الرد الأول:

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:111)، هذه أمانٍ، ودعاوى، أين الدليل عليها؟ إنه الدّين الباطل، الذي يصنعه لهم الدجالون، ومدعو النبوة، وفي سفر إرمياء14 : 14 فَقَالَ الرَّبُّ لِي: «بِالْكَذِبِ يَتَنَبَّأُ الأَنْبِيَاءُ بِاسْمِي. لَمْ أُرْسِلْهُمْ، وَلاَ أَمَرْتُهُمْ، وَلاَ كَلَّمْتُهُمْ. بِرُؤْيَا كَاذِبَةٍ وَعِرَافَةٍ وَبَاطِلٍ وَمَكْرِ قُلُوبِهِمْ هُمْ يَتَنَبَّأُونَ لَكُمْ»

2 الرد الثاني:

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (البقرة:112)، الدخول إلى الجنة بالاكتساب، لا بالادعاء والانتساب، فيكتسب أمرين: أن يسلم وجهه لله باطناً وظاهراً، ويقتضي الإخلاص، وأن يحسن، ويقتضي الإتقان والصواب بأن يكون الفعل موافقاً لما بلغه الأنبياء، فمن فعل ذلك: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:112).

3 الرد الثالث:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ (البقرة:113)، إن كانت الجنة لكم، فلمَ يكفر بعضكم بعضاً، مع تلاوة كلٍ منكم للكتاب الذي نزل من ربكم؟

4 الرد الرابع:

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ (البقرة:113)، شابه أهل الكتاب في هذه الدعوى (التكفير) وهم علماء من لا علم عنده من المشركين.

5

الرد الخامس:

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة:113)، الحكم بدخول الجنة والنار حق إلهي، يتحقق في الآخرة، والخلاف بين أصحاب العقائد، يحكم فيه يوم القيامة، ولا يترتب عليه الإكراه على تركها.

6

الرد السادس:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ (البقرة:114)، إن كنتم أصحاب الجنة فلم تحاربون مساجد الله التي بنيت لذكره، ولماذا تسعون في خرابها؟، فالسعي في خراب المساجد، علامة الدِّين الباطل.

7

الرد السابع:

﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، فتبصرنا بردٍّ جديد: كيف تزعمون أن لكم الجنة، ومن أكبر العقد التي تجدونها: خوفكم من مساجد الله، مع أنها بنيت لصناعة السلام في الأرض؟ إن الذي يفعل ذلك بالأماكن التي يسجد فيها لله، له عقوبة دنيوية: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ (البقرة:114)، وله عقوبة أخروية: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة:114).

8

الرد الثامن:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:115)، منع العباد من العبادة في المساجد، لن يوقف دِين الله، فكل الكون مسجد، فالعبادة لله، لا للجهات.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (البقرة:116-117)

فزعموا أنهم يعبدون ولده، وهذه الشبهة قالها مجموعات من النصارى، والمشركين، واليهود

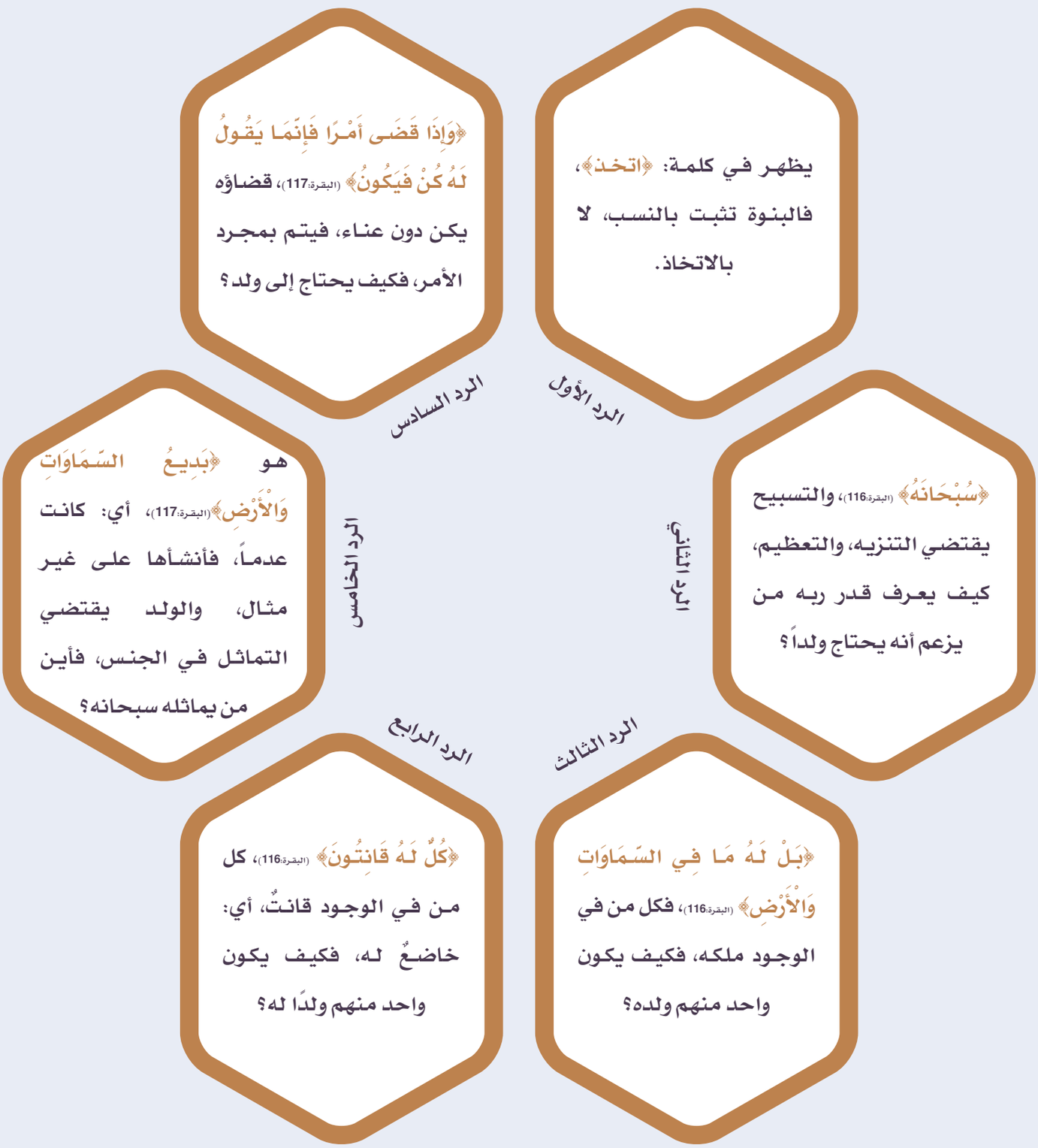

الشبهة التاسعة:

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﷺ البقرة: 118 - 123 رضي الله عنه

وحقيقة هذه الشبهة أنها ستار للعناد، والإصرار على شهوات الجسد، أو الترؤس

القائل:

الجهلة المعاندون من كل طائفة دينية، أو ملحدة، ولأن الشبهة ستار للنفسية المعاندة، فقد ذكر الله عددًا من القوانين في كيفية الرد عليهم، والتعامل معهم:

القانون الأول:

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (البقرة:118)، طلبهم شنشنة معتادة من المعاندين، لا من طالبي الحقائق، فهي سنة من سبقهم ممن يماثلهم في العناد.. لماذا لا يتغيرون نحو الأحسن؟

القانون الثاني:

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:118)، الآيات تظهر للموقنين، لا للمعاندين، فالموقن من يزيح الشك لا من يعاند.

القانون الثالث:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقرة:119)، يبصرنا هذا القانون بتطمين الرسول، والعالم، بأن أرسل الرسول بالحق، مهما شوش المشوشون، ورسالته تتضمن التبشير للمؤمنين، والإنذار للمعاندين، فالمعاند لا ينفع معه الإقناع العقلي؛ ولذا يطلب أن يكلم الله، أو تأتيه المعجزة معرضًا عن معجزات الله في خلق الجسد البشري مثلًا.. لا ينفع معه إلا التبشير، والإنذار.

القانون الرابع:

﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقرة:119)، ينير هذا القانون القرآني العقول ببصيرتين حسب القراءتين الواردتين في الآية:

بصيرة 1

﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، قراءة الجمهور بالنفي، ورفع: ﴿تسأل﴾، والمعنى: لا تسال أيها الرسول.. أيها المؤمن عن سبب بقاء المعاندين في ظلمات الكفر، ودخولهم النار بعد أن بشرتهم، وأنذرتهم، فالتغيير من العناد إلى السداد والرشاد، مسؤولية شخصية.

بصيرة 2

﴿وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، قراءة نافع بالنهي، أي: بعد أن شعرت بأنك على الحق، فلا تسأل نفسك، ولا تسأل ربك عن سبب إصرار المعاندين على البقاء على عنادهم، مع أن مصيرهم إلى الجحيم.. لا تقتل نفسك تحسراً وسؤالاً، بعد أن قمت بالتبشير، والإنذار، ما داموا قد اختاروا الإصرار على العناد.

خاتمة المحور:

بصائر في التعامل مع بني إسرائيل (البقرة:120-123)

بعد هذا التجوال في استكشاف النفسية الإسرائيلية، ذكر الله عدة بصائر للتعامل معهم

بصيرة 1

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة:120)، لا بد من الحوار مع بني إسرائيل وفق المبادئ الإسلامية، لا وفق ما يريدون، ولكن كثيرًا ما تكون دعوات الحوار التي يطلقها المعاندون خادعة، فلن ترضى عنك جملة اليهود، ولا جملة النصارى، مهما عملت معهم؛ حتى تتبع ملتهم.

بصيرة 2

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ (البقرة:120)، في اللقاء مع الآخرين لا بد من إعلان البحث عن هدى الله، فهو الهدى، أي: الإرشاد الحقيقي للعيش في هذه الحياة، وليس الهدى ما صنعه البشر بأهوائهم، وهذه البصيرة تثير المجتمعين من أهل الأديان؛ للبحث عن مدى صحة الكلام الموجود في كتبهم.

بصيرة 3

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(البقرة:120)، يجب عليك الحذر من اتباع الملة الكلية، أو الأهواء الجزئية.. فقد يغلب عليك الحذر من اتباع ملتهم، لكنك ربما تساهلت في اتباع بعض أهوائهم، ورغباتهم الصغيرة والكبيرة، وتركت الرجوع إلى العلم الإلهي (القرآني، والنبوي)، فعند ذلك تنال الخسارة الدنيوية، والدينية؛ لأنك تفقد النصرة، والولاية الإلهية، أو لا تجد أحداً منهم ينصرك، أو يواليك أمام غضب الله عليك.

بصيرة 4

﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة:120)، تبصرنا الآية أنك -أيها المؤمن-، قد تقع في خديعة المعاندين منهم باتباع بعض أهوائهم، وأنك باتباع الشريعة، والحذر من الوقوع في الخديعة، تنال الولاية، والنصرة الإلهية، وإلا حرمت منها، ولم يوجد لك منهم ولي ولا نصير، يحميك من غضب الله، فنفى الأمرين، فالولي يقتضي المحبة، وقد لا يستطيع النصرة، والنصير يقتضي النصرة، ولو لم يحب، فإن اتبع القرآن، اجتمع له الأمران، وإن ابتدع، انتفى عنه الأمران.

بصيرة 5

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (البقرة:121) تلاوة الكتاب المنزل من الله، تقتضي الالتصاق الدائم به: ترتيلاً، واتباعاً في حالتي الحرب، والسلم، وهو الموجه الإداري الحقيقي في التعامل معهم، فيتلونه تشمل القراءة المرتلة، والاتباع التطبيقي.

بصيرة 6

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة:121)، القرآن مصدر الهدى، وتحقيق الأرباح، والإنجازات، والمكاسب عند جعله الحاكم في التعامل مع بني إسرائيل، ومن يكفر به بأن يستره، ويخفيه من حياته، وتعامله، إما بالجحود، وإما بالإبعاد، فهو الخاسر عموماً، وخاصة في التعامل مع بني إسرائيل.

بصيرة 7

الجمع بين أسلوبي الترغيب، والتلطف في الخطاب، والترهيب من لقاء رب الأرباب:

فالترغيب:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة:122)، فالفساد العريض الذي تتسم به كثير من قياداتهم العلمية، والسياسية، لا يجعلنا ننسى التخاطب الإسلامي الراقي بمناداتهم بأحب الأسماء إليهم، والهدف الأسمى من هذا التخاطب بذكر التفضيل الإلهي السابق لهم؛ ليكونوا أداة شكر، ونشر للنور في العالم، لا ليفسدوا في الأرض.

والترهيب

بالتحذير من يوم القيامة، حيث لا تنفع فيه الأركان الأربعة، التي جعل الله لها شيئاً من النفع في الدنيا: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾

1 {لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا}: أي: لا تغني، ولو والد عن ولده ، فلا ينفع النسب الإسرائيلي، ولا غيره.

2 {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ}: أي فداء.

3 {وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ}.

4 {وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} [البقرة:123].

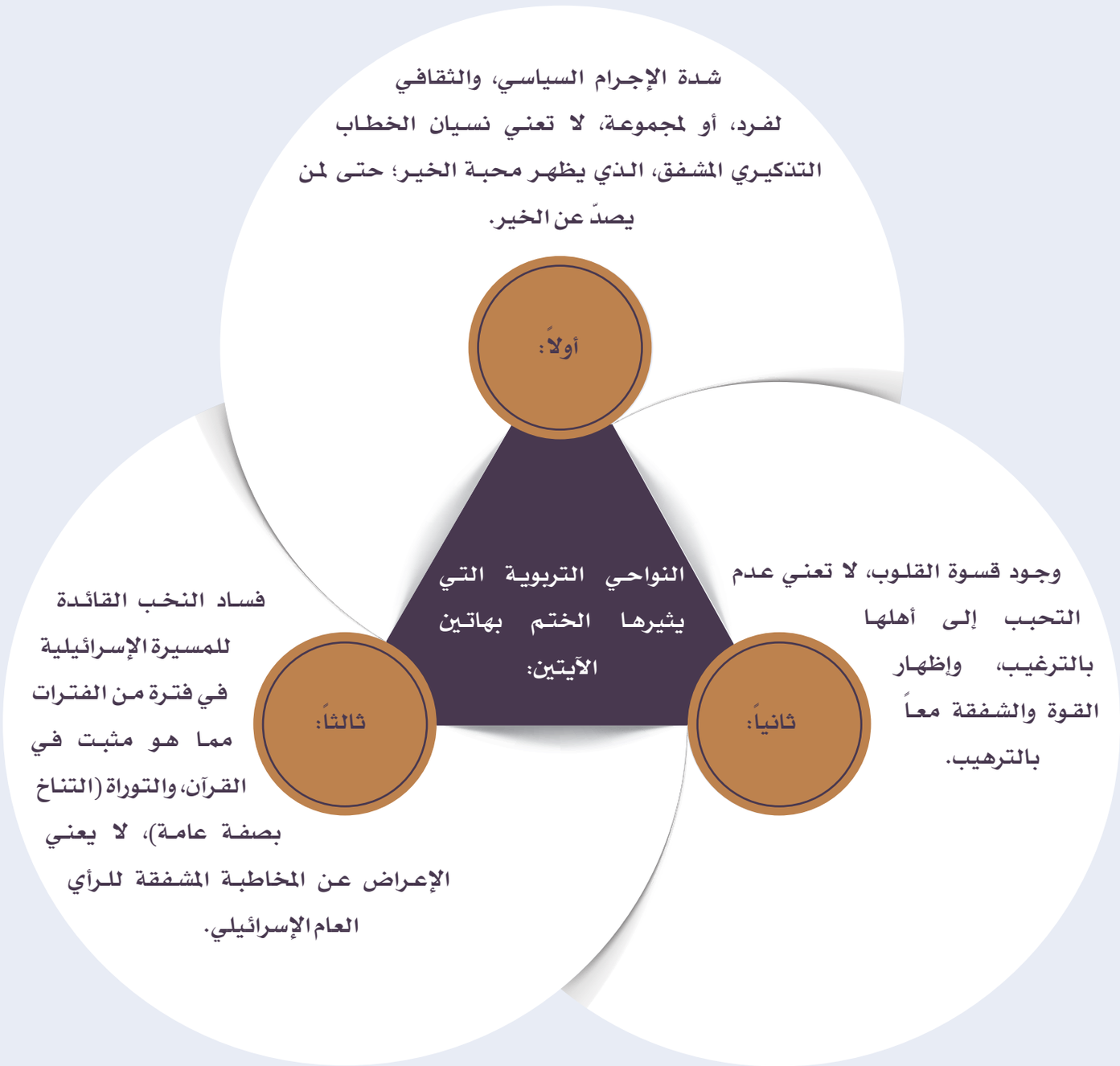
النواحي التربوية التي يثيرها الختم بهاتين الآيتين:
أولاً:
شدة الإجرام السياسي، والثقافي لفرد، أو لمجموعة، لا تعني نسيان الخطاب التذكيري المشفق، الذي يظهر محبة الخير؛ حتى لمن يصدّ عن الخير.
ثانياً:
وجود قسوة القلوب، لا تعني عدم التحبب إلى أهلها بالترغيب، وإظهار القوة والشفقة معاً بالترهيب.
ثالثاً:
فساد النخب القائدة للمسيرة الإسرائيلية في فترة من الفترات مما هو مثبت في القرآن، والتوراة (التناخ بصفة عامة)، لا يعني الإعراض عن المخاطبة المشفقة للرأي العام الإسرائيلي.

خلاصة الأسباب الباطنة لتوليهم عن إقامة الميثاق المأخوذ عليهم

السبب الأول

الأماني: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ (البقرة:78)، ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ (البقرة:111).

السبب الثاني

الأخذ ببعض الكتاب، وترك بعضه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة:85).

السبب الثالث

اتباع الأهواء الباطلة، والرغبات الفاسدة: ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ﴾ (البقرة:87).

السبب الرابع

الاستكبار، وهو نزعة إبليسية: ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة:87)، وهذا من أسباب تقديم ذكر قصة إبليس على بني إسرائيل.

السبب الخامس

البغي: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (البقرة:90).

السبب السادس

معارضة أمر الله، والهوى في اتباع شرعه وأمره، بلا تسليم، وهي نزعة إبليسية، حيث شرطوا تغيير جبريل عليه السلام بملك آخر ليؤمنوا وهو شرط لا علاقة له بالحق، فإن الحق لا يعرف بمن نزل به وإنما بأدلته وبراهينه، فدل ذلك على اتباع الهوى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ (البقرة:97).

السبب السابع

الفسق: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (البقرة:99).

السبب الثامن

عدم تمني الخير للآخرين: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (البقرة:105).

السبب التاسع

الحسد الشخصي: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ (البقرة:109).

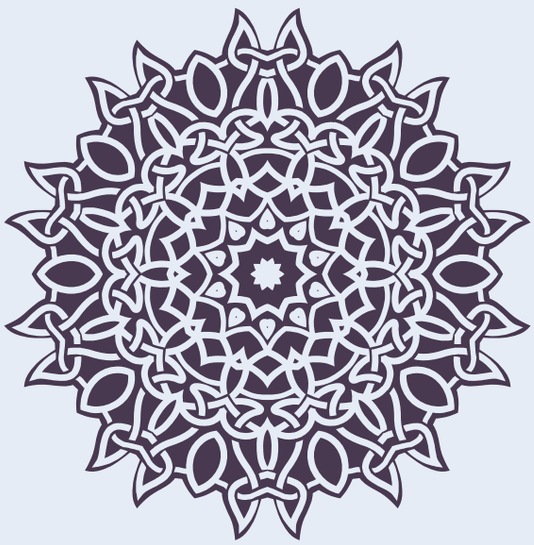

المحور الرابع

إرث الأمة الإسلامية للملة الإبراهيمية

(البقرة124-158)

المحور الرابع:

إرث الأمة الإسلامية للملة الإبراهيمية

[البقرة 124-158]

المناسبة والاتصال:

أنارت المعرفة القرآنية العقل المسلم والعقل العالمي بقصة بداية التاريخ البشري المقترن بالاستخلاف في الأرض.. وذكر الله أنموذج الاستخلاف الإسرائيلي في إيجابياته وسلبياته وكان له العلو الكبير، والتأثير الخطير في حياة البشرية، إلا أنهم فشلوا عدة مرات في اختبار الاستخلاف، ونقضوا الميثاق الإلهي، و﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة: 61)، وكان من أهم ما اتكئوا عليه في سياستهم العنصرية تجاه البشرية نسبتهم إلى إبراهيم، فأراد الله تعالى أن يبين أنموذج النجاح الحقيقي في الاستخلاف المتمثل في التطبيق الإسلامي الإبراهيمي؛ الذي أهّل الأمة المسلمة تمامًا للوراثة الحقيقية لإبراهيم -عليه السلام- لتكون أداة الخير والنور في البشرية.. فالترتيب منطقي رفيع شديد الجمال والجذب كما ترى.

الهدف الأساسي من المحور:

بيان أن الإسلام دين كل نبي، والاستسلام نظام كوني

أقسام هذا المحور:

القسم الأول: فضائل إبراهيم - عليه السلام- وتجديده للإسلام (البقرة: 124-134)

القسم الثاني: الأصل الإبراهيمي المشترك يرد على الشبهة العاشرة: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ (البقرة: 135-141)

القسم الثالث: وسطية الأمة الإسلامية والشبهة الحادية عشرة حول تغيير القبلة (البقرة: 142-143)

القسم الرابع: إعادة القبلة إلى موضعها الأصلي من براهين النبوة، وبداية إتمام المجد الحضاري الإسلامي (البقرة: 144-148)

القسم الخامس: من وسائل تحقيق إتمام النعمة وتجديد إرث إبراهيم -عليه السلام- (البقرة:149-150)

القسم السادس: الوسائل المعينة على تحقيق إتمام النعمة بعد إعادة القبلة (البقرة: 151-158)

القسم الأول: فضائل إبراهيم -عليه السلام- وتجديده للإسلام (البقرة124-134)

المناسبة والاتصال:

بدأ المحور بذكر فضائل إبراهيم -عليه السلام- ونجاحه في اختبار الاستخلاف الأرضي، وذكر التزامه بالدين الذي ارتضاه الله للإنسانية، وهو الإسلام، وذلك في بيانٍ لمناقضة ما استقر عليه الأمر في المنهج الإسرائيلي بعد ذلك، فذكر الله لإبراهيم أربع فضائل.

الفضيلة الأولى:

نجاح إبراهيم -عليه السلام- في اختبار الاستخلاف ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (البقرة: 124)

بصيرة 1 ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ الاستخلاف اختبارٌ حقيقي بشتى أنواع التفاعلات الحياتية من الصبر على دعوة الناس إلى الخير، والثبات على المبادئ أمام التهديد، ومغادرة الأوطان، وبناء البلدان، ومفارقة الأهل والولدان، وكل ذلك حدث لإبراهيم

بصيرة 2 كلمة ﴿ابتلى﴾ تدل في ذاتها على أمرين معاً: الاختبار، والثقل المصاحب لهذا الاختبار كأن من ابتُلِيَ قد وقع عليه البلاء؛ وذلك لتظهر جودة أدائه، ويستبين صدقه وثباته في بلائه

بصيرة 3 ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ تدل على أنه أحرز الدرجة التامة في الاختبار، فلم يكن اصطفاؤه لجنسه أو نسبه بل لنجاحه الباهر واتقانه الظاهر.

الفضيلة الثانية:

اختياره ليكون إماماً تقتدي به البشرية ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: 124) يقتدون بك، وتدلهم على سعادتهم الأبدية باتباع ملتك

بصيرة 1

يشكر الله الناجحين في ابتلاء الاستخلاف: فلنجاح إبراهيم -عليه السلام- كافأه الله ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يقتدون بك، فتدلهم على سعادتهم الأبدية باتباع ملتك العظيمة.

بصيرة 2

﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ (البقرة: 124) من النجاح أن يحب الإنسان الخير للعالم ويبدأ بالأقربين، فهذا إبراهيم أحب أن يشاركه في المكافأة أقرب الناس إليه

بصيرة 3

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 124) بين الله له قانونا من أعظم قوانين النجاح في الاستخلاف وهو: (الفلاح والتشرف بحيازة عهد الله يكون بالاكتساب لا بالانتساب)

الفضيلة الثالثة:

تعظيم مكانته بربطه بأول بيت وضع للناس، وربط ذلك بخصائص البيت العتيق (البقرة 125-126)

الخاصية الأولى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾

أي مرجعًا يثوبون إليه أي يترددون عليه لمنافعهم الدينية والدنيوية

الخاصية الثانية:

﴿أمنًا﴾ أي مركزًا لأمنهم الحقيقي على مستوى العالم تدار منه شؤونهم، وتُعالج فيه مشكلاتهم

الخاصية الثالثة:

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ والمقام قيل موضع قدمه، وقيل كل الحرم حيث قام وحدده

الخاصية الرابعة:

﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة:125) يطهر من الأرجاس الحسية والمعنوية؛ ليكون أعظم مكانٍ تسكن فيه النفس، وتؤدى فيه العبادات المتنوعة لراحة الجسد والعقل، والاتصال بالله من طوافٍ، واعتكافٍ، وصلاةٍ

الخاصية الخامسة:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أن يتوفر فيه المدنية والأمن العام بأن يكون بلداً آمناً صالحًا للاجتماع مهما كانت المشاكل العالمية، فزاد على كونه بيتًا ذا أمنٍ أن يتوسع فيكون بلدًا آمنًا

الخاصية السادسة:

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة: 126) أن يتوفر فيه للمؤمنين الأمن الغذائي بكثرة الأرزاق؛ ليكون توفرها معجزًا مع أنه وادٍ غير ذي زرع

الخاصية السابعة:

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:126) الأرزاق الدنيوية تعم الكافر والمؤمن، لكن النعيم الأخروي لا يكون إلا للمؤمن، فكأنه جاء السؤال بعد ذكر هذه البركات: هل معنى ذلك التزكية المطلقة لأهله؟ فكان الجواب: البيت لا يقدس أحداً، ولذا يتمتع بأرزاقه المسلم كما يتمتع الكافر الذي يلقى أسوأ عقوبة في الآخرة

الفضيلة الرابعة:

بناء إبراهيم لقبلة التوحيد في الأرض (البقرة 127)

بصيرة 1 ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ (البقرة: 127) البيت وضع لمصالح البشرية، فحق لأعظم الخلق أن يتشرفوا بمباشرة بنائه، وقد جعل الله هذا الشرف لإبراهيم فرفع قواعده بيده، واختص إسماعيل من ذريته ليعينه.

بصيرة 2 من الإنصاف دقة الأوصاف عند تفاوت العمل بين المتشاركين ولو كانوا على ائتلاف، فهنا فصل بين إبراهيم وإسماعيل بقوله (القواعد من البيت) للإشارة إلى التفاوت بين عمل إبراهيم وعمل إسماعيل، وللإشارة إلى خاصية القيادة والإمامة في الخير.

بصيرة 3 بيّن الله أهداف رفع القواعد من البيت، وقد ظهر ذلك في دعاء إبراهيم وإسماعيل

الهدف الأول: قبول الله للصلة البشرية والجهد البشري ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: 127)

الهدف الثاني: الثبات على الإسلام وإعلان التوحيد ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ (البقرة: 128): والإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد والخضوع وطلب السلام في الدنيا والآخرة

الهدف الثالث: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾(البقرة:128) صلاح الذرية، وهدايتها إلى الإسلام لتنير البشرية

الهدف الرابع: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ (البقرة: 128) الاتباع لا الابتداع حيث يري الله عباده المناسك، وهي مواضع العبادة التي يرضاها لا التي يخترعونها

الهدف الخامس:

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 128) التوبة هي العودة إلى الله، والعودة من الله لعباده عندما تسحبهم أهواؤهم بعيداً عن سبيله، وأجمل ما يعين على ذلك زيارة البيت العتيق.

الهدف السادس:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ بناء البيت تهيئة لبعث رسولٍ يكون من ذرية إسماعيل لينير البشرية كلها بالعدل والإحسان ويكون الامتداد الخاتم للملة الإبراهيمية.

الهدف السابع:

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: 129) يقوم هذا الرسول بثلاث وظائف فيها سعادة الأفراد، وتقدم المجتمعات: تلاوة آيات الله التي هي كلماته المنزلة، وتعليم معاني الكتاب والحكمة وهي "السنة النبوية" التي تعني تطبيقه في الواقع، والتزكية التي تعني التطهير من الرذائل والأخطاء، وتنميتهم بالفضائل وحملهم على لزوم مسالك النهوض والرقي الحضاري.

الفضيلة الخامسة:

مبادرته للإسلام، وإعلانه أن الإسلام هو الدين الحقيقي، وتوصية ذريته بالتزامه (130-140)

بصيرة 1

دعا إبراهيم وابنه إسماعيل بأن يكونا مسلمين، وأن تكون ذريتهما أمة مسلمة، وذكر اسم الإسلام في هذا الْقِسْم ست مرات.

بصيرة 2

تارك ملة إبراهيم سفيه لئيم ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ ففيه تسفيه الأمم الثلاث المدعين لملة إبراهيم؛ لأنهم لم يرتضوا الإسلام مع أنه ملة إبراهيم، والسفه خفةٌ في العقل واضطرابٌ في التفكير.

بصيرة 3

﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ تعظيم إبراهيم، وتأكيد اصطفائه في الدارين؛ بسبب إسلامه ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: 131) فقال ﴿لرب العالمين﴾ دون أن يقول أسلمت لك ليكون قد أتى بالإسلام وبدليله كما قال ابن عرفة

بصيرة 4

الإسلام وصية إبراهيم لأبنائه، ووصية يعقوب لأبنائه، وهو الذي اصطفاه الله ديناً للخلق، وأساسه التوحيد

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: 132، 133)

بصيرة 5

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 134) هذا هو التاريخ الحقيقي الذي يبين بعض قصص إبراهيم وإسماعيل، ويذكر وصية يعقوب، وذلك يوضح أن الإسلام يعني الاستسلام العملي، وكل فرد سيحاسب على عمله لا نسبه.

القسم الثاني: الإسلام دين إبراهيم : حوار مع الأمم الثلاث (اليهود والنصارى والمشركين) ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ (البقرة135-141)

المناسبة والاتصال:

دار المحور الثالث حول التجربة الإسرائيلية في الاستخلاف في الجانب الإيجابي والسلبي، وفي هذا المحور أعادهم الله تعالى إلى الأصل الإبراهيمي، فبين حقيقة اصطفاء إبراهيم ، وحدد المكان المركزي المقدس الذي وضعه الله للناس ليكون مركز تحقيق المصالح البشرية وهو البيت العتيق، ثم أوضح طبيعة الملة الإبراهيمية المجددة للإسلام دين الأنبياء جميعاً.. هنا كان من المناسب أن يورد ما يتعصب له اليهود والنصارى من أن اليهودية أو النصرانية هما طريق الهداية الحقيقية، ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ (البقرة: 135)، فرد عليهم بصورة حاسمة لا تبقي لهم قولاً ولا تذر لهم تفكيراً مضاداً إلا أن يعاندوا ويتعصبوا

الرد الأول:

كلكم تدعون أنكم تعظمون إبراهيم -عليه السلام-، فأنا على ملته مستقيماً ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وأنتم تعرفون مكان القبلة الحقيقي في الحجاز.. فإن زعموا أن المشركين يزعمون أنهم حنفاء عندها علمنا الله الجواب الواضح ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: 135)

الرد الثاني:

في الآية (136) الملة الإبراهيمية هي الجامعة المعظمة لجميع الأنبياء، وتجمع ستة أسس:

الأساس الأول:

الإعلام والإعلان عن الإيمان ﴿قُولُوا﴾" بألسنتكم متواطئة عليها قلوبكم، وهذا البدء يدل على أنه لا انفكاك بين الدعوة والسياسية في خطاب غير المسلمين، والسياسي المسلم يتخذ من الخطاب الدعوي أحد الأدوات في التعامل مع غير المسلم.

الأساس الثاني:

تحقيق الإيمان بالله ﴿آمَنَّا بالله﴾ وجعل الفعل دالاً على الجماعة؛ حثاً على الائتلاف.

الأساس الثالث:

الإيمان بالمُنْزَل الأخير ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يشمل القرآن والسنة، ودخل فيه جميع أحكام الدين.

الأساس الرابع:

الإيمان بكل ما أنزل من قبل ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ والأسباط هم أبناء يعقوب، أو في العبارة حذف، والمعنى: أنبياء الأسباط الذين هم قبائل بني إسرائيل التي ترجع إلى أبنائه كما قال تعالى ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ (الأعراف: 160).

الأساس الخامس:

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ إنها علامة التميز الإسلامي التي تدل على أنه الحق الكامل.. لماذا نفرق بينهم، وكلهم مرسل من ربه؟، ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فالأنبياء مبلغون عن الله ليس لهم من الأمر شيء

الأساس السادس:

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ المسلمون اسم أتباع كل الأنبياء، وجعل القول مقترناً بالعمل؛ لأن المسلم خاضع، وقدم (له) ليدل على الإخلاص.

الرد الثالث:

أنتم أصل الحقيقة ومركز الصواب فيحاكم إليكم ويقارن بكم غيركم ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: 137) خطاب الاعتزاز الواثق بصحة المنهج المتبع، والقيم المسلوكة. والمشاق: هو الذي يكون في شق والله ورسوله في شق، ويلزم من ذلك المخالفة والعداوة البليغة، وبين الله للحكام ولعامة المسلمين أنه سيكفيهم قوى الشر وهو السميع لكلامهم ومؤامراتهم ومكرهم العليم بخططهم واجتماعاتهم وترسانتهم الإعلامية والعسكرية والفكرية.

الرد الرابع:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ الإسلام صبغة الله لصلاح الكون، فلا يجمل الكون إلا بهذا اللون أي الزموا صبغة الله لتحرزوا مجد الدنيا والآخرة، والصبغة الصبغ المعين المحضر لأن يصبغ به، وهذا يقتضي الاعتزاز بهذه الصبغة الإلهية المميزة، ورددوا بقلوبكم وألسنتكم وأفعالكم: نعتز بعبادته لا بعبادة غيره ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (البقرة:138)، والآية رد على تعميد اليهود والنصارى اتباعهم بصبغهم وغسلهم في أوقات محددة

الرد الخامس:

فإن أنكروا الاسم العظيم ﴿الله﴾، وزعموا أن ملتهم اليهودية أو النصرانية لا تعرفانه فأجبهم وقل لهم: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ إله الكون الذي تزعمون له من الصفات مالا يليق ثم تدّعون الاختصاص بالقرب منه، وأنكم أبناؤه وأحباؤه.. وبنيتم على هذا أن الملة الهادية هي ملة كل منكم، فمن أين جاءكم هذا القرب والاختصاص بالله دوننا ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ وَرَبُّ الْعَالَمِينَ، فَنِسْبَةُ الْجَمِيعِ إِلَيْهِ وَاحِدَةٌ: هُوَ الْخَالِقُ وَهُمُ الْمَخْلُوقُونَ، والتفاضل بالأعمال والاكتساب لا بالانتساب ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (البقرة: 139)، فالله رب العالمين مهما سميتموه، فهو ربنا وربكم، ولكل منا عمله حسب ديانته التي يظنها حقاً، ونحن له مخلصون

الرد السادس:

الرد التاريخي، عليهم ببيان كذبهم أمام الرأي العام على إبراهيم وبنيه بنسبتهم إلى الملتين ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ ففضحهم بسؤالهم متهكما بهم مبينا غباءهم﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾(البقرة: 140) أي من أخبركم بذلك؟ لا يمكن أن تعلموا ذلك إلا بالوحي من الله، فهو الذي أوحى إلى إبراهيم وبنيه قبل اليهودية والنصرانية فكيف تتبعون ما ابتدعتم؟

الرد السابع:

لماذا كتمتم الشهادة على الناس بحقيقة ملة إبراهيم، وبالبشارة بمحمد ﷺ! ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 140) والمعنى: لا يوجد أظلم عند الله ممن كتم شهادة عنده بلغته من جانب الله على لسان رسله.

الرد الثامن:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 141) فالانتساب لا يغني عن الاكتساب، فأكد على قَاعِدَةِ بِنَاءِ السَّعَادَةِ عَلَى الْعَمَلِ لا على النسب، وفيه رد على الأمم الثلاث (اليهود والنصارى والمشركين) ومن تبعهم من أمة محمد ﷺ في تقديس الناس بأنسابهم.

المناسبة والاتصال:

فنّد الله الادعاء الكاذب لليهود والنصارى بأن الهداية لا تتم إلا عبر اتباع اليهودية والنصرانية، ووجدوا أنفسهم في موقفٍ محرج للوضوح التام في طبيعة الملة الإبراهيمية الإسلامية، فيمضي السياق ليؤكد أفضلية هذه الأمة وجدارتها بإرث إبراهيم الذي قدر الله أن يعيشوا في أكناف البيت الذي رفع قواعده في منطقة الوسط من العالم، وألا حجة للمشككين في أمر الله بالتوجه إلى جهته في صلاتهم، فقال: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ (البقرة: 142)، فالقائل هم المتعصبون من الأمم الثلاث (اليهود والنصارى والمشركين).

الرد الأول:

الإخبار المستقبلي عن خلجات نفوسهم، وخفايا قلوبهم، فقال الله عنهم ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾، فلم يقل كما في الشبهة العاشرة أو ما سبقها: وقالوا، بل قال: سيقول، والأصل حمل الكلام على ظاهره، وذلك أقوى في إلجامهم، وفضح نزواتهم، وإن قال كثيرٌ من المفسرين بأن المراد الماضي، ولكن صيغة الآية وترتيبها في آيات القبلة يدل على أن المراد الإخبار المستقبلي.

الرد الثاني:

تسمية المعترض بالسفيه، وهو الضعيف العقل، فهل يعقل من يرد ما يحكم به ربه؟ ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾، وهو الذي حدد لإبراهيم عليه السلام أن يرفع البيت في هذا المكان مجدداً بناءه، والقائل هم كل من سيصدر عنه هذا القول من اليهود والنصارى والمشركين.

الرد الثالث:

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فالعبادة لرب الجهات لا للجهات، فهو الذي يحدد الأماكن التي تعظم فيها شعائره.

الرد الرابع:

﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: 142) يهدي الله من لا يعترض على حكمه إلى صراط مستقيم لا عوج فيه، فهدى الله المسلمين إلى قبلة إبراهيم عليه السلام.

الرد الخامس:

القبلة تبين وسطية الأمة الإسلامية التكليفية التشريفية المكانية (143):

أولاً:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: 143) فكما أن الكعبة وسط الأرض فهديناكم لها تجديداً لقبلة الأنبياء، فكذلك فضّلناكم بجعلكم أمة وسطًا بالتوجه للكعبة، جعل الله أمة الإسلام أمة وسطاً: مكاناً وفعلاً فهم عدولٌ أخيارٌ، ومن أسباب اختيار لفظ الوسط على لفظ الخيار؛ أنّ المسلمين وَسَطٌ بين الغلاة والجفاة.

ثانياً:

سبب الوسطية ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، فالشّاهد يكون عَارِفًا، وَمَنْ كَانَ مُتَوَسِّطًا بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَإِنَّهُ يَرَى أَحَدَهُمَا مِنْ جَانِبٍ وَثَانِيَهُمَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وهذا يقتضي القيام بتحمل تبعات الوسطية، والرسول الخاتم أعظم الخلق مقاماً، وأكملهم وسطية فهو الشهيد على الشهود: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:143)

الرد السادس:

من أسباب تغيير القبلة التحقق بالوسطية، والنجاح في اختبار الاتّباع والعبودية (وليس لاستمالة أهل الكتاب ومشركي العرب)

بعد تغير الحكم:

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾، أي ما جعلنا القبلة التي كنت عليها وهي بيت المقدس، أو التي صرت إليها وهي الكعبة إلا لنعلم علمَ إظهارٍ واقعي يوجب الجزاء: من يتبع الرسول، ومن يتردد في اتباعه فيكون ممن انقلب على عقبيه، فالتغيير الإلهي للحكم كالتغيير في الأنبياء يجعله السفهاء اضطراباً وتناقضاً وشبهة، وليس التغيير الإلهي في الحكم مسألة كبيرة عند المهتدين ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ لأنهم يسلمون لله في أحكامه، ومثال ذلك تحريم إسرائيل على نفسه بعض الأطعمة بعد أن كانت حلالاً

قبل تغير الحكم:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾، فتغير الحكم لا يعني إهدار الجهود التي بذلها المهتدون في اتباع أمر الله، فالله لن يضيع إيمانهم، حيث نزلت هذه الآية فيمن صلى إلى القبلة الأولى، وهي بلفظها تشمل المتبعين بعد تغير الحكم وعظم أجرهم

الرد السابع:

أحكام الشريعة تحقق الرأفة التامة، والرحمة العامة بالبشرية ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فالرأفة هي أعظم الرحمة في دفع الألم، والرحمة أعم، فتشمل الإحسان وجلب النعم، ومن هذه الأحكام الشرعية: تغير القبلة، واتصاف الأمة بالوسطية التي لا تظهر علامتها إلا في التبعية للأحكام الشرعية، وبذل الجهود وتحقيق المنجزات من خلال الأعمال الصالحة التي يقوم بها الناس.

القسم الرابع: إعادة القبلة إلى موضعها الأصلي من براهين النبوة (144-148)

المناسبة والاتصال:

بيّن الله في القسم الثالث وراثة الأمة الإسلامية للملة الإبراهيمية، وتجديدها للدين الذي دعا إليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وإسرائيل والأسباط عليهم السلام، وهو الإسلام، وأنها الأمة الوسط مكاناً وحالاً بين الغلاة والجفاة، وهنا بيّن هذه الوسطية من الناحية الحسية بتوجيه المسلمين إلى القبلة الأصلية التي جعلها الله قياماً للناس، لتكون بداية إتمام المجد الحضاري للأمة المسلمة

بصيرة 1

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ نظر النبي ﷺ في السماء يدل على تفكيره في أصل القبلة في الملة الإبراهيمية، وأُمر النبي ﷺ بالتوجه إلى بيت المقدس من قبل بصورةٍ مؤقتة للاختبار

بصيرة 2

إجابة الشوق المحمدي بالغيث الإلهي ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة: 144) لقد أعيدت القبلة إلى موضعها الأصلي، ومحبة النبي ﷺ لذلك الموضع من التوفيق الإلهي له، مع طاعته ربه في التوجه إلى بيت المقدس من قبل دون تردد أو مراجعة كما وُجد عند أصحاب البقرة

بصيرة 3

توجد معرفةٌ كتابيةٌ سابقةٌ بالقبلة الأصلية، فرجوع القبلة إلى الكعبة قضيةٌ يعرفها أهل الكتاب، وتدل على صدق نبوة الرسول ﷺ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: 144)

بصيرة 4

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 144) تظل الأمم الثلاث (أهل الكتاب والمشركون) تحت الرقابة الإلهية على الأعمال التي يقومون بها، والقراءة بالياء ﴿يعملون﴾ إشارة إلى أهل الكتاب، والقراءة بالتاء ﴿تعملون﴾ أي هو ورقيب على أعمالكم أيضاً، فانظروا ولا تزكوا أنفسكم كما فعل أهل الكتاب

بصيرة 5

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ (البقرة: 145) تحول القبلة آية جديدة لأهل الكتاب على نبوتك لكن المتعصبين منهم سيبقون على الجحود لكل آيةٍ تظهر صدق نبوتك مهما ظننت أنك يمكن أن تقنعهم فإنهم لن يتبعوك ولو أتيتهم بجميع الآيات.

بصيرة 6

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ (البقرة: 145) ستظلون أمماً ثلاثًا يصر كل منكم على ما يعتقده حقاً، وتظل تلك الأمم الثلاث (اليهود والنصارى والمسلمون) متفاعلة فيما بينها

بصيرة 7

﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ على الرغم من اجتماع أهل الكتاب عليكم إلا أنهم سيظلون متربصين ببعضهم.

بصيرة 8

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 145)

لا تضيع وقتك، وتفني طاقتك في إقناعهم، واحذر من اتباع شيء من الأهواء الكتابية المنافية للمبادئ التي جاء بها العلم القرآني؛ فإنه يترتب على اتباع أهوائهم أن تكون مشاركاً في إيقاع الظلم المحلي والعالمي، وهذا يعني الاعتزاز بالعلم الحقيقي، والمعلومات التاريخية والعقيدية الصادقة مما تميز به المسلمون مع التحذير من الاختراق في العلاقات السياسة والثقافية مع أهل الكتاب، وجعل التحذير موجهاً إلى القيادة النبوية لرفع مستوى الحذر عند المسلمين

بصيرة 9 ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 146) المعرفة الكتابية بالحق الإسلامي مؤكدة، فيعرف الحقائق المذكورة ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي علماؤهم الراسخون، ولكن الفريق المسيطر هو الفريق الكاتم المعاند

بصيرة 10 ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (البقرة: 147) هذه حقيقة عامة، فترك العلماء للحق لا يعني الشك والتردد فيه، أو الخوض فيه بكثرة الجدال الذي لا ينتج شيئاً.. فأعظم مصادر الحق هو المصدر الإلهي ثق بالحق الذي جاءك.

بصيرة 11 ترشيد التعامل مع الخلاف ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ الاختلاف باقٍ بين الأمم الثلاث (اليهود والنصارى والمسلمين)، فليبق كل واحد على اختياره –إن شاء– في القبلة التي ولى وجهه إليها، وهذا على قراءة الجمهور ﴿مُوَلِّيهَا﴾، وتبصرنا قراءة ابن عامر ﴿مولاها﴾ بمعنيين:

الأول: قدري

أي الله قدر وجود هذا الاختلاف

والثاني: شرعي

أي لكل أمة وجهة يرشدها إليها علماؤها، وهم مأجورون على إرشاد العامة إلى الحق، وآثمون مدانون على إبعادهم عنه.

بصيرة 12 اجعلوا الخلاف سببا للتنافس الشريف لا للتخريب والقتل والتخويف ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وجودُ الاختلاف بينكم لا يعني الانشغالَ بإقناع المخالف أو قتاله بل يعني استباق الخيرات التي تنمي الحياة، وتصلح المجتمعات حتى يتم الحكم في يوم الفصل.

بصيرة 13

مبدأ التهديد بالحشر يوم الوعيد ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: 148)، أيها المسلمون والكتابيون: عدم إفشاء الحقائق الكبرى للعالم عن الدين الحق تلاعبٌ بمصائر الأمم، فلا تظنوا أن الله عاجز حاشاه جل في علاه عن جمعكم يوم الجزاء الأكبر، فقدرته مطلقة.

القسم الخامس: إعادة القبلة بداية إتمام المجد الحضاري الإسلامي (البقرة 149-150)

أُمِر النبي ﷺ مجدداً بالتوجه إلى القبلة؛ لأن ذلك التوجه علامة على تحقيق خمسة إنجازات على المستوى العالمي:

الإنجاز الأول:

اقتران الحضارة الإسلامية بالحق ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة:149)، والآية تدل على وجوب الثبات على قبلة الإسلام ولو في السفر

الإنجاز الثاني:

إقامة الحجة على الناس: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ فالتوجه إلى القبلة لأنها إرث إبراهيم، وليعلم المتأخرون أن الكعبة مركز للمعمورة

الإنجاز الثالث:

كشف الظالمين الذين يفسدون في الأرض، والاستعداد للتعامل معهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ (البقرة: 150) فالمنصف منهم يوافقكم ديناً أو رأياً، وأما الظالمون فيكابرون ويحاربونكم، ولا يتبعون الحجج العلمية بل يعمدون إلى إرهاب الناس بالقوة، فلا تخشوهم واخشوا الله

الإنجاز الرابع:

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بدء مرحلة إتمام النعمة ببناء مجدكم الحضاري الدنيوي، فاستقبال الكعبة خطوة متقدمة لتحرير مكة من الاحتلال الوثني، ومن تمام النعمة المجد الأخروي بدخول الجنة والفوز من النار

الإنجاز الخامس:

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: 150) الاتجاه الحسي في القبلة من أسباب الهداية القلبية والعقلية

القسم السادس: الوسائل المعينة على تحقيق إتمام النعمة بعد إعادة القبلة (البقرة 151-158)

الوسيلة الأولى:

القيام الفعال بالوظائف الرسالية الأربع، فإتمام النعمة مرتبطٌ بها؛ إذ هي أصل النعمة، وينبثق عن التركيز عليها إعلاء المجد الإسلامي الديني والحضاري، والوظائف الأربع هي:

الوظيفة الأولى:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ (البقرة: 151) الوظيفة اللفظية التلقينية، فيتم المحافظة على الهوية الإسلامية بتلاوته، وتستجلب خيرات الدنيا والآخرة، ولا يتعرض للتحريف بسبب التلاوة الدائمة

الوظيفة الثانية:

﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ الوظيفة النفسية العقلية القلبية بالتطهير من الأدران، والتنمية بالصالحات والإحسان

الوظيفة الثالثة:

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الوظيفة العقلية التعليمية، والحكمة السنة و"التعاليم المانعة من الوقوع في الخطأ والفساد".

الوظيفة الرابعة:

﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 151) من الشؤون المحلية والعالمية، المرتبطة بالاستكشافات التطويرية للحياة.

الوسيلة الثانية:

الذكر ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ إنه إعلان اللسان بالمحبة المنغرسة لله في نواحي الجَنان.

الوسيلة الثالثة:

﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (152) والشكر يقيد من النعمة الموجود، ويجلب من النصرة المفقود

الوسيلة الرابعة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ فهو معيار الديمومة والبناء في الأعمال، ولذا ذكره في سبعين آية ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: 153)

الوسيلة الخامسة:

﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ تتضاءل الدنيا وأهوالها بالصلاة، ويكبر بالمناجاة الأنس بالله عَزّ وَجَلّ، وقرن الصبر بالصلاة؛ لأن الصلاة سعادة الدنيا وأساس نجاح الآخرة، ولأن أول التدرب على الصبر يكون في الصلاة، فلا يجد حلاوتها إلا الصابر على إقامتها

الوسيلة السادسة:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ حماية اللغة الإعلامية من التلاعب المدمر للمعاني والنفوس، فنهى عن وصف الحقائق بخطاب إعلامي خاطئ

الوسيلة السابعة:

الثبات والتضحية في سبيل المبادئ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: 154) فذكر أعظم العبادات مشقة مما يستحق الصبر في بدايته وأثنائه وعند ظهور نتائجه وهو الجهاد في سبيل الله

الوسيلة الثامنة:

الإدراك الواعي لاقتضاء طريق إتمام النعمة أنواعا من الشدائد واللأواء، فلما ذكر إتمام النعمة بيّن بعدها أنها لا تأتي على فرش من حرير بل لا بد من الابتلاء ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ (البقرة: 155) وهذه الأنواع العامة هي:

01 النوع الأول: الخوف (فقدان الأمن العام)

02 النوع الثاني: الجوع (فقدان الأمن الغذائي)

03 النوع الثالث: ذهاب المكتسبات والمنجزات والقوة العددية (نقص الأموال والأنفس والثمرات)

الوسيلة التاسعة:

إدراك طبيعة الطريق يقتضي الصبر عليه وتحمل تبعاته وتواطؤ لسان الحال والمقال عليه: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: 156)

بالصبر:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي الصابرين صبرًا إيجابيًا يطبق صاحبه أمر الله، ويتحمل التبعات، فيكون صابراً، ثم ترسخ ملكة الصبر عنده حتى يكون صباراً، وصبوراً، ولا تواجه الشدائد بالصبر السلبي الذي يخضع لضغوط المعتدين، ويتهرب من تطبيق أمر الله، فالصابرون يستحقون التبشير على لسان الرسول ﷺ تكريما لشأنه، وزيادة في تعلق المؤمنين به، ولأنه المثل الأعلى في الصبر

بتوافق لسان الحال والمقال على الصبر:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: 156)

الوسيلة العاشرة:

استمداد الثبات والصبر على شدائد البلاء من ذكرى هاجر عليها السلام:

بصيرة 1 ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من شعائر الله: أي أن الله جعلهما علامتين على عبادة عظيمة تذكركم بأنموذج هاجر عليها السلام التي قالت عن الله: إذن لا يضيعنا، وبيّن معه معنى الصبر الإيجابي الذي يقترن بفعل الخير الشرعي حسب الاستطاعة

بصيرة 2 التعبير بِنَفْيِ الْجُنَاحِ الّذي يَصْدُقُ بِالْمُبَاحِ ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة: 158) وهنا إِشَارَةٌ إِلَى تَخْطِئَةِ الْمُشْرِكِينَ الّذِينَ كَانُوا يُنْكِرُونَ كَوْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مِنَ الشَّعَائِرِ، ولرفع الحرج عن المسلمين من الأنصار الذين كانوا يهلون عندهما لمناة الطاغية، وقيد السعي بالحج والعمرة فلا يجوز مفرداً.

بصيرة 3 ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 158) من فعل خيرًا لنفسه أو للإنسانية من حج وعمرة، وفعل للخيرات فإن الله شاكر يعطي الكثير الجزيل على اليسير القليل، وهو عليم بالطاعة وما فيها من إخلاص ومتابعة واتقان، وقيد التطوع بالخير ليخرج من تطوع بالبدع: أصلاً أو صفة.

بصيرة 4 ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ جعل هذه الجملة بعد الكلام على السعي إعلاماً للناس بإعلاء شأن هاجر عليها السلام بتذكرها في السعي لأنها فعلت ذلك الخير، وكذلك يشكر الله من يقوم بأي خير

المحور الخامس

أعظم الحقائق الكونية التي يجب تبيينها للعالم، حقيقة التوحيد المقترنة بالرحمة وموانع اقتناعها

(البقرة159-171)

المحور الخامس:

أعظم الحقائق الكونية التي يجب تبيينها للعالم:
حقيقة التوحيد المقترنة بالرحمة، وموانع اعتناقها [البقرة 159-171]

المناسبة والاتصال:

الصلة بين المحور الرابع والخامس واضحة فقد ذكر الله في المحور الخامس أعظم الحقائق التي يجب بيانها على الأمة الوارثة للملة الإبراهيمية؛ لأن الأمتين السابقيتين أخفقتا في توضيحها للعالم، وبين الله أن أهل الكتاب يعرفون ذلك حق المعرفة ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: 144)، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 146)، فأعاد التذكير بأعظم الحقائق الكونية التي يجب على الأمة الخاتمة أن تبينها على المستوى العالمي، وهي حقيقة وحدانية الألوهية لله المقترنة بالرحمة للبشرية، ويجيب على السؤال الذي يضع نفسه: لماذا لا يتبع أهل الكتاب الحق الذين يعرفونه؟؟ هنا يكشف الله الموانع التي يمكن أن تحول بين الإنسان وبين اتباع الحقائق لتعلم البشرية كيفية التعامل معها

أعظم الحقائق الكونية: حقيقة توحيد الله في ألوهيته واقترانها بالرحمة ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة 163)

هناك خمسة موانع تمنع الناس من اعتناق هذه الحقيقة وإظهارها

المانع الأول:

كتمان القيادات العلمية الفاسدة للبينات والهدى (البقرة162-159)، وبعد أن بين هذا المانع الخطير شرع في التذكير بأعظم حقائق الكون، وهي حقيقة التوحيد والرحمة وبعض براهينهما الواضحة (البقرة163-164)، وذلك لأنها الحقيقة التي يجب أن يجتمع على بيانها أهل الكتب الثلاثة

المانع الثاني :

اتباع القيادات الإدارية الفاسدة وسيطرة المصالح الزائفة (البقرة165-167)

المانع الثالث :

الخوف المعيشي مما يجعل المرء يأكل الحرام الخبيث، ويضحي بالمبادئ (البقرة168)

المانع الرابع :

اتباع الخطوات الشيطانية (البقرة168-169)

المانع الخامس :

التبعية المتعصبة للتقاليد والآباء (البقرة170-171)

المانع الأول:

كتمان القيادات العلمية الفاسدة للبينات والهدى (البقرة159-162)، وبعد أن بين هذا المانع الخطير شرع في التذكير بأعظم حقائق الكون، وهي حقيقة التوحيد والرحمة وبعض براهينهما الواضحة (البقرة163-164)، وذلك لأنها الحقيقة التي يجب أن يجتمع على بيانها أهل الكتب الثلاثة

بصيرة 1

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ ارتكبت هذه القيادات العلمية الفاسدة جريمة الكتمان للبينات والهدى:

فالبينات

هي الآيات الواضحات المنصوص عليها كحقيقة التوحيد، والمعرفة بالنبي ﷺ

والهدى

هو المستنبط من المنصوص من كل ما يدل العباد إلى الأرشد في حياتهم كالحدود الاقتصادية والقضائية والإدارية، ويفيد العطف أن البينات يجب أن تكون هدى فيخرج من ذلك ما يمنع من ذكره للبعض كتحديث الظالم بمسائل يستغلها في غير موضعها

بصيرة 2

الناس محور الخطاب ومركز الاهتمام فيجب الوصول إليهم قبل التضليل عليهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ فـ ﴿لِلنَّاسِ﴾ اللام للتعليل أي بيناه في الكتاب لأجل الناس أي أردنا إعلانه وإشاعته، وفي هذا زيادة تشنيع عليهم فكتموا الحق، واعتدوا على مستحقه، ففعلهم هذا تضليل وظلم.

بصيرة 3

قسم الله الناس بالنسبة لجريمة كتمان الحقائق إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

الكاتمون من القيادات العلمية والإدارية الفاسدة فذكر عقوبتهم: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة؛ لأنهم غشوا العالم كله، وأبعدوهم عن رحمة الله التي تصلح لهم الحياتين: الأولى والأخرى. فهل هذا يعني عدم التوبة عليهم؟ هنا يأتي القسم الثاني

القسم الثاني:

التائبون من الكاتمين ﴿إِلَّا الَّذِينَ تابوا﴾، فيتوب الله عليهم بثلاثة شروط:

﴿تَابُوا﴾ التوبة بأن يترك الذنب على أجمل الوجوه وهو بأن يقول: أذنبت وأسأت وقد أقلعت، ولا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن لذا قال: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ الإصلاح بأن أزالوا الفساد العلمي والعملي الذي سببوه، ﴿وَبَيَّنُوا﴾ التبيين لما كتموه، وعندها يجدون النتيجة: ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾

القسم الثالث:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، ذكر هنا الكافر الذي يغطي الحقائق سواء أكان من القيادات العلمية الكاتمة الفاسدة أم كان من المقلدين لهم.. ويبقى على ذلك حتى موته دون توبة.

بصيرة 4

﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تشويق الجميع للتوبة إلى الله بتحببه وتحبيبه إليهم، فعلى الرغم من جريمة كتمان الحقائق إلا أنه وصف نفسه بصفتين عظيمتين: التواب: أي كثير التوبة مما يدل على كثرة معاصيهم، وكثرة رجوعهم، وعدم رده لهم في كل مرة فهم يتوبون أي يرجعون فيجدونه تواباً عليهم رجاع غير معرض عنهم، والرحيم بهم بعد انصرافهم ثم عودتهم فيحبوهم ويعطيهم

بصيرة 5

هناك أربع عقوبات للكافر الذي مات على تغطيته للحقائق سواء أكان من القيادات أم كان من المقلدين ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (البقرة: 161، 162):

العقوبة الأولى:

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لعنة الله تجمع الطرد من رحمته والبغض لهم، ولعنة الملائكة والناس قولهم: لعنه الله، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، ويدخل في اللاعنين الكفار فيلعن بعضهم بعضاً حيث تتقطع العلاقات وتزداد الحسرات.

العقوبة الثانية:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة وما تقتضيه من الخلود في جهنم حيث لا تدركهم رحمة الله.

العقوبة الثالثة:

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾، مع كونهم في العذاب جاءت هذه الآية لتؤكد استمرار العذاب الأليم دون تخفيف.

العقوبة الرابعة:

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ من الإنظار أي الإمهال ليَعْتَذِرُوا أو يتوبوا، أو من النظر أي لا يُنظَرُ إليهم نظر رحمة.

بصيرة 6

الكتمان للبينات والهدى يكون بأربعة أمور

بإلغاء التبليغ العام، وهذا يعني الإخفاء ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ (الأنعام: 91).

بإلغاء الحفظ والتعليم، ﴿لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾

بالتبديل ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم﴾

بتغيير التأويل ليكون بعيداً عن المراد الإلهي، ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾

بصيرة 7

الكفر تغطية للحقائق، وأعظم الإجرام والظلم أن يغطي الإنسان حقيقة وجوده في هذه الحياة، ولذا قال الله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: 254)

بصيرة 8

سبب تقديم المانع الأول على حقيقة التوحيد والرحمة: لأن الله ذكر في الآية (146) وما قبلها معرفة أهل الكتاب بحقيقة التوحيد والرسالة كما يعرفون أبناءهم فبين هنا جريمتهم متصلة بذلك، ولأن جريمة الكتمان من العلماء والأحبار هي أم الجرائم الأخرى، فالممتنعون من الحق بسببها هم الأكثر عدداً؛ لشدة الشبهة التي يضعها الأحبار والعلماء أمامهم مما يمنعهم من اتباع الحق المبين

أعظم الحقائق الكونية:

حقيقة توحيد الله في ألوهيته واقترانها بالرحمة ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة 163)

المناسبة والاتصال:

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 163) لمّا ذكر الله عقوبة الكاتمين والمقلدين لهم ممن مات على الكفر ذكّر بأهم الحقائق التي يجب ألا تنساها البشرية وهي حقيقة التوحيد المقترنة بالرحمة، وهي الحقيقة التي يعمل الكاتمون والكافرون على تغطيتها، ثم بيّن بعض الآيات والبراهين المادية المنظورة على ذلك.

بصيرة 1 ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 163) تدل على أعظم حقائق الكون، حقيقة الوحدانية في الألوهية المقترنة بالرحمة، فوصف نفسه بأربع صفات:

1. إلهٌ واحد أي لا نَظير له وَلا شَبيه في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.
2. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ: تقتضي نفي ألوهية كل ما عداه من البشر والحجر والمخلوقات، ويجب النطق بهذه الشهادة لبيان كمال واحديته
3. الرَّحْمَنُ رحمة عامة بالخلق أو المنعم بعظائم النعم
4. الرَّحِيمُ رحمة خاصة بالمؤمنين أو المنعم بدقائق النعم

بصيرة 2 ذكر صفتي ﴿الرحمن الرحيم﴾؛ لأن ذكر الإلهية الفردانية يفيد القهر والعلو فعقبهما بذكر الرحمة ترويحا للقلوب عن هيبة الإلهية، وعزة الفردانية وإشعارا بأن رحمته سبقت غضبه وأنه ما خلق الخلق إلا للرحمة والإحسان

بصيرة 3

من أهم الأدلة المادية المحسوسة التي تدل على حقيقة التوحيد المقترن بالرحمة مما لا يمكن أن ينازع فيه من يدعو مع الله إلهاً آخر (البقرة: 164)

المناسبة والاتصال:

بعد شهادة التوحيد كأنه قيل فما أهم صفاته سبحانه؟ قال الله: الرحمن الرحيم، قيل فما أدلة وحدانيته ورحمته؟ فذكر الله لهم سبع آيات معجزات مادية محسوسة يدركها العقل لا يمكن لمخلوق أن يدعي القدرة عليها تتلخص في أن الله: خلق الكون، ونظم حركته، وملكه فسخره بأمره لتحقيق رحمته

الدليل الأول:

1 ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خلق الكون المعلوم عندنا، فبدأ بالأعظم خلقاً.. حيث بين أنه خلق ما يعبده الدهريون والملحدون.. فلماذا عن خالقهم يهربون؟

الدليل الثاني:

2 ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ حالات الكون في التعاقب المنتظم بين الليل والنهار

الدليل الثالث:

3 ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ ذكرها بعد اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لأَنَّ الْمُسَافِرِينَ يحتاجون إلى معرفة الزمن الذي يعبر عنه اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ حديثاً وقديماً كما قَالَ تَعَالَى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الأنعام: 97)

الدليل الرابع:

4 ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الماء مادة الحياة الأرضية

الدليل الخامس:

5 ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ البث النشر، فخص ذكر الدواب بالنشر؛ لأنها خلقت من ماء، وهي من أبرز المخلوقات المعقدة

الدليل السادس:

6 ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ بيانٌ للقوة التي تسوق الماء، وتحرك الأشياء؟

الدليل السابع:

7 ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ذكرها بعد الرياح؛ لأن الرياح هي التي تثير السحاب

بصيرة 4

﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 164) القرآن يخاطب العقلاء، وحقيقة الكفر ضعف في العقل وسخف في التفكير، فالكافرون (بشقّيهم الملحد والمنكر) أقرب إلى أن يكونوا متخلفين عقلياً، وعندما تفكر في الفساد الذي يحدثه الفاسدون من قياداتهم تظن أن هذا أقرب وصفٍ لهم: التخلف العقلي، والجنون المدمر.

المانع الثاني:

اتباع القيادات الإدارية الفاسدة وسيطرة المصالح الزائفة (البقرة: 165-167)

المناسبة والاتصال

ذكر أعظم الحقائق الكونية، وأدلتها، وأشار إلى أن غير العقلاء هم الذين لا يعتنقونها.. هنا بيّن سبحانه مانعاً غير عقلي هو مانع الاستكبار الذي يسببه المنصب أو الجاه، وهو يختلط بمانع التبعية الراهبة أو الراغبة بسبب المصالح الزائفة

بصيرة 1

لما قال الله ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ انقسم الناس أمام تلك الأدلة والبراهين إلى صنفين:

الصنف الأول:

الظالم الذي يصر على تغييب عقله، فبدلاً من تحكيم العقل واعتناق أعظم الحقائق ومحبة الرحيم القادر المنعم الذي هيأ كل تلك المخلوقات للإنسان يتخذ الأنداد من دون الله يحبها كحب الله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، وهؤلاء الظَلَمة قسمان: مَتْبُوعون مُستكبِرون، وأتباع همج خائفون.

الصنف الثاني:

عاقل يجره عقله إلى الإيمان، ولأن يكون أشد حباً لله الذي بث رحمته في الكون ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة: 165)

بصيرة 2

الْأَنْدَاد نوعان:

- نوعٌ يسبب شرك العبادة

وفيه يُعْتَمَدُ عَلَى غير الله فِي دَفْعِ الْمَضَارِّ وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ مِنْ طَرِيقِ السُّلْطَةِ الْغَيْبِيَّةِ لَا مِنْ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ الشرعية والوضعية

- ونوعٌ يسبب شرك الطاعة والتشريع

وفيه يلجأ العبدُ إلى غير حكم الله في التشريعات التي تحلل وتحرم دون دليل، فالأنداد قد يكونون:

معبودات حجرية

معبودات بشرية

من يحكم بغير ما أنزل الله من علماء وحكام. العامة والجماهير عندما يُخاف منهم أن يُذْكَرَ لهم شيء تضيع معه الرئاسة

بصيرة 3

﴿يتخذ من دون الله أنداداً﴾ الاتخاذ يدل على مقدار الجهل والإجرام والظلم؛ إذ لا يوجد ند لكنهم اتخذوه من عند أنفسهم كما يتخذون ويقتنون المتاع

عقوبات الظلمة الفاسدين من المتبوعين والأتباع

العقوبة الأولى: الرعب عند معاينة العذاب وذهاب قوة الأتباع والمتبوعين، ويدل على ذلك قراءة الغيب: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾(البقرة:165)، أي لو يرون ما سيحدث لهم إذ يرون العذاب، وعلى قراءة الخطاب ﴿ترى﴾ تجد التطمين للمؤمن الثابت المظلوم في الدنيا بأن الانتقام له من ظالميه سيشفي صدره.

العقوبة الثانية:
يزداد فزعهم عندما يتيقنون بحقيقة أن القوة لله لا لهم ولا للأنداد ولا للمتبوعين: فلا اختيار لهم ولا لغيرهم كما كان في الدنيا ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(البقرة:165).

العقوبة الثالثة: ظهور آثار صفة العدل في الآخرة بالتعذيب الإلهي الذي لا يقارن بالعذاب الدنيوي ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (البقرة: 165) فيظهر للمؤمن المظلوم والتابع الفاسد ضعف العذاب الدنيوي الذي أرهب به السادة الفاسدون أهل الدنيا، فالمؤمن المظلوم يعلم أن ما تعرض له من العذاب الدنيوي لم يكن شيئًا، والتابع الفاسد يعلم أن ما خافه من البطش الدنيوي لأسياده هو أسوأ قرار اتخذه.

العقوبة الرابعة: تقطع الروابط بين الفاسدين من الأتباع والمتبوعين ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة: 166) شبه المصالح الّتي بين الرُّؤَسَاء والْمَرْؤوسِينَ، بالأَسْبَاب وَهِيَ الْحِبَالُ، والباء بمعنى (عن) كقوله تعالى: ﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ (الفرقان: 59) أي عنه، وإنما أتى بالباء ليبين أنهم هم من يقطعها فهم أدوات تقطيعها لشدة لوم بعضهم بعضاً، أو كانوا فوق مركبها فسقطوا بعد تقطعها.

العقوبة الخامسة: انبعاث صيحات الندم والحسرة، والألم على القرارات المصيرية الخاطئة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾، والحسرة أشد الندم لما تركوا من الصالحات وما فعلوا من القبيحات

العقوبة السادسة: الخلود في النار ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: 167)، وذكر هذه العقوبة جواباً على تساؤل محتمل، وهو: هل صيحات الألم والندم يمكن أن تجعل رحمة الرحمن الرحيم تعمهم؟ فأجاب عن ذلك بهذا.

المانع الثالث:

الخوف المعيشي مما يجعل المرء يأكل الحرام الخبيث، ويضحي بالمبادئ (البقرة168)

المناسبة والاتصال

قدم الله العقوبة للظلمة تابعين ومتبوعين تخويفاً من المستقبل الحقيقي بدلاً من المستقبل المتوهم الذي لأجله ضحوا بحب الله مقابل محبة الأنداد، وهنا ذكر الرزق والإحسان كأنه يَتَأَلَّفُهم، وليحذر من شرك الطاعة هنا بسبب الرزق كما حذر من شرك العبادة في المانع السابق بسبب الجاه أو التبعية.

بصيرة 1 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ شرع الله للناس أن يأكلوا مما في الأرض بشرطين:

الشرط الأول:

أن يكون ﴿حَلَالًا﴾ فهذا الشرط لحماية الأديان، وضده (المحرم لغيره) كالغصب أو السرقة أو ما يعطيه الأسياد مقابل الضلال.

الشرط الثاني:

أن يكون ﴿طَيِّبًا﴾ لحماية الأبدان، ويقابله (المحرم لذاته) وهو النجس كالميتة والخنزير.

بصيرة 2 شرع الله للناس أن يأكلوا الجيد المستلذ المستملح في طبيعته، ولا يحملهم حب الزهد على أن يأكلوا الرديء طبيعة، وهذه البصيرة نستنبطها من قوله ﴿طيباً﴾ فإن له معنى ثانياً، وهو مقابل الرديء، فالنجس حرام، والرديء مكروه أو ممنوع حسب رداءته.

بصيرة 3

إن في واسع ما بثه الله من الرزق الحلال الطيب في الأرض غنية لكم ومقنع عن أن ترتهنوا للقيادات الفاسدة خوفا على رزقكم وقوام عيشكم.

المانع الرابع:

اتباع الخطوات الشيطانية (البقرة 168-169)

بصيرة 1

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ الشيطان هو العدو المبين الأكبر حيث يتبعه أسياد الضلال فيتبعهم العامة، ويجب بيان عداوته إعلامياً وثقافياً، والخُطُوات بضمتين: جَمْعُ خُطْوَةٍ بالضَّمِّ وَهِيَ مَا بَيْنَ الْقَدَمَيْنِ - وَبِفَتْحَتَيْنِ جَمْعُ خَطْوَةٍ وَهِيَ الْمَرَّةُ مِنْ خَطَا يَخْطُو فِي مَشْيِهِ، أي لَا تَتَّبِعُوا آثاره كأنكم تمشون خلفه في كل حركاته، وهو تصويرٌ يستبشع الإنسان أن يقع فيه عند تصوره.

بصيرة 2

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ تعبير تصويري رائع يدل على ضرورة محاربة أهواء النفس، فهي التي تسير خلف الشيطان دون وازع، فإن ردع الإنسان نفسه وكبحها وصدها عن ذلك غلبها.

بصيرة 3

الخطوات الشيطانية تؤدي بأتباع الشيطان ومتبوعيهم إلى ارتكاب أصول الأوامر الشيطانية الثلاثة ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 169)

وهذه الأصول الثلاثة هي:

1 الأصل الشيطاني الأول: السوء، وهو ما يسوء الإنسان أن يراه غيره، وقيل ما لا حد فيه

2 الأصل الشيطاني الثاني: الفحشاء، وهو ما استُفحش ذكرُه، وقَبُح مَسموعه، وقيل ما فيه حد

3 الأصل الشيطاني الثالث: القول على الله بلا علم، ويبدأ بالكذب والبدعة ويصل إلى اتخاذ الأنداد في العبادة والطاعة والحاكمية

المانع الخامس:

التبعية المتعصبة للتقاليد والآباء (البقرة 170-171)

بصيرة 1

يمنع من اتباع الحق التعصبُ للتقاليد والأعراف سواء أكانت محلية أم دولية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الذين يغطون الحقائق: اتبعوا ما أنزل الله من الحقائق استكبروا عن الإذعان للحقّ وقالوا: بل نتبع العادات والتقاليد التي رأينا آباءنا يألفونها، فالعنصرية بتبعية الآباء التي هي كتبعية الأسياد تمنع من اتباع الحق.

بصيرة 2

يخاطب المتعصبون بالأساليب المتعددة التي تقيم الحجة عليهم، وتنبه من يتأثر بهم، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾، فلَمْ يُخَاطِبهم هنا مباشرة بل أتى بصيغة ﴿قيل﴾ ليلهب المؤمنين ليحشدوا من ينصحهم من الناصحين، ومن المؤثرين عليهم، وليواسي الناصحين عندما يعرض المتعصبون عنهم، فأنْزَلَهُمْ مَنْزِلَةَ مَنْ لَا يَفْهَمُ الْخِطَابَ لأن التعصب يعمي الأبصار، وهكذا حكى للقارئ حالهم البعيد عن معرفة الحق واكتشاف الحقيقية.

بصيرة 3

عالج القرآن هذه العصبية بأمرين:

الأمر الأول:

بحثهم على إعلاء شأن العقل، والتفكير الراشد باحتمال ضلال الآباء في التشريع كحالهم في الأمور الدنيوية: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، فهذا حوار منطقي يفتح العقل ويهدي للأفضل أي ربما كان آباؤهم لا عقل عندهم يُفهمهم أفضل النظم التي ينبغي أن يحيوا بها، وربما كانوا لا يهتدون برأي الخبراء والعقلاء وفي مقدمتهم الأنبياء، فهل يظنون أن تقاليدهم المحلية والدولية وحي نزل على من كتبها؟

الأمر الثاني:

ببيان الصورة المَرَضية للتبعية غير العاقلة، فالتبعية للتقاليد الباطلة تجعل الإنسان أسوأ من الحيوان الذي يبحث عما ينفعه ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ (البقرة: 171)

بَصِيرَة 4

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

تبصرنا بأن الإسلام دين العقل، ولذا يوجب استكشاف السنن الدنيوية من أجل البحث عن سبل تطور البشرية، فالمتعصبون "صُمٌّ" عن الحق فهم لا يسمعون سماع فهم ووعي وانتفاع، "بُكمٌ" أي خُرسٌ عن أن يقولوا الحقّ والصواب، "عُميٌ" لَا يَنْظُرُونَ فِي آيَاتِ اللهِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي الْآفَاقِ فلا يَتَبَيَّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، فيضلون عن الهدى وطريق الحق فلا يبصرونه، فيَنْقَادُونَ لِغَيْرِهِمْ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْحَيَوَانِ، والعقل الذي تشير له الآية وله في الإسلام منزلة هو عقل الرشد أو المكتسب (المسموع) لا المطبوع؛ لأن العقل المطبوع كان حاصلا لهم فالعقل عقلان: مطبوع ومسموع (مكتسب)، وطريق تحصيل العقل المكتسب هو الاستعانة بهذه القوى الثلاث (السمع، والكلام، والنظر، وهي المقابلة لقوله ﴿صم بكم عمي﴾)، فلما أعرضوا عنها فقدوا العقل المكتسب

المحور السادس

النظم التشريعية الفقهية الحياتية وآثارها (القسط الأول)

(البقرة 172-207)

المحور السادس:

النظم التشريعية الفقهية الحياتية وآثارها (القسط الأول)

[البقرة: 172-207]

المناسبة والاتصال:

هذا المحور يبين حقائق تشريعية تدل على رحمة الله بعباده فلماذا لا تتبع؟ وذلك بعد أن بين الله في المحور السابق تلازم مبدأ الوحدانية لمبدأ الرحمة في صفاته سبحانه، فأنت ترى السورة بدأت بتقرير المبادئ الفكرية النظرية التي تحتاجها البشرية، فذكر الله الكتاب الذي يهدي العالم للإدارة الحياتية السليمة، وبيان أهم ما يدعو إليه الكتاب، وهو النظام العبادي القائم على الإيمان بالله الموصل إلى التقوى التي تعني وضع وقاية وحماية بين الإنسان وبين العواقب السيئة في الدنيا والآخرة. ثم ذكر الأدلة البرهانية على استحقاق الله للعبادة الموحدة، ومنها خلق السموات وتسخير الأرض لتكون مهيئة لاستقبال البشرية، ثم ذكر خلق البشرية، والهدف الاستخلافي من الوجود البشري، ثم عرض تجربة الاستخلاف الإسرائيلية (أصحاب البقرة) بين الإيجابيات والسلبيات باعتبارهم من أكثر الأمم تأثيراً على وجه الأرض، وبين تحول بعضهم إلى العنصر السيء الذي يكمل المهمة الشيطانية في تدمير البشرية، ثم فصّل الله قصة نجاح إبراهيم في الاستخلاف، ووراثة الأمة الإسلامية له، وتثبيت القبلة المركزية للحياة الأرضية لإقامة النظام العبادي لتتم النعمة.. وبعد أن ثبت النظم الفكرية التي تصور علاقة الإنسان بربه، وبالكون من حوله، وبأهم المكونات البشرية آن الأوان لتفصيل النظم التشريعية والقانونية لإتمام مهمة الاستخلاف في الأرض على نور رباني.

أقسام هذا المحور:

القسم الأول: في المجال الغذائي: الحلال والحرام من الأطعمة (البقرة172-173)

القسم الثاني: في المجال العلمي: حرمة الفساد العلمي (البقرة: 174-176)

القسم الثالث: (آية البر) جامعة أنظمة البر المصلحة للبشرية (البقرة177)

القسم الرابع: القصاص أهم الأنظمة الرادعة للمحافظة على الحياة (البقرة178-179)

القسم الخامس: في مجال ترابط الأجيال: الوصايا (البقرة 180-182) (البقرة:149-150)

القسم السادس: المجال العبادي (أركان الإسلام): الركن الرابع (الصيام) (183-187).

القسم السابع: تحريم الفساد المالي والإداري (البقرة: 188).

القسم الثامن: المقياس الزمني لنظم الإسلام (البقرة 189).

القسم التاسع: في مجال العلاقات الدولية: أساس أنظمة تأمين المجتمع من الأخطار الخارجية (البقرة 190 - 195)

القسم العاشر: في مجال أركان الإسلام: أنظمة الحج (البقرة 196 -

القسم الأول:

في المجال الغذائي: الحلال والحرام من الأطعمة (البقرة172-173):

المناسبة والاتصال:

سبق في المحور السابق الأمر بأكل ما في الأرض حلالاً طيباً، وأن لا يجعلوا أكلهم مصدراً لتقييدهم بقيد التبعية أو التقليد فلا يكون طلب الرزق مانعاً من اتباع الحق، وهنا بين الله ما يحل من الرزق لئلا تتحكم الأهواء بالنظم الإنسانية ولتعلم البشرية أن الله لم يحرم على المؤمنين التمتع بالطيبات، بل حرم أموراً محدودةً معدودةً من الأكل. وفي هاتين الآيتين أراد الله أن يبين أن الشريعة جاءت من أجل مصلحة الأبدان البشرية، وما ذكره في آية (168) حيث أمر الناس بأكل الحلال الطيب جاء في سياق موانع اتباع الحق لكنه هنا يفصل المحرم مقابل الحلال الطيب وليبين أن كون الإنسان مؤمنا لا يعني ألا يأكل الطيب بمعنى المستلذ.

بصيرة 1

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾(البقرة: 172)، خاطب المؤمنين لا البشرية كلها لأنه خاطب البشرية كلها في الآية 168، وليبين ضرورة أن يظهر المؤمنون أنهم أنموذج حقيقي لغيرهم ﴿كلوا﴾ أي انتفعوا بالطيب من الرزق وأعظم أوجه الانتفاع الأكل؛ لذا خصه بالذكر، وهذا من المصطلحات القرآنية البارعة: التعبير بالأكل عن الانتفاع لأنه أشد درجات الاستلذاذ.

بصيرة 2

﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(البقرة: 172) قدم الأكل على الشكر ليبين أن الشريعة حريصة على نفع البشرية فيجب اقتران أكل الرزق بشكر الرازق، فأكل الطيّب سببٌ للعمل الصالح (الشكر)، وكلمة ﴿إياه﴾ تدل على أن توحيده في العبادة يقتضي شكره جل مجده، والشكر قيدُ الموجود، وجلب المفقود.

بصيرة 3 رحم الله ضعف البشرية، فجعل الأصل في الأطعمة الْحلية ولا يحرم إلا ما عظم ضرره، وهي أربعة أصول: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ (البقرة:173) قدّم ﴿عليكم﴾ رحمة بالبشرية، فالتحريم لمنفعتكم.

﴿الميتة﴾ التي ماتت من غير ذكاة شرعية، فحرم أكلها والانتفاع بها.

الدم أي المسفوح وهو الخارج عند الذبح أو من الحي

﴿ولحم الخنزير﴾.

﴿أهل﴾ أي ذبح لغير الله.أو ذكر غير اسم عليه عند الذبح

والحصر بقوله ﴿إنما﴾ لبيان سعة الحلال ومحدودية الحرام، وردًا على المتلاعبين بالتحليل والتحريم، ولبيان أن النظم التشريعية إنما تكون للمصالح البشرية.

بصيرة 4 ﴿وما أهل لغير الله به﴾ الاهلال رفع الصوت عند ذبح النعم، وله ثلاث صور:

1. أن يسمي غير الله، فالأكل كالذبح حرام.
2. أن يسمي الله تعالى عند ذبحه، فهو الأكل الحلال الطيب.
3. ألا يُسمي غير الله، ويترك اسم الله فمسألة خلافية فهو جائز بمفهوم المخالفة.

بصيرة 5

لحرص الشريعة على مراعاة الحالات الطارئة في الواقع الإنساني أجاز أكل هذه المحرمات عند الاضطرار جوعاً أو إكراهاً بشرطين: ألا يكون الإنسان باغياً، ولا عادياً ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بصيرة 6

الفرق بين (باغ) و(عاد):

أولاً:

غير باغ على الناس أو على مضطر آخر (من البغي)، ولا عادٍ بتعدي الحلال إلى الحرام وهو يجد عنه بلغة ومندوحة.

ثانياً:

غيرَ باغٍ من الابتغاء أي مريد وطالب له لذاته، ولا معتدٍ الذي أبيحَ له منه مُتَجَاوِزٍ قَدْرَ الضَّرُورَةِ.

بصيرة 7

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿غفور﴾ لما سلف منكم من خطأ وذنب ومعصية، وما حدث منكم من أكلٍ لأحد هذه الأربع عند الاضطرار ﴿رحيم﴾ بكم حيث جعل الشريعة تناسب حالاتكم الحياتية المختلفة.

القسم الثاني:

في المجال العلمي: حرمة الفساد العلمي (البقرة: 176-174)

المناسبة والاتصال:

لما ذكر ما يحل من الأطعمة وما يحرم بالصورة المباشرة، بين أن الطيبات من الرزق تصبح خبائث إذا كانت مقابل الفساد العلمي حيث يصبح العلم في خدمة الفاسدين والمجرمين والمعتدين

لما ذكر أن الاضطرار يبيح الأكل من الأطعمة الأربعة المحرمة بين أن الاضطرار والحاجة لا يبيحان أن يأكل العالم أكلًا الحرام بعلمه عندما يكتمه أو يشتري به ثمنًا قليلًا.

بصيرة 1

العلماء ثلاثة أصناف:

الصنف الأول (راسخ):

عالم يهدي بعلمه كما أمر الله.

الصنف الثاني كاتم العلم:

وهو الذي كتم العلم مشتريًا بكتمانه ثمنًا دنيويًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

الصنف الثالث (مضل):

متلاعب بالعلم يجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ طلباً لرضى غيره جمهوراً كان أو حاكماً.

بصيرة 2

الصنفان الآخران (الكاتمون والمتلاعبون) لشدة إفسادهما للحياة، وتسويغهما الإجرام للمجرمين بالسكوت أو الإضلال بين الله أن عليهما أربع عقوبات:

العقوبة الأولى:

﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ (يأكلون) وعبر بالفعل المضارع ليدل على معان:

- **المعنى الأول:** في الدنيا أي يأكلون في الحال ما يستلزم النار.
- **المعنى الثاني:** في الدنيا يأكلون ما هو كالنار من ضرره عليهم في أجسادهم وأرواحهم.
- **المعنى الثالث:** في الآخرة أي يأكلون في المآل عين النار عقوبة لهم.

العقوبة الثانية:

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ غضباً عليهم يوم القيامة وهم أحوج ما يكونون إلى تكليمه.

العقوبة الثالثة:

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ لا يطهّرهم من دَنس ذنوبهم وكفرهم، فالعقوبة هنا ليست للتطهير.

العقوبة الرابعة:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: 174) مؤلم أي كثير وعظيم ألمه ووجعه.

بصيرة 3

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (البقرة: 175)، تبصرنا هذه الجملة بجملة معانٍ تصور الفعل الفظيع لهذه الفئة المفسدة:

المعنى الأول: يحتمل أن تكون (ما) للتعجيب أي ما أجرأهم وأعملهم بالباطل الذي مصيره النار.

المعنى الثاني: للتعجيب وفق معنى آخر أي ما أشد صبرهم على النار، وحقيقة الأمر أن لا صبر لهم كما قال تعالى: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الطور: 16)

المعنى الثالث: للاستفهام: أي ما الذي سيجعلهم صابرين على النار؟ والمراد التخويف من أنهم سيردون مقاماً رهيباً لا صبر لهم فيه، فلماذا يعملون ما يؤدي إليه؟.

بصيرة 4

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (البقرة: 176)

تبصرنا بأن هناك حقيقتين تبينان سبب هذه النظم والأحكام البنائية والعقابية:

الحقيقة الأولى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، أي وضعنا لكم هذه التشريعات الدقيقة لأن الله أنزل الكتاب بالحق النافع للبشرية.

الحقيقة الثانية: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ يختلف الناس في الكتاب هل هو حق أم لا، ويختلفون في معاني الكتاب هل يُعمل بها أم لا، والذين يختلفون فيخالفون الكتاب في أصله أو في معانيه التي كان عليها النبي ﷺ.. هؤلاء يتخذون شقًا بعيدًا عن الحق.

القسم الثالث:

(آية البر) جامعة أنظمة البر المصلحة للبشرية (البقرة: 177)

المناسبة والاتصال:

بعد أن ذكر الله الحلال والحرام في المجال الغذائي، وبين حرمة الأكل عبر الفساد العلمي، وذكر في الآية (176) حقيقتين تتعلقان بكتاب إصلاح الحياة، فالحقيقة الأولى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (البقرة: 176)، والثانية: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (البقرة: 176)، بين هنا جوامع مختلفة من أنظمة البر المصلحة للواقع البشري، وتشمل قواعد التصور الإيماني (القوة النظرية)، وقواعد السلوك الإيماني (القوة العملية).

المجال الأول:

مجال التصور العقدي الفكري: يجب الإيمان بالأركان الخمسة: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ (البقرة: 177)

البر: اسم يتسع باتساع (البَر) لكل خصلة خير أي ليس البر أن تتجهوا للمكان بل لما أقول لكم.

بصيرة 1

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ (البقرة: 177) تبصرنا الآية بأن الوسائل مثل استقبال القبلة ينبغي أن تحفظ المقاصد وهي صلاح القلب، وصلاح العقل، وصلاح العمل، وصلاح الكون وصلاح البشرية.

بصيرة 2

ترتيب أركان الإيمان مناسب لواقع نزول الوحي، ووصوله إلى البشر.

بصيرة 3

وحّد الكتاب؛ إشارة إلى وحدة هدايات الكتب النازلة على البشر ونورها وهداها، وقد ذكر الله ذلك فقال: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور﴾ (المائدة: 44)، ﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ (المائدة: 46)و ﴿وأنزلنا إليك بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾ (المائدة: 48).

بصيرة 4

قدّم الله الإيمان والتصورات الفكرية على ما بعدها؛ للتنبيه على أن أعمال القلوب أشرف عند اللّه من أعمال الجوارح، وأساسها أعمال الجوارح، ولبيان أن هدف الإيمان وجود التصور الصحيح عن الوجود الذي يؤدي إلى العمل المتقن.

المجال الثاني:

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ (البقرة: 177) توثيق أواصر المجتمع بإعطاء المال لستة أصناف من القرابة، وضعفاء المجتمع:

بصيرة 1

اكتنز هاء الضمير في قوله تعالى ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ عدداً من المفاهيم حسب مرجعه: أي على حب الله أو حب الإعطاء أو حب ذوي القربى وما عطف عليه، أو حب المال، فيكون المعنى: آتى المال على حب الله، وحبه للبذل والإعطاء، وحب البشرية، وحب المال الذي لم يمنعه من مجاهدة نفسه في الإعطاء.

بصيرة 2

الترتيب في الآية مقصود؛ إذ ترى أنه قدم الأولى فمن بعده: ذَوِي الْقُرْبَى، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينَ، وَابْنَ السَّبِيلِ وهو المنقطع والضيف، وَالسَّائِلِينَ، وَفِي الرِّقَابِ، ويدخل فيهم الأسرى.

بصيرة 3

الراجح أن المراد بالمال هنا غير الزكاة، وكل ما يدخل تحته، فدفع الضرر عن المسلم فرض كفاية بالإجماع، وقوله ﴿على حبه﴾ يربي على التحرر من عبادة المال التي تذل النفوس، وتنكس الرؤوس.

المجال الثالث:

العبادي الإلزامي: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: 177) ذكر ركنين من أركان الإسلام

بصيرة

الصلاة والزكاة عماد العلاقة مع الخالق والمخلوق، فالصلاة صلة بالخالق، والزكاة صلة بالمخلوق:

المجال الرابع:

المجال الأخلاقي: ذكر صفتين:

بصيرة 1

الصفة الأولى: الوفاء ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾، فالوفاء واجب حتى مع العدو الحربي، "مع أخذ الحيطة من الخديعة"

ولذا قال حذيفة بن اليمان عن محاربي قريش: فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ فَقَالَ « انْصَرِفَا نَفِى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ » فكيف مع المسلم أو مع الكافر المسالم؟ فكيف مع من أحسن إليك، واستقبلك في داره؟

بصيرة 2

الصفة الثانية: الصبر يكون في ثلاثة أحوال أساسية ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ (البقرة: 177)، فالبأساء البؤس والفقر، والضراء السقم والوجع، وحين البأس في كل ما فيه بأس ومنها: القتال، وكلمة الحق عند الجائرين حكاماً أو غيرهم.

بصيرة 3

ذكر أحوال الصبر الثلاثة لإعداد الأمة للتفاعل مع أوضاع الحياة المختلفة، والأزمات العاصفة، وذكر البأس لإعداد الأمة عسكرياً أمام الاعتداءات الهمجية الوحشية التي تقوم بها الحضارات الظالمة.

بصيرة 4

مكافآت البررة:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ قرنوا الأقوال بالأفعال.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: 177) طبقوا تفاصيل الصفات الخمس في أول السورة.

القسم الرابع:

القصاص أهم النظم الجنائية للمحافظة على الحياة (البقرة178-179)

المناسبة والاتصال:

بعد أن ذكر الله جامع أنظمة البر المصلحة للواقع البشري بين أن الناس لا يقومون بأنظمة البر حق القيام إلا في ظل مجتمع عادل متساوٍ في حق الحياة، ولذا شرع نظام (القصاص) ليضمن العدل والمساواة اللائقة بالكرامة الإنسانية.. ومن خلال هذا النظام يتم تأمين المجتمع، فهو صمام الأمن الداخلي والقومي بين سائر أفراد المجتمع.

بصيرة 1

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أعيد الخطاب لسببين:

الأول:

بيان حيثية الحكم: اسمعوا التكليف والتشريف المترتب على الإيمان مما تفاخرون به بني الإنسان.

الثاني:

بيان أهمية التشريع المذكور في الحفاظ على المجتمع المدني، وبيان أنه من أهم الأولويات التنظيمية في إصلاح أحوال الأفراد والمجتمعات في أمنهم وكل شؤونهم.

بصيرة 2

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ (البقرة: 178)، القصاص المتكافئ نفساً أو دية واجب مكتوب لإقامة الْعَدْلِ، وَلإبْطَال العنصرية التي أعطت امْتِيَازاً لِلْأَقْوِيَاءِ عَلَى الضُّعَفَاءِ.

بصيرة 3

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ (البقرة: 178) يرتقي الإسلام بالمجتمع حتى في النظام العقابي، فالقصاص أَصْل الْعَدْلِ، إلا أن هذا لا يمنع من أن يعفو أولياء المقتول عن القاتل فذلك مقتضى التَّرَاحُمِ وَالْفَضْلِ، بأن يقبل الولي الدية أو يعفو مطلقاً.

بصيرة 4

﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الشريعة الخاتمة رفق بالكون، ورحمة بالإنسانية حيث شرعت العفو والدية خلاف الشرائع السابقة.

بصيرة 5 ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ رحمة الشريعة لا تعني أنها تسمح للعابثين بأن يستغلوا هذه الرحمة فيعودون إلى الاعتداء على القاتل بعد العفو عنه، أو يعود القاتل إلى الإجرام، فلهم عذاب أليم بأن يمنع من العفو.

القسم الخامس:

في مجال ترابط الأجيال: الوصايا (البقرة 180-182)

المناسبة والاتصال:

لما ذكر الله تعالى أن القصاص يحمي الإنسانية من الموت، وينمي الحياة ذكر نظاماً آخر يسهم في استمرار تنمية الحياة حتى بعد الموت، ويزيد الترابط المجتمعي هو نظام الوصايا نبّه به الإنسان بأنه قد يطرقه الموت في أي لحظة بأي سببٍ كالقتل أو الفجأة، أو الْقِصَاص، فينبغي التنبه إلى ما يبني الحياة بعده بالوصايا.

المواضع: ذكرت الوصية في ثلاثة مواضع: هنا، وفي النساء في خمسة مواضع (النساء:11 - 12)، وفي (المائدة: 106)، وذكرت توصية في (يس:50)

بصيرة 1 ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ (البقرة: 180) ينبغي على كل من ترك خيراً سواء أكان مالاً أم متاعاً أم عقارات أن يوصي إذا حضره الموت.

والوصية هنا تكون للوالدين والأقربين الذين لا يرثون.

بصيرة 2 ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ يراد به المال قلّ أم كثر، وتسميته خيرًا فيه إشادة بأهميته في الحياة فهو عطاء إلهي ينبغي ألا يستنكف عن اكتسابه وحيازته المتقون كما يقوله غلاة المتواكلة من المتصوفة.

بصيرة 3 ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ يراد به حضور أسباب الموت كتقدم المرء في العمر، ومتى حضر السبب كَنَت به العرب عن المسبب.

بصيرة 4 ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ الوصية عنوان محبة للبشرية، فتكون لأقرب الناس وهما الوالدان، ثم للأقربين، فهي لون من ألوان التكافل العائلي خارج نظام الوراثة.

بصيرة 5 ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ تبصرنا بأن مقدار الوصية يُحدد حسب المتعارف عليه بأنه عدل لا يثير التحاسد بين الموصى لهم، أو بينهم وبين الورثة على ألا يزيد على الثلث

بصيرة 6 ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ينبغي للمتقي ألا يتركها، فهي علامة على تقواه، وبذا تكون تنمية النواحي الاجتماعية جزءاً من وظائف المتقين، والحق هنا الأمر الواجب عليهم، وخُصّ المتقون بالذكر بياناً لتبعات التقوى، وتشريفا للرتبة ليتبارى الناس في الوصول إليها.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: 182)

بصيرة 7 الإصلاح في الوصايا أمرٌ أكده الإسلام وشجع عليه حتى لا يقع الجنف أو الإثم على أحد الأطراف الثلاثة: الموصِي، والموصَى له، والورثة، والجنف الحيف والظلم والجور خطأ، والإثم: الظلم عمداً، ويدخل في هذه الآية الصور الآتية:

الصورة الأولى:

من حضر مريضًا وهو يوصي، فخاف أن يخطئ في وصيته، فلا حرج على الحاضر أنْ يصلح بينه وبين وَرَثته، بأن يأمره بالعدل في وصيته، وأن ينهاهم عن مَنعه مما أذن الله له فيه

الصورة الثانية:

إن خافَ المسلمون (الوصي أو ولي الأمر أو المجتمع) الجنف في تنفيذ الوصية فأصلح أحدهم بين الورثة وبين الموصى لهم فلا إثم على المصلح، والجنف يحدث إما من الموصي أو الورثة وإما من الموصى لهم بسبب واقع الوصية

الصورة الثالثة:

إن خاف الوصي أو الأمير الاحتيال من الموصي مثل أن يجعلها لبني ابنه ليكونَ المالُ لأبيهم، أو بأن توصي المرأة لزوج ابنتها ليكون المال لابنتها، فيصلح بين الموصي وبين بقية الورثة.

بصيرة 8 لأن المصلح قد قام بطاعة عظيمة وذلك بقيامه ببعض تبديل لأجل الإصلاح، وصيانة للموصي من الحيف ومظنة الظلم لأن الأمر كذلك فإن ﴿الله غَفورٌ﴾ للموصي، ﴿رحيمٌ﴾ بالمصلح بينَ الأطراف كلها، فمن رحم الطرف المظلوم يرحمه الله.

القسم السادس:

المجال العبادي (أركان الإسلام): الركن الرابع (الصيام) (البقرة183-187)

المناسبة والاتصال:

ذكر الله مجالين من المجالات الحياتية العامة هما مجال حفظ الحياة من خلال نظام القصاص العادل، ومجال الترابط المجتمعي للأجيال من خلال نظام الوصايا، وتنفيذ هذين النظامين وجميع أنظمة العبادة التي تبني الحياة يعتمد على ضبط النفس وتقواها.. هنا ناسب أن يذكر الله تعالى عبادة تعين على التهذيب والتأديب والتقوى وضبط النفس، ويعين الله فيها عباده بطرق إلهية استثنائية في حياة البشر، فتقبل عليها البشرية بصورةٍ لا توجد في غيرها من العبادات.. إنها عبادة الصيام.

النظام القرآني للصيام:

الفصل الأول:

الأسس العامة لنظام الصيام

تكون هذا الفصل من ست مواد:

المادة الأولى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة: 183) فرض الله الصيام على المؤمنين في الأمة الخاتمة ومن قبلهم؛ لأهميته في تدريب النفوس وتربيتها

المادة الثانية:

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أعظم أهداف نظام الصيام تكوين التقوى فرديًا وجماعياً، والتقوى تعني الضبط النفسي التام ليتقي الصائم الشرور الذاتية، وهو عبادة لم يعبد بها غير الله، ولعله من أجل ذلك قال الله تعالى (إلا الصوم فإنه لي)).

المادة الثالثة:

المدى الزمني للصيام ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة:184)، فهو مناسب لتكوين التقوى، فليس قليلاً مخلاً، ولا كثيراً مملاً.

المادة الرابعة:

الصيام لنفع العباد لا لتعذيبهم، ولذا يُعذر أصحاب الأعذار، وهم أربعة أصناف:

الصنف الأول والثاني:

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: 184) المرضى مرضاً مؤقتاً والمسافرون، -وهم من يقدر على الصيام لاحقاً- فهؤلاء يفطرون ويقضون.

الصنف الثالث والرابع:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: 184) أطاق أن يعمل أي استنفذ كل طاقته، فتبصرنا الآية بمن أطاق الصيام بمشقةٍ عظيمةٍ: مثل كبار السن، والمرضى مرضاً لا يرجى برؤه، فهؤلاء يجوز لهم الفطر، ويطعمون عن كل يوم مسكين

المادة الخامسة:

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ (البقرة: 184) تطوع الصيام أو تطوع الإطعام خيرٌ للمتطوعين في الدنيا والآخرة، أي فمن زاد على الأيام المعدودات صياماً أو زاد على طعام المسكين فهو خير له.

المادة السادسة:

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 184) تبصرنا بأن نظام الصيام ليس للتعذيب بل للتدريب والتهذيب، فهو نظامٌ لصالح العباد صحياً ونفسياً وإيمانياً.

الفصل الثاني:

النظام التفصيلي للصيام الواجب:

تكون هذا الفصل من إحدى عشرة مادة:

المادة الأولى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ (البقرة: 185) وقت الصيام المفروض تحديداً هو شهر رمضان، فبعد أن ذكر الله تعالى أن الصيام ﴿أياماً معدودات﴾ تهيئة لهم ببيان محدودية أيامه، فصار هذا بياناً عاماً ذكر فيه أنه يعذر أصحاب الأعذار، ثم بين موعد الأيام المعدودات وهو شهر رمضان

المادة الثانية:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: 185) سبب تخصيص رمضان بالصيام نزول القرآن فيه، ولشدة الحفاوة بالقرآن في شهر الصيام وصف الله القرآن هنا بثلاث صفات:

الصفة الأولى:

﴿هُدى للناس﴾ رَشادًا للناس إلى سبيل الحقّ والسعادة في الحياة.

الصفة الثانية:

﴿وَبيّنات من الهدى﴾ واضحات من البيان الدالّ على حدود الله وفرائضه وحلاله وحرامه.

الصفة الثالثة:

﴿والفرقان﴾ والفصل بين الحق والباطل، وبين السعادة و الشقاء.

المادة الثالثة:

صوم رمضان فرض لمن شهد الشهر ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾(البقرة: 185)

ومعنى شهد أي حضر الشهر.

المادة الرابعة:

الاهتمام بذوي الأعذار، وتوفير البدائل المناسبة لهم ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: 185) يقضيه أصحاب الأعذار بأيام أخرى وقت استطاعتهم وأعاد ذكرهم لأن ما سبق كان كلاماً عن الأسس العامة للصيام، وهنا كلام عن رمضان وأهميته.

المادة الخامسة:

أهم أهداف الصيام سبعة:

الهدف الأول

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 183) تكوين التقوى في النفس البشرية، والمجتمع الإنساني، وقدّم هذا الهدف لأنه هدف الأهداف وغايتها، وما بقي فتفصيلٌ له.

الهدف الثاني

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: 185) فالصيام يبرز اليسر في الحياة والدين.

الهدف الثالث

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ (البقرة: 185) اعتياد الانضباط بإكمال العدة.

الهدف الرابع

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ (البقرة: 185) تعظيم أرحم الراحمين الهادي الموفق.

الهدف الخامس

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: 185) شكر الله الذي يسعد الدنيا بالدين.

الهدف السادس

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: 186) القرب المباشر من رب العالمين، والتعود على دعائه.

الهدف السابع

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: 186) الوصول إلى الرشد الفردي والجماعي، مما يترتب عليه صلاح الفرد والجماعة، والصواب في القرارات الشخصية والعامة ضمن ميدان الابتلاء في هذه الحياة. وترى أن الله وسّط ذكر الأهداف وبثها بين مواد الصيام وأحكامه لتُذكر وتستحضر، فلا تطغى عليها الأحكام التي هي وسيلة إليها، ولئلا يهمل الناس الغاية مشتغلين بالوسيلة.

المادة السادسة:

المشروع في الصيام: تباح الشهوتان في مواضعهما: الشهوة الأولى: إتيان النساء ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾(البقرة:187)،وعدى "الرفث" بـ"إلى" ليتضمن معنى الإفضاء الذي يراد به الملابسة.

وأما سبب التحليل فصلاحية الشريعة للفطرة الإنسانية، وذكر الله ستة أسباب تبين المكانة الفطرية للنساء في قلوب الرجال:

السبب الأول

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ بيان منزلة الزوجية وحرص الشريعة على تنميتها، فسعادة الرجال والنساء أن يكون كل منهما لباساً للآخر بالتكامل الوظيفي، والدفء الجسدي، والتباذل الأسري.

السبب الثاني

الضعف البشري يستنزل العطف الإلهي ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب، وعلم أنكم كنتم تَنْتَقِصُونَهَا بَعْضَ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهَا أو تَخُونُونَ أَنْفُسَكُمْ فتظلمونها بمنعها مما تشتهي من أمر النساء، فالتفكير المتبادل بين الرجال والنساء طبيعة فطرية، والشريعة لا تضادها بل تنميها.

السبب الثالث

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم مما حدث من الاختيان، وخفف بالرخصة بقضاء الحلال مع النساء، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (المزمل: 20) يعني خفف عنكم

السبب الرابع

﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ بمحو الذنب، والتوسعة والتسهيل في نظام الصوم.

السبب الخامس

﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ الحاجة للاتصال الزوجي بين الرجال والنساء حيث حثّ على قضاء الشهوة الحلال في ليالي أيام الصيام، و"المباشرة" مُلاقاة بَشَرة ببَشرة، و"بشرة" الإنسان: جلدته الظاهرة، والمراد: الجماع ودواعيه من تقبيل، ومعانقة ونحو ذلك.

السبب السادس

لا العبادة تشغل عن مسايرة الفطرة ولا الاستجابة للطبيعة البشرية تنسي العبادة ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فالمباشرة للاتصال الزوجي مما كتب الله لنا، ويدخل في ذلك عدم نسيان الأهداف الأخرى من سكينة النفس بالسكون إلى الأهل مع طلب الولد، وابتغوا ما كتب الله لكم من ليلة القدر.

المادة السابعة:

المشروع في الصيام: تباح الشهوتان في مواضعهما: الشهوة الثانية: الجمع بين عبادة الصيام وقضاء شهوة الإنسان يضعف البدن فأرشد الله إلى وسيلة الطعام "الأكل والشرب" ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ وبدأ بذكر النساء قبل الطعام لبيان معالجة هذه الشهوة الشديدة عند البشر، ثم ذكر الطعام لبيان التلذذ بالجمع بين الشهوتين، وأن الأولى مفتقرة للثانية، ولذة الثانية لا تكمل دون الأولى.

المادة الثامنة:

الميقات الزمني للمشروع والممنوع في الصيام ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ (البقرة: 187) أي سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ، وأَخَّرَ ذكر حد الميقات الزمني التفصيلي لِيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النَّفْسِ، وَأَظْهَرَ فِي رَحْمَةِ الشَّارِعِ بعد ذكر المباحات.

المادة التاسعة:

﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ (البقرة: 187) يشرع فعل أحد الشهوتين عند الاعتكاف وهي الطعام، ويحرم فعل الأخرى، وهي مباشرة النساء، وذلك زيادة في الترقية والمجاهدة والجمع بين إعطاء الجسد حقه بالطعام، وتلبية مطالب الروح بالإنس بالملك القيوم السلام.

المادة العاشرة:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ (البقرة: 187) المحرمات في نهار الصيام أو ليله، والمباحات في نهار الصوم وليله كلها حدودٌ لا ينبغي القرب منها؛ لأن القرب يفضي إلى المس ثم التعدي والانتهاك، فحد الشيء: منتهاه مما لا يجوز دخول ما بعده، والمراد: لا تتعرضوا لها بالتغيير والتَّأْوِيلِ وَالتَّحْرِيفِ، والمخالفة.

المادة الحادي عشر:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 187) أهم غايات نظام الصيام وأهدافه إيصال الناس إلى التقوى التي تعينهم على نظام السعادة الحقيقي في الدنيا.

القسم السابع:

تحريم الفساد المالي والإداري (البقرة: 188)

المناسبة والاتصال:

بعد أن ذكر الله فيما سبق التشريعات المتعلقة بالنظام الغذائي ثم ربط ذلك بالفساد العلمي، وبين التشريعات الجامعة لمنظومة البر التي تنتج الإنسان الصادق التقي، ثم ذكر تشريع القصاص الحافظ للحياة، وتشريع الوصية الذي يصل الأجيال ببعضها، وبين حدود ركن الصيام أراد الله أن يبين الأثر الحياتي المباشر لدورة شهر رمضان، وظهور ذلك في التعامل اليومي بترك الفساد المالي والإداري.

مظاهر الفساد الإداري

المظهر الأول

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (البقرة: 188) تبصرنا بخطورة الفساد المالي، وذلك بأكل الأموال عن طريق الاكتساب المحرم للمال مثل البيوع الباطلة المحرمة، أو أكل حقوق الآخرين وثرواتهم.

المظهر الثاني

﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 188) تبصرنا الآية بأن من صور الفساد الإداري والسياسي والقضائي بيع الحكم بالرشوة، وشراء القضاة والمسؤولين ليحكموا بالظلم ويمنعوا الحقوق

تفضح النفسيات المريضة التي تستولي على حقوق غيرها بطرق باطلة، وتبصرنا أن الفساد الإداري يتغذى من الوسط الاجتماعي، فـ"الإدلاء": إرسال الرجل الدلو في حبل متعلقا به في البئر، كأنه جعل المال في حبل ليتوصل به إلى وظيفة أو منصب أو أخذ ما ليس له من الحقوق، فيدخل فيه الفساد في المال السياسي، والفساد في العمل الوظيفي وتوزيع الثروة العامة.

القسم الثامن:

المقياس الزمني لنظم الإسلام وتشريعاته (اختيار التقويم القمري)

(البقرة 189)

بصيرة 1

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة: 189) بعد أن ذكر عدداً من النظم الإسلامية في مختلف المجالات، وكثير منها يتعلق به تحديد مدد زمنية كالقصاص، والوصية والصيام، والنظم الاقتصادية والسياسية، وما سيأتي من نظم كالقتال والحج، بيّنَ الله تعالى أن المقياس الزمني ينبغي أن يعتمد على أساس الشهر القمري.

ولهذا التحديد أهميته البالغة في الحفاظ على الهوية الإسلامية، فقد أخبرنا الله أن عدة الشهور اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، فارتبطت العبادات بالسنة القمرية، إلا في تحديد مواقيت الصلاة.

بصيرة 2

﴿وَلَيسَ البِرُ بِأَن تَأتُوا البُيوتَ مِن ظُهورِها وَلكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقى وَأتُوا البُيوتَ مِن أَبوابِها﴾ (البقرة: 189) التزام النظام علامة صحة المجتمع وسيره على نهج الأبرار، ودليل صحوة التقوى في قلوب أبنائه.

بصيرة 3

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: 189) تبصرنا بأن الهدف من هذه النظم الوصول إلى التقوى التي تعني اتقاء النار، واتقاء المعصية، واتقاء المشكلات والمخاطر الضخمة التي تنشأ من مخالفة منهج الله، وبذلك يتحقق الفلاح الفردي والجماعي الدنيوي والأخروي.

القسم التاسع

في مجال العلاقات الدولية: الأساس في تأمين المجتمع من الأخطار الخارجية (البقرة 190-195)

المناسبة والاتصال:

هناك تناسب تاريخي موضوعي واضح، فقد ذكر الله أمر الأهلة وأنها المقياس الزمني المميز لتنفيذ النظم العبادية الإسلامية، فهي مواقيت للناس والحج، إلا أنه كيف يمكن الحج وطرقه غير مؤمنة، فكان لا بد من وجود نظام أمني يتعاملون به مع القوى القرشية المعتدية التي تمنعهم من أبسط الحقوق البشرية ومنها الحج، وهي عبادةٌ مشتركة في الصورة مختلفة في الحقيقة والكيفية، وهنا جاءت الأنظمة الأخلاقية التي تصاحب الحرب في التصور الإسلامي، ومن خلال الأنظمة السابقة من أول السورة في المجالات الفكرية والتاريخية والتشريعية ظهرت معالم الحضارة الجديدة التي تشرق على العالم، ومن ذلك منع الفساد المالي والإداري، وهذه الحضارة لا بد لها من إقامة علاقات دولية متوازنة تمنع اعتداء القوي على الضعيف، فذكر الله الرؤية الإسلامية المتميزة للقتال وفق الأخلاقيات التي يقرها العالم كله

ذكر الله تعالى النظم الأمنية هنا على هيئة مواد قانونية واضحة:

مادة أولى

السبب الأول لوجوب القتال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة: 190) فيجب قتال الذين يقاتلون الأمة لرد الاعتداء، وحفظ الأمن.

مادة ثانية

شروط قتال المقاتلين، وهي عوامل الانتصار في الخطة الحربية عند المواجهة:

الشرط الأول: الإخلاص ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وأن يكون القتال لتحرير الديار والأهل، وألا يكون القتال للمجد الشخصي والمطامع التوسعية، وأن يتم الدفاع عن المستضعفين، ويتم المنع من الفتنة والتعذيب.

الشرط الثاني: يقاتلونكم ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ فرق بين القاتل والمقاتل فالذي يُقاتَل هو المقاتِل بلا تحديدٍ لدينه أو جنسه فالعبرة بأنه قاتل.

الشرط الثالث: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ومن صور الاعتداء: الابتداء بقتال من لا يقاتل واقعاً، وقتال من لا يقاتل طبيعة من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتلى، وقتل الحيوان، وقطع الأشجار ونحوها.

الشرط الرابع:

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ (191) تبصرنا الآية بأنه لا توجد مناطق آمنة للمعتدين، أي اقتلوهم في أي مكان وزمانٍ وجدتموهم على وجه الأخذ والغلبة، ومنه رجل ثقيف سريع الأخذ لأقرانه، فترك المعتدي ليس من حكمة الحرب، وهو تغرير بالمجتمع، وتجرئ المعتدي على الاستمرار في عدوانه.

الشرط الخامس:

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ (191) تبصرنا بأنه يجب إعلان أن المعاملة ستكون بالمثل إلا فيما يتنافى مع أخلاقيات الحرب الإسلامية، فمن أخرج الناس من ديارهم يتم إخراجه منها، وهذا الإعلان له دوره في كبح جماح المعتدين عن إيذاء الآمنين أي: أخرجوهم من مالكم وبيوتكم التي أخرجوكم منها، أو اعملوا على إخراجهم من مكة التي أخرجوكم منها، ففي هذا إعداد مبكر لفتح مكة.

الشرط السادس:

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾(البقرة: 191) والفتنة الامتحان والابتلاء والبلاء واختلال نظام العيش، واختلال الفكر

وهذا قانونٌ عظيمٌ عامٌ في المجال السياسي والحياتي العام، وهو يعني بأن:

- الفتنة الجسدية والعقلية أشد أثراً وأسوأ جراحاً من القتل.
- الفتنة في الدين أعظم من ذهاب الجسد.

الشرط السابع:

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ (البقرة: 191)، فهذا حكم القتال في الحرم.

فيستثنى هذا من العموم المكاني السابق للقتال ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ فيقاتلون إن قاتلوا ولو في المسجد الحرام؛ لأنهم يستغلون اطمئنان المسلمين في المسجد للقيام بالإجرام، وذكر المسجد الحرام لأن الصحابة تعلموا أخلاقيات الحرب عندما خافوا أن تمنعهم قريش من دخول المسجد الحرام بعد صلح الحديبية أو أن تغدر بهم، فكان نزول الآيات وقتها عاملاً رادعاً لمن سولت له نفسه أن يغدر.

الشرط الثامن:

﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: 191) تبصرنا بأن الأصل أن الاعتداء لا يصدر إلا من كافر، وصدور الاعتداء ممن ينتسب إلى المسلمين على الآمنين من المسلمين والكافرين يجعله مرتكباً لجريمة تشكك في إسلامه، فاعتداء المسلم على غيره دليلٌ على خسارته وفشله وهزيمته المبكرة.

الشرط التاسع:

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: 192) تبصرنا بأن الأصل السلام في الإسلام وليس الحرب، فيغفر لمن يكف عن الاعتداء، ويرحم بأن يعان في أحواله المعيشية، ولكن الكف عنهم مشروطٌ بانتهائهم عن الاعتداء، وليس بمجرد كلامهم، وهذا عند تفسير الانتهاء بأنه انتهاء عن الاعتداء، وهو المناسب للسياق، والتفسير بأنه انتهاء عن الكفر يكون خاصاً بمن لا يقبل منهم إلا ذلك مثل كفار مكة بعد منع سكناها لغير المسلمين.

مادة ثالثة

- السبب الثاني للقتال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ فإذا وجدت نُظُمٌ مجرمة تفتن الناس في حياتهم بأن تعذبهم، أو تجهلهم، وتسلب منهم الحياة الكريمة، فيجب قتالها حتى تكف عن الفتنة، فالسبب الأول بيان لسبب بداية القتال، والسبب الثاني بيانٌ لغايته.

مادة رابعة

- سببا القتال هما: الأول: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، والثاني: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾

وهناك ستة مبادئ أساسية متعلقة بالسببين لا بد من مراعاتها:

المبدأ الأول:

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 193) تبصرنا بأن الأصل في الإسلام السلم، فإن انتهى المعتدون عن القتال أو انتهوا عن نقض الصلح أو انتهوا عن فتنة المستضعفين فَلَا عُدْوَانَ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ الْعُدْوَانَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الظَّالِمِينَ ليرتدعوا عَنْ ظُلْمِهِمْ، و(العدوان) هنا المراد به رد الاعتداء والظلم، وإنما سماه كذلك من باب المشاكلة، ولأنه قد يقتضي حرباً استباقية إذا ظهرت قرائن تدل على أهميتها.

المبدأ الثاني:

إعلان حاسم وحازم ورادع بتطبيق مبدأ المعاملة بالمثل، وكرره ليفصِّله ويبين أهميته في الردع وتوازن القوى:

زماناً، وحرمة ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾

وفعلاً ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ (البقرة: 194) أي من تجرأ على ما أمر الشرع باحترامه فإنه يقتص منه، فمن قاتل في الشهر الحرام أو البلد الحرام قوتل، ومن قتل مكافئا له قتل به أو اقتص له بقدره

ضابط المعاملة بالمثل:

المماثلة دون تعدٍ ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: 194)، وسمى الدفاع عدوانا مع أنه في نفسه حق وصواب لأمرين:

مشاكلة؛ لأن ذلك القتل جزاء العدوان فصح إطلاق اسم العدوان عليه كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾(الشورى : 40).

لتشجيع قلوب المسلمين ألا يأخذوا الجانب الدفاعي الضعيف حال الحرب عندما ينتصرون لحقهم أمام عدون المعتدين، بل يأخذوا جانب المبادرة الرادعة في الحرب.

المبدأ الثالث:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 194)، وهذا المبدأ يعني أن يكون الدين هو المهيمن على النظم السياسية والدفاعية، ولذا يجب استحضار تقوى الله أثناء الحرب، فهو جل مجده وتعالى جده ﴿ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق.

المبدأ الرابع:

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (البقرة: 195) القوة الاقتصادية هي قوام الانتصار لأي برنامج أو عملٍ في الأمة المسلمة.

المبدأ الخامس:

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:195)، ولا يدخل في الإلقاء باليد إلى التهلكة الشجاعة في الحرب بل يدخل فيها المفاهيم الأساسية الآتية:

المفهوم الأول: ترك تعاليم الإسلام إلقاء باليد إلى التهلكة؛ فاتباع الشرع حياة للمجتمع، وحماية له.

المفهوم الثاني: ترك القتال مع وجود أحد السببين إلقاء باليد إلى التهلكة، لأنه يفضي إلى تآكل المشروع الإسلامي الحق، وتحول حملته إلى أقلية مضطهدة مع مرور الزمان.

المفهوم الثالث: الإقامة على المعاصي، واليأس من التوبة إلقاء باليد إلى التهلكة.

المفهوم الرابع: إهمال الاقتصاد إلقاءٌ باليد إلى التهلكة؛ لأنه يفضي إلى ارتهان قرارات المسلمين، وتحكم غيرهم بمصيرهم

المفهوم الخامس: فعل ما هو سبب موصل إلى التلف كتغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو محل مسبعة أو حيات.

المبدأ السادس:

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 195)، ويدخل في ذلك:

- الإحسان في التعامل العام حتى في القتال.
- الإحسان في الإنفاق في سبيل الله، وعدم البخل به.
- الإحسان في القيام بالأعمال بإيصالها إلى أعلى درجات الإجادة والإتقان.

القسم العاشر:

في مجال أركان الإسلام: نظام الحج (البقرة 196-207)

المناسبة والاتصال:

ذكر الله فيما سبق الأنظمة العبادية المختلفة، وبدا أسس النبي ﷺ مجتمعًا متميزًا في المدينة، وبين الله في الآيات السابقة مباشرة كيفية إدارة العلاقات الدولية في حالة الحرب للحفاظ على أمن الأمة في ظل الوسط المعادي حولهم، وإقامة توازن القوى مع كفار قريش، وبذلك يمكن للمسلمين أن يقوموا بإتمام الحج والعمرة في جو آمن.

يرجع تفصيل هذه الآيات لأحكام الحج إلى أربعة فصول:

الفصل الأول

أحكام الإحرام (البقرة196).

الفصل الثاني

ميقات الحج ومحرماته وواجباته ومباحاته (البقرة197-198).

الفصل الثالث

أهم أعمال الحج (البقرة198-203)

الفصل الرابع

أهم أهداف الحج تنمية التقوى، وانقسام الناس بعد الحج والعبادات بناء على وجود آثارها في نفوسهم (البقرة 204-207).

أحكام الإحرام (البقرة196).

مادة أولى

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ والإتمام الواجب يعني أنه إن شَرَعَ في الإحرام للحج أو العمرة فيجب عليه إتمام نسكه، ولا يجوز له تركه إلا لعذرٍ وفق كيفية معينة

مادة ثانية

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ كلمة (لله) تشمل الوسيلة للحج والعمرة والغاية منهما، فينبغي أن يكون كلٌ منهما لله، لا بوسيلةٍ حرام ولا لغرض الترف أو الذكر، بل يكون كلٌ منهما خالصاً لله

مادة ثالثة

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ يبين الله هنا أحكام الإحصار:

أولاً: تعريف الإحصار: هو عدم القدرة على إتمام الحج والعمرة لعذرٍ كالإحصار بمرض أو عدو، والبدء بهذا الحكم عقب ذكر فرضية إتمام الحج والعمرة مناسبٌ؛ إذ ذكرَ الحكم ثم ذكر حُكْمَ مَا يَحُولُ دُونَ إكماله

ثانياً: حكم المحصر: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ الذي حبس عن إتمام الحج والعمرة لعذر يقدم هدياً، وهو سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة يذبحها حيث أحصر.

ثالثاً: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ يتم التحلل للمحصر ويخرج من الإحرام بحلق الرأس بعد أن يبلغ الهدي محله، ومحل الهدي المكاني في حَالِ الْإِحْصَارِ حيث أحصر عند المالكية والشافعية والحنابلة وأكثر أهل العلم وقيل الْكَعْبَة لِقَوْلِه تَعَالَى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ (المائدة: 95)، وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(الحج: 33)، وإلا حَيْثُ يُحصَرُ الْحَاجُ والمعتمر، ومحل الهدي الزماني للحاج يوم النحر، وللمعتمر حين يحصر

مادة رابعة

حكم ارتكاب محظورات الإحرام:

أولاً: الإسلام يراعي ما يعرض للإنسان بتشريع إزالة الضرر في الأحكام ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ (البقرة: 196) الإحرام يقتضي الامتناع عن محظوراته، ويمكن أن يرتكب المرء شيئاً من محظورات الإحرام لعذرٍ، والعذر مرض أو أذى في الرأس، فربما احتاج إلى تقليم الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو الطيب.

ثانياً: تنويع الفدية مراعاة للفروق الفردية ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة: 196) يجب الفدية عند ارتكاب محظورات الإحرام، وهي أحد ثلاثة أشياء أن يصوم ثلاثة أيام، أو يتصدق على ستة مساكين، أو يذبح نسكاً يجزئ في أضحية، والنسك في الأصل: سبائك الفضة كل سبيكة منها نسيكة، ثم قيل للمتعبد: ناسك لأنه خلص نفسه من دنس الآثام وصفاها كالسبيكة المخلصة من الخبث، وقيل للذبيحة: نسك لأنها أشرف العبادات التي يتقرب بها إلى اللّه.

مادة خامسة

حكم الجمع بين الحج والعمرة:

أولاً: ما كان أكثر عملا كان أكثر أجرا ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ يجب الهدي بدم نسك عند الجمع بين الحج والعمرة تمتعاً أو قراناً لحصول النسكين في سفرة واحدة.

ثانياً: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ البديل عن الهدي إذا لم يقدر عليه: صيام ثلاثة أيام في الحج، ويبدأ وقته من الإحرام بالعمرة، وينتهي بانتهاء آخر أيام التشريق ما عدا يوم النحر، فذكر عددين في حالتين مختلفتين، وجعل أقل العددين لأشق الحالتين، وذلك عندما يكون في الحج، وأكثرهما لأخفهما، وذلك عندما يكون في أهله.

ثالثاً: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ أتى به ليزيل توهم أن المراد بالعدد الكثرة لا حقيقة العدد، ولئلا يظن أحدٌ أنه أراد التخيير بالواو، ولينبه بذلك على الرحمة الإلهية في التشريع، واختيار العددين ثلاثة وسبعة؛ لأن كليهما عدد مبارك ضبطت بمثله الأعمال سواء أكانت دينية أم قضائية.

مادة سادسة

﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فالحكم السابق للآفاقي، وهو من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، فأما من كان من حاضري المسجد الحرام، وهم من كان في مكة وما قرب منها، فإذا تمتع فلا هدي عليه ولا صوم، فاسم الاشارة ﴿ذلك﴾ يعود إلى الهدي والصوم عند مالك والشافعي - رحمهما الله- وقال أبوحنيفة : اسم الإشارة راجع إلى التمتع ووجوب الهدي فعنده المكي لا يتمتع بالحج ولا يقرنه بالعمرة, وبالتالي لا يجب عليه الهدي أصلا.

مادة سابعة

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة: 196)، تبصرنا بهذين المفهومين:

المفهوم الأول:

هدف الإحرام كسائر الأحكام التدرب على التقوى التي تعني الوصول إلى مرتبة الوقاية من المكروهات والمخافات والعواقب المستقبلية السيئة في الدنيا والآخرة.

المفهوم الثاني:

الانضباط والشعور بالتلذذ في تطبيق الأحكام السابقة، فقد خفف الله عن أصحاب الأعذار أما المتلاعبون فليعلموا أن الله شديد العقاب.

ميقات الحج ومحرماته وواجباته ومباحاته (البقرة197-198).

ويندرج تحته خمس مواد:

مادة أولى

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ (البقرة: 197) أي مشهورات عند المخاطبين، وهي: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، فهذا هو الميقات الزماني للحج فيبدأ الإحرام بالحج فيهن، وينتهي الإحرام بالحج بنهاية وقوف عرفة بالنسبة لصحة الابتداء.

مادة ثانية

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ كلمة ﴿فرض﴾ تعني أحرم به؛ لأن الشروع فيه يُصَيِّرُه فرضا، ولو كان نفلا؛ إذ يجب إتمامه.

مادة ثالثة

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة: 197) هنا محظورات الإحرام، فيحرم على من أنشأ الحج فيهن فعل ثلاثة أمور:

الأولى: الرفث:

الرفث: وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصا بحضرة النساء.

الثاني: الفسوق:

وهو جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام، والراجح أن الممنوع من المعاصي الكبائر.

الثالث: الجدال:

وهو النقاش الحاد الذي قد يفضي إلى المماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، ولما كان الحج تدرب على التقوى، كان الجدال ينافيها، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بالرفع بضمتين في قوله (فلا رفثٌ ولا فسوقٌ) وقرؤوا مع بقية القرّاء كلمة ﴿جدال﴾ بالنصب إلا أبا جعفر فبالرفع ويظهر أن مزية قراءة الجمهور لكلمة جدال بالنصب: الاهتمام به، وذلك لعدم تورع الناس منه؛ إذ يظنون جوازه، ولأنه يتعلق بضبط النفس في التعامل مع الآخرين، والتدرب على كيفية إدارة العمل الجماعي والتعايش الفكري، والاختلاف المنهجي فيما بينهم.

مادة رابعة

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: 197) يجب على المحرم فعل ثلاثة أشياء:

أولاً:

الخير ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ وفيه الحث على أفعال الخير، وخصوصا في تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة.

ثانياً:

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ التزود نوعان:

النوع الأول:

حسي بالزاد المناسب من الطعام والشراب والراحلة..

النوع الثاني:

معنوي بالتقوى والإيمان ومحبة الرحمن والإحسان إلى بني الإنسان.

التزود المعنوي من خصال التقوى التي توصل إلى طمأنينة الحياة الدنيا، وسعادة الآخرة ولذائذها ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ والألباب جمع لباب الشيء ولبه هو الخالص منه، وهو اسم للعقل لأنه أشرف ما في الإنسان.

مادة خامسة

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (البقرة: 198) الفضل هي التجارة، فتجوز في الحج، وذكرها الله –جلّ جلاله– حتى لا يتوهم أن التقوى تنافي التجارة، ولأنه تعالى منع عن الجدال، والتجارة تسبب المنازعة في قلة القيمة وكثرتها، فربما ظن السامعون المتلهفون لتطبيق الكلام الإلهي أن التجارة محرمة وقت الحج، ولأن الله لما حرم على المسلمين كثيراً من المباحات وقت الحج كاللبس والطيب والاصطياد ربما ظنوا حرمة التجارة، ولتعويدهم على إقامة السوق المشتركة في هذا الموسم الجامع الذي لا يسهل إقامته بغير التجارة.

أهم أعمال الحج (البقرة198-203)

ويندرج تحته تسع مواد:

مادة أولى

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: 198) بعد وقفة عرفات يجب الوقوف في المشعر الحرام وهو المزدلفة، ويدخل في ذكر الله هناك إيقاع الفرائض والنوافل فيه، ومعنى أفضتم: دفعتم بكثرة، فأمر بالذكر لا بالوقوف، فعلم أن الوقوف عند المشعر الحرام تبع للذكر، وليس بأصل، وأما الوقوف بعرفة فهو أصل لأنه قال: ﴿فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ ولم يقل من الذكر بعرفات.

مادة ثانية

ينبغي اصطحاب ذكر الله في كل ما سبق حيث اختصنا بالهداية ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ (البقرة: 198)، الكاف في ﴿كما هداكم﴾ للتعليل، وضمير (قَبْلِه) يعود إلى الله، أو لِلْهُدَى، أو لِلْقُرْآنُ، والقبلية هنا قبلية المعرفة أي وإن كنتم قبل أن تعرفوا الله أو الهدى أو القرآن، وليس قبيلة الوجود.

مادة ثالثة

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ (ثم) للترتيب، فتجب الإفاضة (الدفع) من عرفات ومزدلفة من حيث أفاض الناس من لدن إبراهيم عليه السلام إلى منى، وذلك إِبْطَالاً للعادة العنصرية التي جعلتها قريش لنفسها حيث يسمون أنفسهم (الحمس)، ويتمتعون بمزية عدم الذهاب إلى عرفة، وإنما جمع بين المزلفة وعرفات لأن يوم عرفات مستمر إلى صباح ليلة المزلفة.

والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفا عندهم، وهو رمي الجمار، وتقديم الهدي، والطواف، والسعي، والمبيت بـ "منى" ليالي التشريق وتكميل باقي المناسك.

مادة رابعة

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: 199) ينبغي للمتقي الذي يريد القبول الاستغفار مطلقاً من جميع الذنوب، ويتأكد الاستغفار عقب إكمال العبادات؛ إذ التقصير طبيعة بشرية، وفي الآية تبشير بقبول المستغفرين حيث وصف نفسه –جلّ مجده- بأنه غفورٌ للزلات رحيم بخلقه بكثرة ما يغدقه من العطايا والهبات.

مادة خامسة

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (البقرة: 200) الإكثار من ذكر الله والدعاء في أيام منى، ومعنى قضيتم أي أتممتم وفرغتم فاذكروا الله كما تذكرون آباءكم أو أشد ذكراً، وكانوا يفاخرون بأمجاد أجدادهم، فأراد الله منهم أن يذكروا ربهم أشد من ذكرهم لأمجادِ هو سبحانه وفقهم لها خلقاً وفعلاً.

مادة سادسة

يتضمن الذكرُ المطلوب الدعاءَ المظنونَ استجابتُه؛ إذ هو في مكان مقدس، وزمان معظم، وينقسم الناس في أهدافهم من الدعاء إلى صنفين:

أولاً:

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ (البقرة: 200) فيطلب أمور الدنيا، ولا يكون له في الآخرة حظٌّ ولا نصيبٌ، وهذا دليلٌ على أن الله يجيب دعوة كل داعٍ، مسلماً كان أم كافرًا، وليست إجابته دعاء من دعاه، دليلا على محبته له وقربه منه، إلا أن تكون دليلاً على العقل الراجح بدعائه والاستعداد لإمداده ف﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾.

ثانياً:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: 201)، يعلمنا الله أعظم الدعاء، فيدخل في حسنة الدنيا كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنيء واسع، وزوجة صالحة، وولد تقر به العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة، ويدخل في حسنة الآخرة: السلامة من العقوبات، في القبر، والموقف، والنار، وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم.

مادة سابعة

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ ينبغي الحرص على ذكر الله في أيام منى، فأمر بذكر الله أولاً ثم أكد عليه مع بيان زمنه هنا، وبذا يكون أمر بذكره في ثلاثة مواطن في الحج: عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَكَانُوا لَا يَذْكُرُونَهُ هُنَاكَ، وعِنْدَ تَمَامِ قَضَاءِ الْمَنَاسِكِ بَعْدَ أَيَّامِ مِنًى حَيْثُ كَانُوا يَذْكُرُونَ مَفَاخِرَ آبَائِهِمْ، وفي أيام منى، حيث كانوا يغفلون.

مادة ثامنة

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: 203) يختار الحجاج للمبيت في منى إما يومين أو ثلاثة، ونفى الإثم عن المتأخر مع أن حقه المدح ليبين أنه لما أذن في التعجل على سبيل الرخصة احتمل أن يخطر ببال قوم أن من لم يجر على موجب هذه الرخصة فإنه يأثم، فبين الله أنه لا إثم عليه دفعاً لذلك التوهم.

مادة تاسعة

﴿لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (البقرة: 203) يجب تذكر أهم غايات الحج وهي التقوى، ومحاسبة الإنسان في الآخرة بناء على ذلك: أي لا إثم على المستعجل والمتأخر إن اتقى الله كل منهما، والفرق بين ذكر التقوى في الموضع الأول والموضع الثاني في هذه الآية أن قوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أمر للمستقبل، وهو مخالف لقوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ الذي أريد به الماضي فليس ذلك مجرد تكرار لفظي لا معنى له، بل له جمال سبك وبديع حبك، وقد كرر ذكر التقوى خمس مرات في آيات الحج مع أنه ترك ذكر عددٍ من مهمات أحكامه للسنة؛ لأن الهدف الأعظم من الحج بناء التقوى في النفس الإنسانية.

أهم أهداف الحج تنمية التقوى، وانقسام الناس بعد الحج والعبادات بناء على وجود آثارها في نفوسهم (البقرة 204-207).

المناسبة والاتصال:

ترى أن (التقوى) هي القاسم المشترك فيما ذكر من أنظمة العبادة في جامعة تشريعات البر ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: 177)، ثم في القصاص والوصايا والصيام وصولاً إلى الحج فناسب أن يتم ذكر أقسام الناس في الحياة الواقعية ليتم بيان أيهم حول التقوى إلى برنامجٍ عملي، وحوّل ذكر الله من كلامٍ إلى أفعال، وحول صور العبادات إلى حقائق في واقع الحياة، وروح تصوب سلوك البشر فكانت هذه الآيات.

قسّم الله الناس إلى صنفين بناء على أثر أنظمة العبادة فيهم:

الصنف الأول

من كانت العبادات عنده مجرد صور وحركات لا أثر عملياً لها في بناء التقوى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206)﴾ (البقرة: 204 - 206)، فوصف الله هذا الصنف حتى نحذره، ونحذر أن نتصف بصفاته التي يمكن أن تلخصها بأن إيمانه في اللسان وحقيقته كالشيطان؛

الصفة الأولى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فيشتغل بنشر الكلام الحسن للخداع وطلب الدنيا، أي يعجبك قوله في شأن الحياة الدنيا، أو يعجبك قوله في زمن الحياة الدنيا حيث لا يظهر الكذب من الصدق.

الصفة الثانية:

﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ يستشهد بالله كذبا وبهتانا فيقول: الله يعلم أو يشهد أنني كذا وكذا.

الصفة الثالثة:

﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة: 204) معنى ﴿ألد﴾ من لدّ يلَد إذا كان خصمًا، ولددت الرجل ألُده إذا غلبته بالخصومة، واشتقاقه من لديدتي العنق وهما صفحتاه، ففي أي وجه أخذه خصمه من يمين وشمال غلب من خاصمه، والخصام جمع خصم، والمعنى: وهو أشد الخصوم خصومة في محاولة إبطال الحق وإثبات الباطل ،فيحارب الصلاة، ويفسد في الأرض ثم يزعم أنه خير من أهل الدين.

الصفة الرابعة:

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ (البقرة: 205) (إذا تولى) أي مضى مدبراً بعد كلامه المعسول يتآمر ليفسد، وكذلك تعني إذا صار والياً أو أميراً، سعى أي مضى بسرعة ليفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل في الجوانب المادية بالإحراق وتدمير ثروات البلد، وفي الجوانب المعنوية بإدخال الشبه، وإيجاد البرامج والمؤسسات التي تزين الكفر

الصفة الخامسة:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: 205)، ونستنبط منها أن من صفات المفسدين محاربة الشريعة التي أنزلها الله لتحارب الفساد

الصفة السادسة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ (البقرة: 206) تبصرنا بأن من صفاته: الكبر والغطرسة والعناد، فوصفه الله بأنه تأخذه العزة بالإثم، والأخذ تناول الشيء باليد، أي استولت عليه عزة الجاهلية الملابسة للإثم والظلم، أو الحاصلة بسبب الإثم الذي في قلبه ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (ص: 2) فذكر الإثم للاحتراس من العزة المحمودة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: 8)

عاقبته ومآله:

تطاول عمره في الفساد، ونستنبط هذه الصفة من قول الله ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (البقرة: 206) فذكر عاقبته الأخروية بأن تصير جهنم مهاداً له أي فِرَاشاً يَأْوِي إِلَيْهِ فبئس المأوى ، وبئس الفراش، ولم يذكر عاقبته الدنيوية إشارة لتطاول مدته.

الصنف الثاني

من استفاد من العبادات في بناء التقوى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: 207) فأبرز صفاته أنه يشري نفسه أي يبيعها لربه أو يشري بمعنى يشتريها من ربه ببذلها مقابل مرضاة الله التي يقدمها على كل أهوائه، فإذا مر به موقف حياتي نظر الأرضى لربه، وليس الأقرب لهواه.

بصيرة

ختم الله ذلك بذكر رأفته ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ليزيل الوهم الناشئ من أن بيع النفس لله يعني عدم استمتاع البشرية بمتع الحياة، بل إن الله من رأفته شرع للعباد ما يرقيهم ويجلب لهم السعادة، ولا تتحقق بغير النظر إلى الثمار اليانعة التي يقطفونها عندما يبحثون عما يرضيه؛ إذ فيه سعادتهم، وذكر عموم العباد ليبين أن شريعته رحمة بالعالمين وليست تخص المسلمين

المحور السابع

الدخول في السلم كافة

(الإسلام والسلام)

(البقرة 208-214)

المحور السابع:

الدخول في السلم كافة (الإسلام والسلام)
[البقرة 208-214]

المناسبة والاتصال:

هذا المحور تداخل مع المحور التشريعي الفقهي الحياتي الذي جاء في الترتيب السادس ثم أكمل في الترتيب الثامن من محاور سورة البقرة ليسطر إعجازاً تربوياً وسياسياً، ويظهر جمالاً قرآنياً مبهراً، للسببين الآتيين:

السبب الأول:

ليبين الله لك الصلة الكبرى بين تطبيق شرائع الإسلام كافة، وفكرة بناء التقوى من خلال العبادات والأحكام السابقة، فقد قسم الناس إلى قسمين:

القسم الأول:

من يعجب الناس ظاهره وحلو منطقه، ويشهد الله على ما في قلبه، فيلزم صور العبادات ويترك مقاصدها، وهو الفاسد المفسد في حقيقته.

القسم الثاني:

المتقي الذي يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله.. فأمر الله القسمين أن يدخلوا في الإسلام كافة، دون الاقتصار على أخذ بعضٍ وترك بعض.

السبب الثاني:

إن كان المراد بالسلم الصلح والسلام فتكون المناسبة بيان أن الأصل في الإسلام السلام إلا على من اعتدى كما سبق في آيات حماية المجتمع، وجاءت هذه الآية بعد ما سبق ليبين الله أن حماية المجتمع، وذم المفسدين، وتشريع نظام الحماية الأمني لا يعني تسويغ الاعتداء على الآخرين؛ إذ الأصل في الإسلام السلم لا الحرب، وإنما ذكرها بعد الحج لأن إقامة الحج دليل على الاستقرار الأمني الذي يشهده المجتمع المسلم، ولأن تشريع القتال جاء رداً للعدوان القرشي الذي منع المسلمين من إتمام الحج والعمرة، ولذا استأنف الكلام هنا بأمر المسلمين بالرضا بالسلم والصلح في الحديبية؛ الذي عقده رسول الله مع أهل مكة عام الحديبية، لأن كثيرا من المسلمين كانوا آسفين من وقوعه

ذكر الله فريضة "الدخول في السلم كافة" في أول المحور ثم ذكر موانع الدخول في السلم كافة:

فريضة الدخول في السلم كافة:

بصيرة 1

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ (البقرة: 208) النداء يدل على التحضيض الشديد للمخاطبين ليُثبتوا إيمانهم بالدخول في السلم كافة، والمعنى الأول له:

الإسلام أي ادخلوا في كل شرائع الإسلام كافة في المجالات الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.. في الأمور القلبية والعقلية.. في فعل الطاعات، وترك الخطيئات.. ولا تنتقوا ما تشتهيه الأهواء، وهذا الأمر بالدخول لتثبيت الفاعلين، ولأمر المترددين، فالدخول فيه كافة ضمانة لأمنكم القومي.

بصيرة 2

المعنى الثاني للسلم: الصلح والسلام، أي ادخلوا أيها المؤمنون في جميع أنواع الصلح والسلام الداخلية والخارجية ما دامت لا تضاد الإسلام، ولا تضر بمصلحة المسلمين.

وفي كلا المعنيين رَدٌّ على من يفرق بين الإسلام كعقيدة، والإسلام كشريعة، ويفرق بين الإسلام في العبادات

القسم الثاني: ثم ذكر الله الموانع من الدخول في السلم كافة مرتبة ترتيباً منطقياً في الآيات (البقرة 208-214)، وهي:

المانع الأول:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ تبصرنا بأن اتباع الخطوات الشيطانية مانعٌ من الدخول في السلم كافة، حيث تسول هذه الخطوات للنفس اتباع بعض الشرائع والنُظُم الإسلامية، وترك بعضها، مثل استنكاف الميل إلى السلام، والاستهتار به بزعم الشجاعة، أو العكس بموالاة المعتدين

المانع الثاني:

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة: 208) تبصرنا أن من الموانع نسيان عداوة الشيطان بل تسخير وسائل الإعلام والثقافة للتشجيع على اتباع خطواته في تطور مذهل للغفلة، وتكريس للعبث.

المانع الثالث:

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: 209) تبصرنا بأن من الموانع تقحُم الزلات بدعوى سعة عفو ربِّ البريات، والاستهانة بالمخالفة لكلامه بفهم عفوه وغفرانه على وجه الخطأ، فالآية تتضمن الوعيد الشديد والتخويف، حتى يترك الزلل، فلم يقل: فإن زللتم فإن الله غفور رحيم بل قال: فاعلموا أن الله عزيز حكيم، والعزيز الحكيم إذا عصاه العاصي، قهره بقوته، وعاقبه بمقتضى عدله وحكمته.

المانع الرابع:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (البقرة: 210) تُبَصِّرُنا بأن من الموانع طول الأمل والغفلة عن يوم الحساب الإلهي، والمعنى: هل ينتظرون ليدخلوا في الإسلام كافة إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام أي قِطَع السَّحَابِ، جَمْعُ ظُلَّةٍ لأنها تظل الإنسان، فيكون معنى الآية حسب السياق: ألن يتوبوا حتى يحدث ذلك؟ وعندها ماذا سيرون وماذا سينفعهم وقد قضي الأمر؟ ثم عقب على ذلك فقال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (البقرة: 210)، فأمور الدخول في السلم كافة وترك ذلك أو بعضه كلها سترجع إلى الله الذي سيفصل لكل فردٍ حسابه بدقة.

المانع الخامس:

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ (البقرة: 211) تبصرنا بأن من الموانع انتظار المعجزة أي ألن يدخلوا في السلم كافة حتى تأتيهم معجزة.. فعند ذلك ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ (البقرة: 211) فأعطيناهم المعجزات ابتداء أو بناء على طلبهم، فماذا فعلوا؟ بدلوا نعمة الله كفراً.. ولذا قال الله بعدها: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة: 211) انظر كيف اتضح النظم القرآني المعجز.

المانع السادس:

علو الكفار، ويبصرنا به قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (البقرة: 212)، وهذا العلو جعل الكافرين يظنون الحق مرتبطاً بما أوتوا من قوة، مما يجعلهم يسخرون من المؤمنين فينحاز إليهم المترددون والخائفون من المؤمنين، ولا يحتملون الدخول في شرائع الإسلام كافة.

المانع السابع:

تعلق القلب بزينة الدنيا وهيامه بحبها، يمنعه من الدخول في السلم كافة، ويعزز في نفسه التعاظم على الآخرين بتملكها وحيازتها، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (البقرة: 212).

المانع الثامن:

﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تبصرنا بأن من الموانع عدم التوفيق الإلهي للدخول في السلم كافة، ومن معاني هذه الجملة:

1 المعنى الأول: لا يدخل الحساب في النعم المعطاة؛ لأن نعم الله لا تبيد ولا تنتهي كما قال النبي ﷺ: ((يَدُ اللهِ مَلأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)) (البخاري).

2 المعنى الثاني: يرزقهم بغير تقدير مكافئ لأعمالهم، فليس رزقهم حسب أعمالهم بل يفيض عليهم من عطائه فيضاً فيرزق من يشاء رزقا واسعا من حيث لا يحتسب المرزوق ولا يكتسب.

3 المعنى الثالث: يرزقهم بِغَيْرِ حِسَابٍ عَلَيْهِ مِنْ أَحَدٍ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَ وَرَزَقَ، فليس فوقه رب يخشى، ولا إله يدعى.

4 المعنى الرابع: ﴿بغير حساب﴾ أي دون أن يحاسبهم على أعمالهم في الدنيا؛ إذ الحساب على الأعمال في الآخرة.

بصيرة 1

ما أشد حرمان من يضع السدود المانعة بينه وبين عطاء الله وفيوض رزقه؛ رغم أن فضل الله واسع ورزقه مبذول ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

بصيرة 2

مساكين أولئك ومحرومون الذي يمنعون عن أنفسهم عطاء الله وفضله وواسع رزقه بما يجترحونه من إقامة السدود المانعة الدافعة لتنزل رحمته وتدفق رزقه ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

المانع التاسع:

البغي، ويبصرنا به قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: 213).

والمعنى ظاهر من الآية تماماً:

كان الناس أمة واحدة في الارتباط ببعضهم أو في الضلال إلا بقايا صالحة لا يذكرون، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين لإنقاذ البشرية، فاختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وأنزل الله مع النبيين الكتاب بالحق تأييداً لهم ليقودهم إلى تحقيق المصالح البشرية بأيسر طريق، ومن المصالح البشرية أن يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، إلا أنهم بدلاً من أن يجمعوا عليه لظهور بيناته اختلفوا فيه وفي تأويله، والذي اختلف فيه، فخالف هو الباغي من الذين أوتوه بعد ظهور ﴿البينات﴾، ويلحق بهم من بغى من المسلمين مع ظهور الحق، فقد قال الله: ﴿فإن بغت إحداهما﴾

و﴿البينات﴾ هي الدَّلائل

فعادت الْمَصْلَحَةُ مَفْسَدَةً، فبغى المخالفون على المؤمنين، فهدى الله المؤمنين المتيقنين الذين يبحثون عن مراد الله لا عن أهوائهم إلى الحق بإذنه بيسرٍ وتوفيقٍ.

المانع العاشر:

الابتلاء الشديد، وتأخر النصر، مما يحدث الزلزال العقلي في نفوس من يصيبهم البلاء، فربما ترددوا في الدخول في السلم كافة، ويبصرنا بهذا المانع قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: 214)، فذكر الله ثلاث ابتلاءات تحل بأصحاب الدعوة إلى الحق:

الْبَأْسَاء: وهي المصيبة الخارجية مثل الإفقار، والتشرد وضياع الأمن

وَالضَّرَّاءُ: وهي المصيبة الداخلية الجسدية كَالْجَرْحِ وَالْقَتْلِ والمرض والتعذيب

والزِّلْزَال: وهو الاضْطِرَابُ الشديد بتكرر أنواع التعذيب والابتلاء، و(زلزل) على وزن فعلل، وتكرار حروف زلزل يدل على شدة الزلزلة أو تتابعها، كما قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ (الشعراء: 94)، وَمَعْنَاهُ زَلِقَ وَانْحَرَفَ واهتز عقلياً ونفسياً لما يرى من تأخر نصر المظلوم على الظالم.

المحور الثامن

النظم التشريعية الحيوية

(القسط الثاني)

(البقرة 215-242)

المحور الثامن:

النظم التشريعية الحيوية (القسط الثاني)

[البقرة 215-242]

المناسبة والاتصال:

هذا المحور يبين حقائق تشريعية تدل على رحمة الله بعباده فلماذا لا تتبع؟ وذلك بعد أن بين الله في المحور السابق تلازم مبدأ الوحدانية لمبدأ الرحمة في صفاته سبحانه، فأنت ترى السورة بدأت بتقرير المبادئ الفكرية النظرية التي تحتاجها البشرية، فذكر الله الكتاب الذي يهدي العالم للإدارة الحياتية السليمة، وبيان أهم ما يدعو إليه الكتاب، وهو النظام العبادي القائم على الإيمان بالله الموصل إلى التقوى التي تعني وضع وقاية وحماية بين الإنسان وبين العواقب السيئة في الدنيا والآخرة. ثم ذكر الأدلة البرهانية على استحقاق الله للعبادة الموحدة، ومنها خلق السموات وتسخير الأرض لتكون مهيئة لاستقبال البشرية، ثم ذكر خلق البشرية، والهدف الاستخلافي من الوجود البشري، ثم عرض تجربة الاستخلاف الإسرائيلية (أصحاب البقرة) بين الإيجابيات والسلبيات باعتبارهم من أكثر الأمم تأثيراً على وجه الأرض، وبين تحول بعضهم إلى العنصر السيء الذي يكمل المهمة الشيطانية في تدمير البشرية، ثم فصّل الله قصة نجاح إبراهيم في الاستخلاف، ووراثة الأمة الإسلامية له، وتثبيت القبلة المركزية للحياة الأرضية لإقامة النظام العبادي لتتم النعمة.. وبعد أن ثبت النظم الفكرية التي تصور علاقة الإنسان بربه، وبالكون من حوله، وبأهم المكونات البشرية آن الأوان لتفصيل النظم التشريعية والقانونية لإتمام مهمة الاستخلاف في الأرض على نور رباني.

أقسام هذا المحور

القسم الأول:

1 الإنفاق المجتمعي لإعدام الفقر (البقرة: 215)

القسم الثاني:

2 توازن القوى في المجال العسكري لحماية المجتمع من الأخطار الخارجية (البقرة: 216-218)

القسم الثالث:

3 محرمات اللهو المدمر الخمر والميسر (البقرة: 219)

القسم الرابع:

4 مقدار النفقة، والاكتفاء الذاتي، وتحقيق الاستقلال الاقتصادي (البقرة: 219)

القسم الخامس:

5 الإصلاح الفكري والمالي لليتامى (البقرة: 220)

القسم السادس:

6 الأحكام الأسرية: تكوين الأسرة (البقرة: 221)

القسم السابع:

7 حدود المتعة في الحياة الزوجية (البقرة: 222-223)

القسم الثامن:

8 الأيمان في الحياة الزوجية وغيرها (البقرة 224-225)

القسم التاسع:

9 الإيلاء والسكينة في الحياة الزوجية (البقرة 226-227)

القسم العاشر:

10 الإعجاز التشريعي في الفراق الزوجي بما يقيم العدل والإحسان ويبقي الترابط (البقرة 226-227)

القسم الحادي عشر:

11 المحافظة على الصلوات في أوقاتها (البقرة 238-239)

القسم الثاني عشر:

12 أحكام إعطاء المتعة للمتوفى عنهن أزواجهن وللمطلقات (البقرة 240-241)

القسم الأول:

الإنفاق المجتمعي لإعدام الفقر (البقرة: 215)

المناسبة والاتصال:

أولاً

الْآيَات السَّابِقَة دَلَّتْ عَلَى أَنَّ حُبَّ النَّاسِ لِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أساس للسخرية من القوى المؤمنة التي قد تكون الأضعف في الواقع الدنيوي، فذكر الله مباشرة سؤال المسلمين عن نوعية النفقة (المخرَج) ولمن (المخرج له) ليبين ضرورة أن ينافسوا في تحصيل المال ويبرزوا في المنافسات الاستثمارية، حتى يتمكنوا من الإنفاق، فصحح بذلك مفهوم الزهد في الدنيا.

ثانياً

ذكر في الآية السابقة مباشرة الابتلاء باعتباره سبباً من أسباب تردد الناس في الدخول في السلم كافة، وذكر النفقة هنا باعتبارها من الشرائع والنظم الإسلامية التي يظهر بها التناصر والتعاضد والتثبيت بين المسلمين زمن الابتلاء، ووضح مصارفها غير الزكوية، كما ذكر الله الإنفاق قبل ذكر التوازن العسكري للأمة في الآية (216) ليؤكد على ضرورة الاهتمام بالبعد الاقتصادي المتراحم لينجح البعد العسكري المدافع.

مادة أولى

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ تبصرنا بأن السؤال يدل على أن المسلم الحقيقي يتحرى الحكم الإسلامي في الصغيرة والكبيرة من شؤون حياته، وضمير المخاطب في ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يوحي بأن المجتمع يحترم التخصصات فيتوجه بالسؤال إلى المخول علميا ومعرفيا بالجواب عنه، والفعل المضارع يدل على الاستمرار والتجدد، وأن المجتمع المسلم الناهض قد تأصلت فيه روح البحث العلمي حتى صارت صبغة غالبة على أفراده بحيث صار في حالة حيوية واستكشاف للحياة بالسؤال الدائم عن حكم الشرع في أمور الحياة.

مادة ثانية

﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ تبصرنا بإيجاز رائع حول قضيتين: مقدار النفقة، ومصارفها.

مادة ثالثة

﴿قُلْ﴾ تدل على أمرين:

- على مصدر التشريع الدستوري في حياة الأمة، وهو المصدر النبوي المستقى من المصدر الإلهي
- وتدل على ضرورة الإعلام والتعليم للتشريعات الإسلامية، فكلمة (قل) تعني الإخبار العالي بذلك إعلاماً وتعليماً لتظهر طبيعة النظام الإسلامي.

مادة رابعة

﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾(البقرة: 215) تبصرنا بطبيعة النفقة، حيث حوت كلمة (خير) المعاني الآتية:

المعنى الأول:

الذي يُنفق يكون خيراً للجميع، فهو خيرٌ للمعطي، وخيرٌ للآخذ، وخيرٌ للجماعة، وخيرٌ في ذاته

المعنى الثاني:

كلمة (خير) تشمل كل خيرٍ صغر أو كبر ولو كان ابتسامة أو شق تمرة، وهذا يدل على استنفار طاقات الأمة مهما تضاءلت للتعاون ولينفق كل إنسان حسب إمكاناته.. وذلك ليواجهوا معاً الابتلاء، أو ليتعاونوا في متطلبات البناء والإعمار في الحياة.

المعنى الثالث:

﴿خير﴾ تدل على الأطيب من جهة أخرى إن جعلناها اسم تفضيل، فيتحرى المنفق أفضل ما عنده فينفق منه، وخير ما لديه فيشارك الآخرين فيه، والمعنى: ما أنفقتم فليكن من الأخْيَر.

المعنى الرابع:

المال هو أول وأولى ما ينفق، وإضفاء صفة الخيرية عليه ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ يقرر فلسفة الإسلام الواقعية في النظر للمال وتنميته؛ إذ هو قوام الحياة وعنوان الثراء الحضاري.

مادة خامسة

﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ تبصرنا بأهم مصارف النفقة العامة غير الزكوية، وهم أصناف خمسة من المجتمع مسلمين كانوا أو كفاراً، وبذلك لا يمكن أن تطرق فتنة الجوع أحداً من أفراد المجتمع.

مادة سادسة

﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾ تبصرنا بعظيم منزلتهما، وعلو مكانتهما، وعظيم قدرهما في الإسلام، كما دلت على ذلك كثير من الآيات الكريمة، والأحاديث العظيمة، فقد قُدما وأُكرما، لأنهما الأولى بالإنفاق والمواساة قبل الآخرين.

مادة سابعة

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ تبصرنا هذه الجملة بضرورة الجمع بين النفقة ومطلق فعل الخير مهما قل أو تضاءل، كما تلفت قلوب المنفقين إلى الإخلاص لله في الإنفاق، وانتظار حسن ثوابه، وعدم انتظار شكر شاكر.

مادة ثامنة

المراد في الآية الإنفاق خارج الوعاء الزكوي؛ فإنه واجب محتوم، وكذلك الإنفاق خارج الواجبات الشخصية المعروفة مثل الإنفاق على الزوجة والأولاد.. فسياقها يرسم لنا صورة المجتمع المتراحم المتآزر الذي يتلمس أفراده حاجات بعضهم فتسد خلة المحتاج ويجبر المكسور ويعان.

القسم الثاني:

توازن القوى في المجال العسكري لحماية المجتمع من الأخطار الخارجية (البقرة: 216-218)

المناسبة والاتصال:

لما بين وجوب الدخول في السلم كافة في الآيات (208-214) وأشاع التكافل المدهش الذي يُعدِم الفقر من خلال آية النفقة (البقرة215) أوجب الإعداد العسكري لإيجاد توازن للقوى حتى تتم حماية المجتمع، وتُزال الفتنة عن المستضعفين والمظلومين، ويتحقق تأمين الرفاه الاقتصادي التكافلي؛ إذ من أسوأ جرائم المعتدين منع التكافل في المجتمع، وردّ الله على المشوشين على الإعداد العسكري من خلال بيان فظاعة الجرائم التي يرتكبها المعتدون، فيوغلون في إيقاع الفتنة في العالم، وبذلك يرد على المشوهين لمبدأ الجهاد كما يرد على مصاصي دماء العالم الذين يخترعون أفتك الأسلحة ويستعملونها ثم يركزون على أخطاء محدودة يقترفها غيرهم، وقد جاء القسم الأول بمثابة تأمين للجبهة الداخلية، وحفاظ على تماسكها وتكافلها، لتنجح في الوقوف صامدة في الجبهة الخارجية الآتي ذكرها في القسم التالي.

المادة الأولى

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ (البقرة: 216) تبصرنا بأن الأصل في الإسلام السلم، فالقتال مكروه طبيعة، وتزداد كراهته عند من يحملون شريعة الرحمة للعالمين، لكنه قد يجب عند الضرورة والحاجة؛ لأنه أساس الحماية من الاعتداءات القرشية والقوى المجرمة الأخرى، وهو يعني تفوق القوة التي تخضع في دينكم العظيم لشريعة الرحمة، بعكس الجهات الأخرى.

المادة الثانية

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ فهذا قانون حياتيٌ نفسيٌ يدل على أنك يجب أن تنظر إلى المصالح العليا لك وللمجتمع، وعند ذلك تحب المكروهات، وتبغض المحببات إذا ترتب على ذلك تحقيق المصالح العليا، ولذا وجب القتال رداً على الإجرام القُرَشي زمن نزول الآية، والإجرام عموما في أي زمن كان، فالأساس في حماية حضارة العدل التي تشرق على العالم تفوقُ القوة وفق شريعة العدل والرحمة.

المادة الثالثة

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 216) تبصرنا بأن نزرع الثقة والطمأنينة بعَظَمة نظم الشريعة المستمدة من عالم الغيب والشهادة الذي يعلم ما ينفعنا، ومن ذلك تشريع الجانب الوقائي، والأنظمة الأمنية والعسكرية التي تحمي الأمة، وهذه البصيرة ينبغي أن نرددها في حياتنا في كل أحداثنا.

المادة الرابعة

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ (البقرة: 217) تبصرنا باستمرار التشويش واللغط الإعلامي الفظيع الذي يردده المتطرفون حول فرضية القتال في الإسلام، ويقرر دلالة الاستمرار ومعناه الفعل المضارع ﴿يسألونك﴾ عن الشهر الحرام هل يجوز فيه القتال؟.

المادة الخامسة

﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ تبصرنا بضرورة صنع المحاور الإعلامي المتمكن الذي ينطلق من الحقائق المتفق عليها، وهنا يقول: أجبهم وحاورهم ولا تتهرب من مواجهتهم إعلامياً، وليكن جوابك عند التشويش واضحاً وصادقاً، وقل لهم الحقيقة، ولا تخف منها: نعترف بأن القتال في الشهر الحرام كبيرة من الكبائر.

المادة السادسة

﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (البقرة: 217)

أكمل الجواب وأنت تحاورهم، وبين لهم أن الفظائع الأربع التي يرتكبونها أكبر من الخطأ الذي وقع فيه بعض المسلمين، فالصد عن سبيل الله، والكفر به، والصد عن المسجد الحرام والكفر العملي به، وإخراج أهله منه .. كل واحدة من هذه الجرائم الأربع أبشع من القتال في الشهر الحرام فَكَيْفَ بِهَا وَقَدِ اجْتَمَعَتْ.

المادة السابعة

﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: 217) تبصرنا بقانون من أهم القواعد السياسية العالمية، وهي العلة العامة لمشروعية القتال، فالفتنة: عبارة عن الامتحان، فهي اسمٌ شاملٌ لما يعظم من الأذى في الأجساد، والشبه في العقول والقلوب، وهذا الأذى امتحان حقيقي لمعرفة الصادق من الكاذب، والله تعالى في هذا القانون يوجه الخطاب لثلاث فئات:

الفئة الأولى:

المسلمون:

فيحذرهم من أن الفتنة الشاملة للأذى والشبه أكبر مما يخافون وقوعه من القتل الذي يظنونه سيصيبهم عندما يقومون بواجب حماية الأمة.

الفئة الثانية:

المجاهدون:

فيحذرهم من أن عدم صبرهم على الجهاد وميلهم إلى القبول بالوقوع في الأسر ستترتب عليه خسائر أكبر من وقوعهم قتلى في سبيل قضيتهم. إنه العذاب الذي يتمنون معه الموت فلا يجدونه.

الفئة الثالثة:

المجرمون المشوشون على الجهاد:

فيقررهم بأن مجموع جرائمهم السياسية والعسكرية ضد العالم البريء الذي يشمل المؤمنين لا يمكن أن يقارن بارتكاب مسلم للقتل خطأً، هم يقومون بفتنة العالم بأسره، وتتخيل عندما تسمع كلمة (فتنة) هؤلاء المجرمين وهم يقومون بوضع العالم كله في قدور النحاس التي تغلي؛ إذ أصل الفتنة من فَتَنْتُ الذّهبَ بالنّار، إذا امتحنتَه.

المادة الثامنة

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: 217) وهذا قانونٌ سياسيٌ يرسم الواقع المستقبلي للأمة الإسلامية، ويوضح إصرار مجرمي العالم على الصبغة الدينية في خططهم العسكرية، ويُبَين أنه لا يمكن تغيير العقيدة الدينية القتالية لدى للمجرمين لكنها تتقاطع مع المصالح، والمصالح لا تلغي الصبغة الدينية.

المادة التاسعة

ينقسم المجتمع المسلم أمام فتنة المعتدين الخارجيين إلى صنفين:

الصنف الأول: المرتدون:

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ وهم الذين أصابتهم الفتنة فلم يثبتوا على دينهم، ولم يصدقوا في إيمانهم، فجوزوا بثلاث عقوبات:

العقوبة الأولى: ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ حبط من الحبَط، وهو يدل على بطلانٍ أو ألَم، حيث تأكل الإبل بشهوة للشبع فتصاب بالحبط وهو انتفاخ بطونها لكثرة الأكل فتموت، فحبْط الأعمال: زوال الآثار الشرعية الدنيوية والأخروية، فهذه العقوبة جواب لقوله: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾.

العقوبة الثانية: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، وقيل بأن هذه العقوبة جواب لقوله: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾

العقوبة الثالثة: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 217)، وذكر هذه العقوبة حثاً للمرتدين للرجوع إلى الدين بدلاً من التمادي في العناد؛ إذ الذي ارتد إنما ارتد بسبب الفتنة ابتغاء حياة زائلة، فماذا تساوي أمام عقوبة خالدة في النار؟

الصنف الثاني: الثابتون:

عرفهم الله بثلاث صفات: الإيمان والهجرة والجهاد ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فذكر الجهاد هنا ليشمل كل ميدانٍ يبذل فيه الجهد لإعمار هذه الحياة وفق المبادئ الإلهية العظمى: الرحمة والعدل والإحسان. جزاؤهم: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: 218)، والرجاء: ترقب الخير مع تغليب ظن حصوله.

بَصِيرَة 1

وفي إيراد الهجرة بعد الإيمان وإيراد الجهاد بعدها ما يفيد أن هجرة أهل الإيمان ليست هروبا وتنصلا عن قيام بمقتضى الإيمان ونصرته بقدر ما هي إعداد للنفوس وترتيب للصفوف للانخراط في جهاد شامل رجاء تحقق رحمة الله بهم وبالناس في الدنيا قبل الآخرة.

مقدمة للأقسام التي تلي القسم الثاني

المناسبة والاتصال بين القسم السابق وبقية الأقسام ضمن هذا المحور:

ذكر الله فيما سبق التشريعات الخاصة بحماية المجتمع ضد الاعتداءات والمؤامرات الخارجية، وشرع القتال لإزالة الفتنة التي سلطها المعتدون القرشيون وحلفاؤهم، ولإنقاذ المستضعفين في الأرض، وربط هنا بين هذا الإنقاذ لهم من الأخطار الخارجية وبين تحصين الأمن القومي من الأخطار الداخلية التي تهدد نسيج المجتمع، فذكر هنا خمسة حصون لتماسك الجبهة الداخلية للمجتمع:

الحصن الأول: الحذر من الوقوع في المحرمات مهما بدت ذات منفعة ظاهرة محدودة مؤقتة فإن حقيقتها الضرر المجتمعي العام والإثم البالغ ﴿يَسأَلونَكَ عَنِ الخَمرِ وَالمَيسِرِ قُل فيهِما إِثمٌ كَبيرٌ وَمَنافِعُ لِلنّاسِ وَإِثمُهُما أَكبَرُ مِن نَفعِهِما﴾ (البقرة: 219)

الحصن الثاني: المحافظة على سيرورة ودوران متطلبات الحياة المادية نفعا وانتفاعا ورفقا وارتفاقا، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة: 219)

الحصن الثالث: تلمس حاجات الضعفاء كالأيتام، وتعاهدهم بالإصلاح الديني والدنيوي، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ (البقرة: 220)

الحصن الرابع: تمكين البناء الأسري وتمتين وشائجه والتعامل الواقعي مع حالات عدم التوافق الزوجي، وهذه امتدت من الآية (221) إلى الآية (242).

الحصن الخامس: المحافظة على الصلوات في جميع الظروف ضمان لمجتمع قائم على الخير والعدل والتراحم، وسبب لشيوع السكينة بين أفراده (البقرة 239-238)

بصيرة 1 وفي توالي وتكرر (يسألونك) إشارة للحال الطبيعية المتأصلة في المجتمع الناهض الحريص على سلامة مصدر التلقي لموجهات السير ومرشدات الطريق.

القسم الثالث:

محرمات اللهو المدمر الخمر والميسر (البقرة: 219)

المناسبة والاتصال:

شيوع محرمات اللهو والميسر يدل على الرخاوة الشديدة للأمة في مجال الحفاظ على أمنها الدنيوي والأخروي، فكيف يمكن لها التحصن من الأخطار الخارجية وهي تلهو وتنفق أموالها عبثاً؟، وفي الوقت ذاته لا تجهد نفسها لإنقاذ أبنائها المحتاجين بإنفاق فضول الأموال عليهم، وبدلاً من إنفاقها على ما يحصن أمنها، ويقوي مناعتها تنفقها على الخمر والميسر، ولذا قدّم الله أمام الكلام عن هذين الخطرين الكلام عن الإيمان والهجرة والجهاد في الآية السابقة، وكلها مهام جسيمة لا يمكن القيام بها مع معاقرة هذه الملهيات المحرمة، وقد تكون هذا القسم من البصائر الآتية:

بصيرة 1 ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ تبصرنا بأنه لا بد أن يكون المجتمع يقظاً لا غافلاً، والسؤال عن الخمر والميسر من علامات يقظة المجتمع في البحث عما ينفعه، إذ يختلط الأمر على الناس في معرفة الصحيح والباطل نظراً لانتشار الخمر والميسر وعدم وضوح المباح والمحرم من ملاهي الدنيا، والفعل المضارع يدل على تكرار السؤال نفرة عنها من قبل المصلحين، ورغبةً فيها من قبل الراغبين.

بصيرة 2 ﴿عن الخمر﴾ تبصرنا بضرورة أن تسمى الأمور بأسمائها الحقيقية لفهم الواقع بوضوح، ولذا سمّى الله الخمر باسمها ولم يسمها المشروبات الروحية كما يفعل أتباع الشهوات، والخمر اسمٌ مأخوذ من خَمَرَ يَخمُر فهو خامر إذا غطى وستر، ومنه الخمار، وخمِرَ يَخمَر، فهو خمِر إذا تَغَيَّرَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، سمي به العصير إذا غلى واشتد وقَذَفَ بالزَبَد فصار مسكراً ثم سكن؛ فهو يستر العقل عن تصرفه الطبيعي الفطري، ويغيره فيدفعه إلى تصرفٍ غير لائق.

بصيرة 3 ﴿والميسر﴾ تسمية الأشياء على غير حقيقتها لا تحللها،﴿والميسر﴾ فالميسر تسمية جاهلية تزين المحرم، مشتقٌ من اليسر والسهولة ضد العسر والشدة، وحقيقته: غُرْمٌ مُحَقق بغنم محتمل، سموه بذلك ليزينوا أضراره المدمرة.

بصيرة 4 ﴿قُلْ﴾ تبصرنا هذه الكلمة بوجوب البحث عن الجواب في القضايا الحيوية في الوحي الإلهي بخلاف البحث في سنن الخلق المادية فإنه يتم الاكتشاف لها من خلال الواقع التجريبي.

بصيرة 5 ﴿قُلْ﴾ تدل على وجوب استخدام وسائل التبليغ المختلفة لإيصال مفاهيم الوحي الإلهي، ومنها التعليم والإعلام.

بصيرة 6 ﴿قُلْ﴾ جعل الجواب منه سبحانه مباشرة ليبين قطعية الحكم في أمرٍ يصر عليه أتباع الشهوات، ومدمرو المجتمعات، ولكن الجواب هنا غير قطعي التحريم، ولذا بقي من يشربها.

بصيرة 7 ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ هذا الجواب عن حكم الخمر والميسر يدل على وجوب النظر في جميع المسائل بما في ذلك الخمر والميسر بالعدل، فوجود الشرور الكبيرة في شيء لا يعني ألا تذكر المنافع الموجودة فيه، ووجود الخير لا يعني ألّا ينتبه للسوء الموجود.

بصيرة 8 ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ الخمر والميسر جمعت الشر الكثير والكبير، فقد قرأ الجمهور ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وصفاً للكيفية، وقرأ حمزة والكسائي ﴿كثير﴾ بالثاء المثلثة وصفاً للكمية، وَمِنْ أهم أضرارهما إِفْسَادُ المجتمع بِتَعْوِيدِ النَّفْسِ على تغطية العقل، والهرب من مواجهة المشاكل، وطلب الثراء من الطرق الْوَهْمِيَّةِ الضارة، وتجنب طرق الاستثمار الحقيقية النافعة كالتجارة والزراعة والصناعة.

بصيرة 9 ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ تبصرنا بأن الأحكام الشرعية قوانين للمنافع البشرية؛ إذ الشريعة تقوم على مبدأ المصالح والمفاسد، فالمنافع جمع منفعة، مصدر ميمي قصد منه قوة النفع، أو اسم مكان يدل على كثرة ما فيه كقولهم مسبعة ومقبرة، فذكر المنافع لبيان حكمة التشريع ليعتاد المسلمون مراعاة علل الأشياء، ولتأنيس المكلفين عند نزع أكبر اللذائذ التي يتباهون بها، ولإظهار عذرهم عما سلف منهم كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ (البقرة:187).

بصيرة 10 ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ تبصرنا بأنه يجب أن توجد الدراسة المتزنة للقضايا المختلفة حتى نُهدى سبل السلام فيها، فهنا ذكر الله تعالى أن هناك منافع حقيقية من الخمر والميسر من الناحية الاقتصادية وغيرها، ولكنها منافع يحفها الكثير والكبير من الإثم؛ إذ تدمر أفراد المجتمع على المدى البعيد من الناحية الجسدية والنفسية، وتزرع الأنانية وحب الأثرة.

بصيرة 11 هذه الآية أصل في الموازنة بين المصالح والمفاسد، والعمل بما رجحت فيه المصلحة على المفسدة، وتعد من القوانين الكلية العظيمة في الحياة

القسم الرابع:

الإنفاق يحقق الاكتفاء الذاتي (الاستقلال الاقتصادي)(البقرة: 219):

المناسبة والاتصال:

لما ذكر الخمر والميسر وما يترتب على إهدار المال عليهما من خسارة وتدمير للأمن والحياة الاقتصادية والاجتماعية بين ما يترتب على نمو المجتمعات من خلال عملية الإنفاق المتراحم الذي ربما ينقل الطبقات الوسطى إلى الغنية، وربما ينقل الطبقات الفقيرة إلى الطبقات الوسطى

بصيرة 1 ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ (البقرة: 219) تبصرنا بأن السؤال عن حكم الشرع في كل شيء يدل على الحركة العقلية التي تطلب الصلاح والرقي والنمو والبحث الجاد عما يريده الله لرفعة الناس.

بصيرة 2 ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة: 219) هذه الجملة عند النظر إلى الصلة الوثيقة لها بذكر الخمر والميسر في الآية نفسها بأن مفتاح أمن المجتمع وحماية المصالح والاستثمارات ليس في الإنفاق على محرمات الخمر والميسر، بل في التعاون والتراحم بين طبقات المجتمع وتوسيع النفقة على المستضعفين.

بصيرة 3 ﴿ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة: 219) تبصرنا بأن العفو ما زاد على حاجة المرء من المال لسنةٍ أو حسب حاله أي ما فَضُل بعد نفقته ونفقة عياله بمعتاد أمثاله، فالمرء ليس مطالبًا بارتكاب المآثم لينفق على المحاويج، وإنما ينفق عليهم مما استفضله من ماله كما أنه من العار والخطر الشديد أن ينفق على الخمر والميسر في الوقت الذي يموت فيه إخوانه جوعاً.

بصيرة 4 ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ تبصرنا بأن الإسلام يحث ضمنياً هنا على الاستثمار والاستقلال المالي، وتحقيق الاكتفاء الذاتي لينفقوا الزائد ويتنافسوا في تحقيق هذه المنزلة، وكيف ينفقون إن لم يملكوا ما ينفقون، فمبدأ إنفاق العفو أصلٌ اقتصادي عمرانيٌ يؤدي إلى حِفْظِ مَصَالِحِ الْأُمَّةِ وَأَعْمَالِهَا الْخَيْرِيَّةِ.

بصيرة 5 ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (البقرة: 219-220) تبصرنا بأن التشريعات الإسلامية تضمن تحقيق أفضل المصالح في الحياتين، فمعنى هذه الجملة المباركة: بين الله جل وعلا لكم الموازنة بين منافع الخمر والميسر ومضارهما، وبين لكم البديل لتنفقوا أموالكم عليه لتحققوا أفضل النتائج فيما ترغبون الوصول إليه من النعيم في الدنيا والآخرة.

بصيرة 6 ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ذكر التفكر في الحياتين ليبين ضرورة البحث عن أفضل الوسائل لتحقيق السعادة في الحياتين، وهو بذلك يفتح لنا الباب واسعاً للابتكار والاختراع وفق الثوابت التي يذكرها لنا جل في علاه.

القسم الخامس:

الإصلاح الفكري والمالي لليتامى (البقرة:220)

المناسبة والاتصال:

تتميماً للتحصين الداخلي الذي يبني العدل والإحسان، وقياماً بإنفاق المال في مواضعه ذكر الله كيفية الإصلاح الفكري والمالي لليتامى باعتبارهم شريحة مستضعفة ربما أهملت في زخم ضجيج الترف الذي يدل عليه الخمر والميسر، أو ربما ضاعت بسبب الاهتمام بالإنفاق على المساكين المذكورين في آيات سابقة، ولأجل أن يقوم المجتمع بواجبه في رعاية اليتامى رعاية قائمة على التأهيل الفكري، والإصلاح الاستثماري المالي، وليس على مجرد التعاطف المجرد والإحسان السطحي فقط، نرى الآية قد حوت عددًا من البصائر.

بصيرة 1

﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ (البقرة: 220) سؤال المسلمين عن مختلف القضايا الحيوية في واقعهم يدل على حياة المجتمع، ورغبته في سلوك الطريق الصواب، فمن أهم المهمات لحياة المجتمع نشر كل ما يتعلق بالإسلام.

بصيرة 2

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ تبصرنا بأن الإسلام قائم على الموازنة بين المحافظة على الحقوق مثل حقوق اليتامى، وبين إصلاح أوضاع أصحابها من الناحية المالية والفكرية

ويستبين ذلك من خلال معرفة سبب سؤال هؤلاء الموفقين عن اليتامى؛ إذ أنزل الله آياتٍ في اليتامى تحذر من قربان أموالهم مثل ﴿وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الأنعام: 152)، (الإسراء: 34)، فهل يترك مال اليتيم دونما استثمار خوفاً من قربان أمواله بالجوار؟، لذا تحركت العقلية الإيجابية المبدعة عند المسلمين فسألوا عن اليتامى من هذه الناحية.

بصيرة 3

التعامل مع اليتامى يتم وفق أصلين:

الأصل الأول:

﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ فيتحمل المجتمع (ممثلاً في حكومته وشعبه) إعانة اليتامى على إصلاح أوضاعهم الشخصية والمالية والفكرية في ذاتهم بالتقويم والتأديب، وفي أموالهم بالاستثمار كي لا تأكلها النفقة، فكلمة ﴿خَيْرٌ﴾ تتعلق بأربع جهات: الكفيل، واليتيم، والفعل، والمال.

الأصل الثاني:

﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي يجوز لإصلاحهم وترقية أمورهم الشخصية والمالية مخالطتهم والمشاركة معهم بالمعروف كما لو أنهم أخوة، بما في ذلك النكاح.

بَصِيرَة 4 ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ تبصرنا بضرورة تنمية حس المراقبة لله؛ إذ هي جملة مزدوجة المعنى تحمل وعداً، ووعيداً، وتعني أن الله يعلم دقائق التفاصيل في المشاركة والمخالطة هل تريدون بها الإصلاح أم تحتالون بها على الإفساد، وإن لم يستطع القائمون على القانون اكتشافها.

بَصِيرَة 5 ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ تبصرنا بأن الشريعة تقوم على إصلاح الحياة البشرية، وإدخال السرور عليها وليس على إعناتها وإدخال المشقة في حياتها

و«الإعنات» الحمل على مشقة لا تطاق يقال: أعنت فلان فلانا إذا أوقعه فيما لا يستطيع الخروج منه، فهذه الجملة تذكر بضرورة أن يدخل شعور الثقة بالأحكام الشرعية في نفوس العالم؛ إذ هي صادرةٌ من الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: 220).

القسم السادس:

الأحكام الأسرية: تكوين الأسرة (البقرة:221)

المناسبة والاتصال:

ذكر الله في القسم السابق الإصلاح المالي والفكري لليتامى ضمن الأسرة الكبيرة، وقد يكون من الإصلاح لهم الزواج من اليتيمات أو تزويجهن، فاقتضى هذا ذكر التشريعات الخاصة بالزواج والطلاق.. كما أن الإصلاح لليتامى مرتبط بإصلاح طرفي الأسرة: الزوج والزوجة، فكان لا بد من ذكر أهم أسس قيام الآصرة الزوجية، وانفكاكها لتكون عامل بناء في المجتمع لا عامل هدم.

بصيرة 1

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ (البقرة: 221) تُبصرنا بأن أهم شرط في الزوجة الإيمان، فيحرم نكاح المشركة، فيشمل وصف الشرك أهل الكتاب؛ إذ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ بَعْضِ عَقَائِدِهِمْ : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: 31)، وأخرجت آية المائدة نساء أهل الكتاب من عموم النهي عن نكاح المشركات ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

بصيرة 2

جمال المظاهر لا يغني عن فساد السرائر ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ (البقرة: 221) تبصرنا بأن العبرة بالإيمان لا بجمال الأبدان عند التعارض.

بصيرة 3

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ (البقرة: 221) تبصرنا بأن أهم شرط في الزوج الإيمان، وبأنه يحرم إنكاح المشرك، كما أن الفعل ﴿تُنكحوا﴾ ببنائه لِمَا لم يسمَّ فاعله يشير إلى أنه لا يجوز النكاح إلا بولي سواء أكان قريبًا أم قاضيًا أم من يقوم مقام أحدهما بشرطه.

بصيرة 4 جمال المظاهر لا يغني عن فساد السرائر ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ (البقرة: 221) تُبصرنا بأن التقديم يكون للإيمان لا لجمال الأبدان عند التعارض.

بصيرة 5 ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: 221)، تبصرنا بأن الفرق عظيم بين ما يدعو الله إليه، وما يدعو إليه المستسلمون للشهوات، فهو يدعو بشريعته ودينه إلى الجنة، ومغفرة الزلات والخطيئات

ومعنى ﴿بِإِذْنِهِ﴾:

أي بتيسير اللّه وتوفيقه للعمل الذي يستحق به الجنة والمغفرة، ومن الدعوة إلى النار الدعوة لتغيير ما شرعه الله من هذه الأنظمة والتشريعات الدقيقة، وبذا فالأسرة باب عظيم للجنة والمغفرة، وتدميرها باب رهيب للنار.

بصيرة 6 صِلَةُ الزَّوَاجِ قوية جداً بل هي الصلة الوحيدة في الحياة التي يحصل فيها الامتزاج الجسدي والعاطفي التام بين الزوج والزوجة فقد تدمر المظاهر الوثنية والفسقية في الطرف المشرك زينة الإيمان في الطرف الآخر

ولذا حرم الزواج من مشرك أو مشركة، وتم التسامح مع نساء أهل الكتاب حال كون المؤمنين سيتزوجون بهن لإحصانهن ووقايتهن من الزنا العلني والسري مع المراقبة الدقيقة لمظاهر الإيمان الحقيقي بحيث لا يؤدي الزواج إلى الردة عنه.. تأمل كل ذلك في قوله جل مجده﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة: 5)

بصيرة 7 ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة: 221) تبصرنا بأن مدار الحياة الفكرية الحقيقية هو آياته، والرجوع إليها والتفكر فيها، ولا يمكن للإنسانية أن تجد نفسها بغير ذلك.

القسم السابع:

حدود المتعة في الحياة الزوجية (البقرة: 222-223)

المناسبة والاتصال:

ذكر الله جل وعلا في الآية السابقة الصفة الأساسية للزوج والزوجة، وهي صفة الإيمان، وكان من المنطقي أن يذكر بعد الاختيار لشريك الحياة كيف يكون اللقاء بينهما، ولأنه قد وصف في آيات الصيام نوعاً من العلاقة الزوجية الحميمة ليجعلها تابعة لموضوع عبادي أصيل هو الصيام تكلم هنا عن الممنوع من اللقاء بين الزوجين، وهو ما كان حال الحيض، وبعد أن عرض لطهارة الأزواج الباطنة التامة (بوصف الإيمان) والطهارة النسبية (نساء أهل الكتاب) ناسب أن يعرض بعد للطهارة الظاهرة المحققة لكمال الاستمتاع وهي التطهر من المحيض.

بصيرة 1

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ تبصرنا هذه الجملة بأن الشعور بالمتعة الزوجية سادت بعد مجيء الإسلام في ظل ضوابط يعلمها من خلق الزوجين، ولذا أراد المجتمع الحي أن يعلم حدود هذه المتعة حتى لا يؤثر ذلك سلباً على الجنس البشري.

بصيرة 2

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ تبصرنا بأن المتعة الزوجية من حيث الزمان مفتوحة، ولا توجد لها حدود في اللقاء الزوجي، ولذا سألوا عن الوقت الممنوع ظناً منهم أنهم يمكن أن يباح لهم

فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ} إِلَى آخِرِ الآيَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ((اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ النِّكَاحَ)) (رواه مسلم)

بصيرة 3

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ تبصرنا بأنه يجب أن لا يُستحى من السؤال في الخصوصيات من تفاصيل الحياة والعلاقة الزوجية لغرض التوجه بعد ذاك إلى تطهير الحياة وتطويرها.

بصيرة 4 ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ يُذكّر هذا السؤال بالقوانين الخمسة التي ذكرها في متعة الحياة الزوجية للطرفين في آيات الصيام، وهذه القوانين الخمسة هي:

القانون الأول:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ الرفث: هو الإفضاء إلى النساء ومجامعتهن وهو من الأمور المشروعة ليالي الصيام

القانون الثاني:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ ليبين في هذا القانون أن المشروعية السابقة لا تعني مجرد الإباحة بل قد تصل إلى حيز الضرورة لطبيعة خلق الزوجين، فالنساء لباس للرجال، والرجال لباس لهن، واللباس للستر والإنسان بدون لباس مكشوف معرض للبرد والأمراض مخالف لفطرة الله سبحانه الذي خلق آدم عليها وستره وأنزل عليه وعلى ذريته من السماء لباسًا يواري سوءاتهم وريشًا، فهناك ضرورة جسدية تقتضي اللقاء بين الطرفين وفق عقد الزوجية.

القانون الثالث:

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ حديث النفس عن الطرف الآخر لا مانع منه، بل هو جزء من الحياة الطبيعية، فلا يُستحيا منه ما دام وفق المشروع.

القانون الرابع:

﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ والأمر هنا يحتمل الإباحة ويحتمل الندب ويحتمل الوجوب حسب حالة كل فردٍ وحاجته.

القانون الخامس:

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (البقرة: 187) إما من الولد، أو من اللذة التي تذهب الانزعاج وتجلب السكينة بعد قضائها.

ومن أسباب ذكرها في الصيام: بيان عدم حيلولة التدين العبادي المحض بين الإنسان وبين تمتعه، ولبيان أن الذي فرض الصيام شرع مباشرة النساء، فالإسلام يشمل جميع جوانب الحياة.

بصيرة 5 ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ تتابع السؤال عن حدود الله في مختلف شؤون الحياة علامة على الحياة المجتمعية.

بصيرة 6 ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ (البقرة: 222)، فحقيقة المحيض أنه أذى للرجل والمرأة.

بصيرة 7 ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ (البقرة: 222) يمنع اللقاء الزوجي الخاص وقت الحيض، فيجب اعتزال مجامعة النساء حتى ينقطع الدم على قراءة (يَطْهُرْن) ويغتسلن على قراءة (يَطَّهرن)،، والمحيض مصدر ميمي يصلح للزمان والمكان فكأنه قال فاعتزلوا النساء زمن الحيض في مكان الحيض

بصيرة 8 ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ يبصرنا استخدام هذه الكلمة دون غيرها أنه ينبغي الترقي في استخدام اللغة المستعملة في المخاطبات والمحادثات، فهذه الكلمة كناية عن الجماع.

بصيرة 9 ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يشرع التمتع بالمرأة في الموضع الذي أذن الله فيه بعد الطهر على سبيل الوجوب أو الاستحباب أو الإباحة حسب مقتضى حال كل من الطرفين.

بصيرة 10 ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ تبصرنا بضرورة الجمع بين الطهارة الباطنة والظاهرة.

بصيرة 11

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ ﴿أنى﴾ ظرف فتبصرنا بأنه يجوز الاستمتاع بالجماع على أي وجه كان في محل الحرث حيث ينشأ الولد بعد، وتشبيه النساء بالحرث ترقية في التعبير، والتعبير القرآني يربو على بلاغة بلغاء العرب مثل أبي طالب الذي قال في خطبته خديجة للنبي ﷺ: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل،

والزارع لا يترك موضعا من مواضع حرثه (مزرعته) إلا ويعمل فيه مثيرا ومقلبا ومتعاهدا له بالسقي وتنقيته من الحشائش الضارة، وهذا معنى يوجه إليه الرجل في استمتاعه وإمتاعه لزوجته وتؤيده دلالة عموم (أنى شئتم).

بصيرة 12

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: 223) لتتم السعادة الزوجية ينبغي الالتزام بهذه التوجيهات الإيمانية الأربعة، وبدأ بالأمر بالاستعداد ليوم الجزاء، وأعقبه بطلب التتابع فيه لتتحقق التقوى، ثم ذكرهم بأنهم ملاقو الله فجاء ذلك بمنزلة التعليل المتضمن للتبشير وللتحذير، وأعقب ذلك بالبشارة لمن استعد جيداً، وعلم أن الإسلام كما يُعلِّم العبادات الشعائرية فهو يُعلم العادات الحيوية.

القسم الثامن:

الأيمان في الحياة الزوجية وغيرها (البقرة224-225)

المناسبة والاتصال:

بعد ذكر أحكام اللقاء الفطري بين الزوجين ذكر ما قد يكدر الحياة الزوجية، ومن أهم المظاهر المعتادة كثرة الأيمان التي تصاحب الأسرة عند حدوث النزاع بين طرفيها الأساسيين غالباً، لذا ذكر الله أحكام الأيمان عموماً ثم خص ما يتعلق بالأيمان بين الزوجين (الإيلاء)، ومن أبرز البصائر التي نستنبطها من ذلك:

بصيرة 1 الأيمان جمع يمينٍ، وهو: الحلف، سمي الحلف يمينا أخذا من اليمين، وهي اليد التي ينجز بها الإنسان معظم أفعاله، اشتقت من اليُمْن، وهو البركة؛ لأن اليد اليمنى يتيسر بها الفعل أحسن من اليد الأخرى.

بصيرة 2 ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 224) تبصرنا بأن نُعَظِّمَ اسمَ الله بأن لا نجعله عرضة لأيماننا في كل شيء، أي لا تحلفوا دائماً، فكلما كان الإنسان أكثر تعظيما لله عز وجل كان في العبودية أكمل، ويكون قوله: ﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾ مفعولا لأجله، وهو علة للنهي؛ أي إنما نهيتكم لتكونوا أبرارا أتقياء مصلحين فالحلّاف يَكُونُ مَهِينًا، غَيْرَ مُعَظِّمٍ لِلَّهِ تَعَالَى، غير بارٍ يكذب في كلامه، ولا يثق الناس في قوله فلا يستطيع أن يقوم بريادة الإصلاح بينهم.

بصيرة 3 ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ هناك معنى ثانٍ لكلمة ﴿عرضة﴾ نبصر منه أن الحياة الزوجية تُبنى على السكينة وعدم اللجوء إلى اليمين في كل شيء، فإن تم اللجوء إلى اليمين فلا تجعلوا الأيمان عرضة، أي: مانعة وحائلة عن ثلاثة أمور: البر، التقوى، الإصلاح بين الناس، بل ينبغي الحنث فيها

ويكون ﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾ مفعول الأيمان بتقدير لا محذوفة بعد أن والتقدير ألا تبروا، فقد قال رسول الله ﷺ: ((لا نذر ولا يمين فيما لا تملك، ولا في معصية ولا قطيعة رحم)) (أحمد، وابن ماجة، وصححه الألباني)

بصيرة 4 تبصرنا هذه الآية المباركة بقانون واضح: إذا تزاحمت المصالح، قدم أهمها، فبر اليمين مصلحة، وامتثال أوامر الله في هذه الأشياء، مصلحة أكبر من ذلك، فقدمت لذلك، وظن تعظيم الله لا ينبغي أن يجعل وسيلة لتعطيل ما يحبه الله.

بصيرة 4 ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: 225) تبصرنا بأن التخفيف الشرعي من أهم مقاصد الشريعة الخاتمة، فقد عَلِمَ الله وقوع الناس في الأيمان، فقسم اليمين إلى قسمين:

القسم الأول

لغو: هو الساقط الذي لا يعتد به سواء كان كلاما أو غيره، فلا يؤاخذ عليه؛ لأنه خرج من غير كسب قلب كقول: "لا والله "و "بلى والله "وكحلفه على أمر ماضٍ، يظن صدق نفسه.

القسم الثاني

مكتسب: هو المنعقد في القلب الخارج بقصد، فتتم المؤاخذة عليه.

الإيلاء:

هو اليمين على ترك وَطْء الزوجة مدةً تزيد عن أربعة أشهر مثلُ: والله لا أجامعك أربعةَ أشهر.

بصيرة 1 ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (226) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إن آلى الزوج من زوجته أبداً أو مدة تزيد على أربعة أشهر، وأذهب بهذا الحلف السكينة في الحياة بمبرر أو بدون مبرر فيترك أربعة أشهر، ثم يُلزَم بالفيء وهو الرجوع إلى اللقاء الزوجي، ويُكَفِّر كفارة اليمين.

بصيرة 2 ينشد الإسلام للحياة الزوجية الاستقرار والسكينة، فإذا طرأ ما يشوش هذه السكينة مثل إيلاء الرجل من زوجته فإن الإسلام يضع لذلك الحلول والمعالجات الناجعة ولا يترك الحبل على غاربه للزوج في حال كهذه.

بصيرة 3 إن امتنع أُجبر على الطلاق، فإن امتنع طلق عنه الحاكم، والرجوع إلى زوجته أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ أي: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه، وهو الوطء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف، بسبب رجوعهم ﴿رَحِيمٌ﴾ حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة، ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك.

بصيرة 4 ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ التربص الانتظار والمراقبة، وتحديد أربعة أشهر؛ لأنها هِيَ الْمُدَّةُ الَّتِي لَا يَشُقُّ عَلَى الْمَرْأَةِ الْبُعْدُ فِيهَا عَنِ الرَّجُلِ، وَهِيَ كَافِيَةٌ لِتَرَوِّي الرَّجُلِ فِي أَمْرِهِ وَرُجُوعِهِ إِلَى رُشْدِهِ.

بصيرة 5 يحرم استغلال الأحكام للمضارة والمشاقة ولذا قال الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالكم عليم بأفعالكم وما تضمرون: هل تريدون السمع والطاعة أو التلاعب.

القسم العاشر:

الإعجاز التشريعي في الفراق الزوجي بما يقيم العدل والإحسان ويبقي الترابط الاجتماعي (البقرة 242-228)

المناسبة والاتصال:

لما ذكر الله أحكام الحياة الزوجية، وما قد يطرأ عليها من عوارض الغضب وعدم السكينة المفضية إلى الإيلاء فصل هنا أحكام الطلاق تفصيلاً يجعل الفراق بين الزوجين آمناً هادئاً بدلاً من أن يصبح مثاراً للنزاع والهجر والبغضاء والاقتتال، وهذا التفصيل الدقيق للطلاق لبيان أنه حكمٌ من أجمل الأحكام الشرعية التي يتم بها التوسيع على البشرية؛ إذ قد تبقى الرابطة العائلية بين زوجين متنافرين لعدم السماح بالطلاق دينياً كما عند الكاثوليك أو اجتماعياً كما عند بعض الشعوب، وقد يفضي ذلك إلى قتل أحد الطرفين، أو الوقوع في الفاحشة، أو مصائب أخرى.

طريقة العرض:

أخذ العرض هنا شكل الحدود والقوانين المنضبطة مع تعزيز قيم الوفاء والإثارة العاطفية بالتذكير بالفضل السابق، والتهييج الإيماني بالتذكير بتقوى الله ومراقبته، فترى هذا القسم يظهر على شكل مواد تشريعية (قانونية) ملزمة، ومواد خُلُقية، ومواد حاكمة معظمة تبين توثيق الشريعة، وجمالها، ومراقبة شارعها للتطبيقات البشرية، وذلك حتى لا تصبح الحدود في المسائل الأسرية مدعاة للتلاعب، والقصد من كل هذه التشريعات المحافظة على الكيان الإنساني الاجتماعي سعيداً مطمئناً حتى بعد الطلاق.

خريطة تفصيلية توضح الآيات:

ينقسم الفراق الزوجي إلى نوعين:

- فراق بعد المس
- وفراق قبل المس

وكلاهما يكون من إحدى الجهتين:

- إما من جهة الزوج
- وإما من جهة الزوجة (الخلع)

فتم ترتيب الكلام وفق الآتي:

الجزء الأول: الفراق بعد المس

الصنف الأول: صور الفراق بعد المس

الصورة الأولى:	الصورة الثانية:	الصورة الثالثة:	الصورة الرابعة:
الطلاق الرجعي بعد المس من جهة الزوج (البقرة: 228)	الطلاق الرجعي والطلاق البائن بينونة صغرى (البقرة: 229)	طلب الطلاق من جهة الزوجة (الخلع) (البقرة: 229)	الطلاق البائن بينونة كبرى (البقرة: 235)

الصنف الثاني:

ضوابط وحقوق

الفصل الأول: التلاعب بأحكام الطلاق (البقرة: 231-232)

الفصل الثاني: حقوق الرضيع على الزوجين المنفصلين (البقرة: 233)

الفصل الثالث: أحكام عدة المتوفى عنها زوجها (البقرة: 234)

الفصل الرابع: أحكام خطبة المرأة المعتدة غير الرجعية (البقرة: 230)

أولاً: التلاعب من جهة الزوج (البقرة: 231)

ثانياً: التلاعب من جهة أولياء الزوجة (البقرة: 232)

الجزء الثاني: أحكام المهور عند الطلاق قبل المس

الحالة الأولى:

1 من لم يفرض لهن مهر محدد (البقرة: 236)

الحالة الثانية:

2 من فُرِض لهن مهر محدد (البقرة: 237)

ثم ذكر القسم الحادي عشر: المحافظة على الصلوات (البقرة: 238-239)

ثم ذكر القسم الثاني عشر: حقوق النساء الباقية في ذمة الزوج بعد الفراق (240-242):

الحالة الأولى: حقوق المرأة المفارَقة بوفاة الزوج في السكنى (البقرة: 240)

الحالة الثانية: حقوق المرأة المفارَقة بالطلاق (البقرة: 241)

خاتمة القسم: هذا الترتيب المدهش للأحكام الجامع بين التشريع الدقيق المنظم والوعظ المبجل يفضي إلى الختام ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 242)

الجزء الأول: الفراق بعد المس

الصنف الأول:

صور الفراق بعد المس

الصورة الأولى: الطلاق الرجعي بعد المس من جهة الزوج (البقرة: 228)

بدأ به لأن الأصل في الحياة الزوجية المس ثم قد يأتي الطلاق، وتتلخص أحكامه في الآتي:

المادة الأولى

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: 228) تبصرنا بأنه يجب على المطلقات التربص (الانتظار أو الترقب) قبل الزواج الجديد ثلاثة قروء وهي الأطهار عند الشافعية، والحيض عند الحنفية، ولاحظ جمال التعبير عن الأمر بالتربص في قوله ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ حيث قدم الاسم لإفادة التأكيد والقوة والالتزام والثبات والانضباط بمقتضى الحكم.

المادة الثانية

﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ تبصرنا بأنه يجب على المطلقات أن ينتظرن فتح باب الزواج مجدداً المدة المحددة، والتربص: الانتظار المترقب، وبذا فإن العبارة تدل بصورةٍ مدهشة على مشروعية الزواج مجدداً، بل تشير إلى ضرورة التشوف له، وعدم اللوم على التفكير به مما يؤدي إلى سعادة المجتمع وصلاحه، وزاد ذلك بياناً في صورة كنائية عجيبة في قوله ﴿بأنفسهن﴾ لمجاراتهن في رغبتهن بمن يسترهن، ويضفي السكينة على حياتهن، فأنفس النساء طوامح إلى الرجال فأراد أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص.

المادة الثالثة

﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ تكل الآية أمر العدة والانضباط بها إلى النساء المطلقات أنفسهن وفي هذا من استثارة لمعنى مراقبة الله لديهن حيث لا رقيب عليهن سواه كما أن فيها تشريفا لهن حيث أوكلهن مسؤولية كهذه.

المادة الرابعة

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة: 228) تبصرنا بأنه لا يحل للمطلقات أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن من حمل أو حيض؛ ليتم العلم ببراءة الرحم أو بوجود حمل فيه، والشرط في قوله ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ليس المراد منه أن ذلك النهي مشروط بكونها مؤمنة بل هذا كما تقول للرجل الذي يظلم إن كنت مؤمناً فلا تظلم تريد إن كنت مؤمناً فينبغي أن يمنعك إيمانك من ظلمي.

المادة الخامسة

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ (البقرة: 228) تبصرنا بأن للأزواج الحق في رد المطلقات رجعياً إذا كانوا يريدون الإصلاح الأسري لا التلاعب، فإن لم يريدوا الإصلاح فلا حق لهم، فقصد الشارع في إيجاد السعادة الفردية إما بجمع شمل الأسرة، وإما بالفصل إن لم يوجد الإصلاح، وهذه هي الحكمة الثانية للعدة بعد تَبَيُّنِ الْحَمْلِ أَوْ بَرَاءَةِ الرَّحِمِ، وَهِيَ إِمْكَانُ الْمُرَاجَعَةِ.

المادة السادسة

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: 228) تبصرنا بأهم قانون يحفظ الحقوق الفردية، ويضمن السعادة الأسرية، فللزوجات من الحقوق مثلما عليهن من الواجبات بالمتعارف عليه؛ زمناً ومكانا وعادة، كالنفقة والكسوة والسكن والمعاشرة، والمماثلة هنا ليس في أعيان الأشياء بل الكفاءة في الحقوق المتبادلة حسب احتياجات كل منهما.

المادة السابعة

مادة حاكمة معظمة: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: 228)، تبصرنا بضرورة الشعور بالثقة بالتشريعات الإسلامية لأنها صادرة عن الله ذي العزة الغالبة والحكمة المطلقة في التشريع والتنويع في الأحكام، فهي تمثل أعظم الحلول للواقع الإنساني.

الصورة الثانية: بين الطلاق الرجعي والطلاق البائن بينونة صغرى (البقرة: 229)

المادة الأولى

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ (البقرة: 229) تبصرنا بضابط من ضوابط الطلاق لتحقيق حكمته، فقد كان الطلاق في الجاهلية بلا نهاية، فكان الزوج إذا أراد الإضرار بامرأته طلقها، فإذا شارفت على انقضاء عدتها، راجعها، ثم طلقها وصنع بها مثل ذلك أبدا، فحدد الإسلام الطلاق الرجعي الذي تجوز فيه المراجعة في طلقتين فقط فقال: الطلاق مرتان يجوز للزوج المراجعة بعد الأولى، وكذلك بعد الثانية، أما بعد الثالثة فلا.

المادة الثانية

﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ (البقرة: 229) تبصرنا بأنه بعد الطلقة الأولى والثانية إما أن يمسك بالمتعارف على جمال العشرة فيه، وإما أن يسرح بإحسان سواء من خلال الترك لتنقضي العدة أو من خلال الطلقة الثالثة، فإن لم يراجعها بعد الطلقة الأولى أو الثانية حتى انتهت العدة فقد بانت بينونة صغرى ولا يملك حق مراجعتها، بل يصير خاطباً من الخطاب، والإحسان منه إذا تركها بأن يؤدي إليها حقوقها المالية ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء ولا ينفر الناس عنها، ومنها بأن تتقي الله في أسراره التي اطلعت عليها.

الصورة الثالثة: طلب الطلاق من جهة الزوجة (الخلع) (البقرة: 229)

المادة الأولى

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ (البقرة: 229) تبصرنا بأنه لا يجوز أخذ شيءٍ من المهر أو مما أُعطيته المرأة ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾(النساء: 20) إلا أن يأتين بأمر يقتضي مفارقتهن فيجوز أخذ عوض أو التنازل عن حقها بالمخالعة لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة، ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾(الطلاق: 1)، ومن الإتيان بالفاحشة المبينة البذاءة المتكررة وسوء الخلق على الزوج أو على أحمائها، إلا أنه يحق للمرأة أن تطلب الخلع من الرجل إن خافا عدم التزام القوانين الشرعية، ونلاحظ أنه قدم الخلع على الطلقة الثالثة لأن الرجعة والخلع يصحان قبل وقوع الطلقة الثالثة، أما بعدها فلا يبقى شيء من ذلك.

المادة الثانية

الخلع جائز مطلقاً عندما تستوثق المرأة، أو الرجل، أو المجتمع من أن بقاء رابطة الزوجية سيناقض حدود الله في إقامة الحياة الزوجية، لأن الاستثناء في قوله ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ إما أن يكون استثناء متصلاً أو منقطعاً، وعلى العموم ينبغي للمرأة في حال استيثاقها من استحالة استمرارية الحياة الزوجية أن تتنازل فتقدم شيئًا من المهر أو المهر كله فداء لعدم البقاء على رابطة الزوجية، والخلع جائز ولو في غير حالة الخوف، لأن مجرد الضيق بين الزوجين يبعث نوعاً من الخوف في عدم إقامة الحدود المنظمة للحياة الأسرية، فالتقييد بالخوف لبيان الواقع عند تزعزع الثقة بين الزوجين في جدوى بقاء الرابطة الأسرية، ولذا قال الله في بيان حل ما تعطيه المرأة: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ (النساء: 4).

المادة الثالثة

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (البقرة: 229) تبصرنا بأن الخطاب هنا للأزواج والحكام والأمة (منظمات المجتمع المدني) التي تعين الزوجين على كيفية التعامل مع مشاكلهما الزوجية ويؤيد ذلك قراءة حمزة بضم الياء في ﴿إلا أن يخافا﴾، فإن خاف الزوجان أو خاف المجتمع (كالجهات الحكومية والشعبية المختصة والأقارب والأصدقاء) ألا يقيما حدود الله التي تتم بها السعادة الزوجية فلا جناح عليهما أن تطلب منه الفراق بالمخالعة ولا جناح عليه أن يقبل أو يطلب المهر أو الفدية ونحوها.

المادة الرابعة

مادة حاكمة معظمة: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: 229) تبصرنا بأن حدود الله ضمان للسلامة الشخصية والعامة، فمن تعداها فقد ارتكب الظلم في حق نفسه وحق المجتمع حوله، فاستحق التعزير الدنيوي والإثم الأخروي.

الصورة الرابعة: • الطلاق البائن بينونة كبرى (البقرة: 230)

المادة الأولى

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أي طلقها الطلقة الثالثة، فتصير بائنة عنه بينونة كبرى.

المادة الثانية

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ (البقرة: 230) تبصرنا بأن المرأة تبين من الرجل بعد الطلقة الثالثة بينونة كبرى، فلا يمكنه مراجعتها حتى تتزوج من غيره زواجاً كامل الأركان، فإن طلقها الآخر وانتهت عدتها، جاز أن يتزوجها الأول إن غلب على ظنهما إقامة حدود الله التي بها تكون السعادة وتحقيق الأهداف الأسرية في الحياة الزوجية.

المادة الثالثة

مادة حاكمة معظمة: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 230) تبصرنا بأنه لا يستفيد من هذه التشريعات العظيمة، ولا يشعر بعظمتها إلا الذين يتميزون بالعلم الحقيقي، أما الذين يشككون فيها فهم أكثر الناس جهلاً وظلماً.

الصنف الثاني: ضوابط وحقوق

التلاعب قد يكون من جهة الزوج، وقد يكون من جهة أولياء الزوجة:

الفصل الأول: التلاعب بأحكام الطلاق (البقرة: 231-232)

أولاً: التلاعب من جهة الزوج (البقرة: 231)

المادة الأولى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ (البقرة: 231)

تبصرنا بأنه إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن أي قاربن انتهاء العدة فأمسكوهن بأن تراجعوهن على الهيئة المتعارف على حسنها بينكم، أو تسرحوهن على الهيئة التي تدركون حسنها، وتوصفون بها بأنكم أديتم المعروف من أخلاقكم، فالأصل بقاء حُسْنِ المعروف من الأخلاق عند التعامل بين الناس حتى في الفراق.

المادة الثانية:

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾ (البقرة: 231) بأنه إذا كادت العدة أن تنتهي، وكان يمكنكم مراجعتهن، فلا تراجعوهن قصداً للاعتداء عليهن بأذيتهن أو إدخال الضرار عليهن، أو منعهن مما يسعدهن في الحياة، فإن قصد الضرر محرم، وهو ينعكس عليكم، ولذا قال ﴿ضِرَاراً﴾ بصيغة المشاركة لإشعار الزوج أن إرادته أن يضر المرأة من خلال المراجعة سيضر به هو أيضاً، فالله مطلعٌ عليه، وأنفاسه تعد، وأعماله تحصى في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، والاعتداء يولد الشقاء للمعتدي ولو بعد حين.

المادة الثالثة:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: 231) تبصرنا بأن الحدود الضابطة للسعادة الأسرية اجتماعاً وافتراقاً يقصد منها ضمان السلامة الشخصية والعامة، وبين أن تجاوزها ظلمٌ للنفس وللمجتمع، فمن تعداها استحق التعزير الدنيوي والإثم الأخروي.

المادة الأربعة:

مادة حاكمة معظمة أولى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ (البقرة: 231) تبصرنا بأن هذه الأحكام التفصيلية الرائعة التي تضبط الحياة شرعت لصالحكم، ولإيجاد العدل في البشرية، فمن تلاعب بها فقد اتخذ آيات هزؤاً.. وتلاحظ هنا أنه سبحانه يفصل بين الأحكام بجمل زاجرة ومواد حاكمة تبين اتصالها بالشارع الحكيم، لتثمر التسليم والتعظيم.

المادة الخامسة

مادة حاكمة معظمة ثانية: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾(البقرة: 231) تبصرنا بأنه ينبغي أن تتناقلوا إعلامياً وتعليمياً تذكر نعمة الله عليكم في الخلق البشري، والتكريم الإنساني، وتتذاكروا عبر وسائل الإعلام والتعليم والتربية والثقافة ما أنزل عليكم من الكتاب المتضمن لبيان كل شيء ومنها التفصيلات التشريعية المدهشة في كل جزئية حيوية، وكذلك تتذاكروا عبر الوسائل الإعلامية والتعليمية والثقافية ما أنزل عليكم من الحكمة المذهلة التي بينتها السنة حيث وضع كل شيء في موضعه، بصورة تباهون بها التشريعات البشرية الوضعية الأخرى.. ينبغي أن تتذاكروا ذلك بالقلب اعترافاً وإقراراً، وباللسان ثناء وحمداً، وبالأركان باستعمالها فيما يسعدكم من التزام حدود الله -جل في علاه- سواء أكان هذا التذاكر عبر المستوى الفردي أم كان عبر المستوى الجماعي

المادة السادسة

مادة حاكمة معظمة ثالثة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾(البقرة: 231)

مادة حاكمة معظمة رابعة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 231)

تتكرر هذه المواد الحاكمة المعظمة لتربي الإنسان على الاعتزاز بالتفوق التشريعي الذي تضمنته البصائر القرآنية، ولتجعل هذا التفوق المعجز حافزاً لأهل الإسلام ليقدموه للعالم ليخرج من شقائه البائس إلى نور السعادة التي يجدها في البصائر القرآنية، ولتحذر المسلم المستقيم من التلاعب بالبصائر القرآنية، والحدود التشريعية ليسخرها لأهوائه ومصلحته.

ثانياً: التلاعب من جهة أولياء الزوجة (البقرة: 232):

المادة الأولى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: 232) تبصرنا بأنه إذا طُلّقت النساء فانتهت عدتهن فلا يجوز عضلهن، فمعنى بلوغ الأجل هنا نهاية العدة، وفي الآية السابقة قرب نهاية العدة، والعَضْل منعٌ مع شدة والتواء واحتيال، فتضمنت هذه الآية أربع صور حسب المقصودين في قوله تعالى ﴿تعضلوهن﴾:

الصورة الأولى

تحذير أولياء المرأة أن يمنعوا المرأة المطلقة دون الثلاث من الرجوع إلى زوجها إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها، ورضيت بذلك.

الصورة الثانية

تحذير لأولياء المطلقة ثلاثاً إذا أرادت الرجوع إلى زوجها الأول بعد أن نكحت زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً، فلا يجوز لوليها من أبٍ وغيره أن يمنعها من التزوج به حنقاً عليه وغضبا واشمئزازا لما كان منه.

الصورة الثالثة

التحذير للأزواج المطلقين لأن بعضهم كان يحتال على منع مطلقته من الزواج حميةً.

الصورة الرابعة

يجوز أن يكون الخطاب للأمة لأنها مخاطبة بإقامة شريعة الله كلٌ بحسبه، ومن ذلك أن تسعى في الجمع بين المتزوجين تيسيراً للمهور، وقياماً مع المعسرين، وحلاً للمشاكل التي تعترض سبيل ذلك، ولا تكون بسكوت مؤسساتها الحكومية والمدنية جزءاً من عملية العضل.

المادة الثانية:

مادة حاكمة معظمة أولى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة: 232) تبصرنا بأن الكلام عن الأمر الشرعي التنظيمي للواقع الاجتماعي ليس قانونياً فقط بل هو وعظ يخاطب القلوب المؤمنة قبل أن يخاطب المحاكم التي تمتلئ بالقضايا التي لولا الاحتيال غالباً لما وجدت، فكأن المحتال المتلاعب على الأحكام التشريعية يفعل ما ينافي الإيمان بالله واليوم الآخر، فقد يظن الولي أن المصلحة في عدم تزويج وليته بالزوج الأول أو بغيره مع رغبة كل منهما في الآخر فينبغي أن يخالف هواه، إلا إذا تيقن وقوع المفسدة والضرر على موليته بالزواج من الأول أو غيره، وخصص بالوعظ المؤمنين دون غيرهم لأن المؤمن هو المنتفع به دون غيره، فحسن تخصيصه به

المادة الثالثة:

مادة حاكمة معظمة ثانية: ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ (البقرة: 232) تبصرنا بفائدتين عظيمتين لإقامة الحدود الضابطة للواقع الأسري:

الفائدة الأولى

القوانين أزكى للنفوس والمجتمعات أي تجعلهم أكثر نموًا وصلاحا وسعادة.

الفائدة الثانية

هذه القوانين والتشريعات أطهر للنفوس والمجتمعات أي تبعد عنهم الرذائل والغل والجرائم القلبية والنفسية والواقعية، فلا يختلف الزوجان والأولياء والأسر اختلافًا يؤدي إلى الحرب والإيذاء

المادة الرابعة:

مادة حاكمة معظمة ثالثة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 232)، تبصرنا بضرورة امتثال أمر الله لأجل تحقيق مصالح الإنسانية، فهو المحيط بما ينفعكم، فيستجيب المؤمن للأوامر الشرعية حتى لو جهل وجه المنفعة فيها؛ لأنه ينطلق من مصدر ثقة مطلقة بعلم الله الشامل.

المناسبة والاتصال:

ترى الترتيب منطقياً رائعاً؛ إذ يترتب على الطلاق النظر في حكم الأولاد بين الزوجين، ووسّط أحكام الطلاق بأحكام الرضاع لإثارة العاطفة الأبوية عسى أن تكون سبباً في عودة المياه إلى مجاريها بين الزوجين.

المادة الأولى

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ (البقرة: 233) تبصرنا بأنه ينبغي على الوالدات القيام بواجبهن في الإرضاع لمدة عامين سواء كن باقيات في كنف الزوجية أو مطلقات، وقيد الحولين هنا بالكمال فقال: ﴿كَامِلَيْنِ﴾ لأن الحول قد يطلق على الحول الكامل، وقد يطلق على معظم الحول.

المادة الثانية

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 233] تبصرنا بأن الأب يجب عليه النفقة الشاملة للمأكل والمشرب والمسكن، وكسوتها بالمتوسط المتعارف عليه زمانا ومكاناً حسب سعته، وعبر بالمولود له ولم يعبر بالوالد لأن نسبة الولادة هنا حقيقية في الأم أما هو فلم يلد بل وُلد له، ولتعلم أن الوالدات إنما ولدن الأولاد للآباء، فكأن النفع الأعظم تمتعاً وإعانة يصير للأب، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات، ولاستدرار عطف الوالد في التعامل معها بقاء وفراقاً.

المادة الثالثة

﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ (البقرة: 233) تبصرنا كلمة (تضار) بصورٍ متعددة في كلمة واحدة، فلا يجوز الضرر على الطرفين: فمن الضرر على الوالدة أن تُمنع من إرضاع ولدها، أو لا تُعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة أو الأجرة، ومن الضرر على المولود له أن تمتنع والدة ولده من إرضاع ابنها على وجه المضارة له، أو تطلب زيادة نفقة غير مبررة.

المادة الرابعة

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ (البقرة: 233) تبصرنا بأنه يجب على وارث الطفل إذا عدم الأب، وكان الطفل ليس له مال، مثل ما على الأب من النفقة والكسوة للمرضع.

المادة الخامسة

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ (البقرة: 233) تبصرنا بجواز أن يتفق الأبوان على فطام الصبي قبل الحولين بشرطين: رضاهما وتشاورهما فيما هو مصلحة للصبي ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في فطامه قبل الحولين.

المادة السادسة

﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ والتشاور في أدنى الأمور، كتشاور الزوجين في فطام المولود؛ إشارة إلى وجوبه في أعظمها كأمر الأمة.

المادة السابعة

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: 233) تبصرنا بأن مصلحة الصبي مقدمة؛ لذا يُبحَثُ له عن مرضعٍ حال حاجته لذلك، وظهور صعوبة إرضاع والدته له لمرض أو لظروف عارضة ألمت بها، ولا ينبغي نسيان حقوق المرضع حسب المتعارف عليه في حالها وزمانها.

المادة الثامنة

مادة حاكمة معظمة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: 233)

الجزء الرابع: أحكام عدة المتوفى عنها زوجها (البقرة: 234)

المناسبة والاتصال:

ذكر مدة العدة للمطلقة طلاقاً رجعياً أو بائناً فقال: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: 228)، وتفاصيل ما يترتب على ذلك، وحسن الانتقال بعد ذلك إلى الكلام عن حقوق الرضيع على الوالدين بعد أن حرم كتمان ما في الأرحام، وبقي من أحكام العدة عدة من تُوفي عنها زوجها ولم يطلقها.

المادة الأولى

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة: 234) تبصرنا بأنه يجب على المُتوفى عنها زوجها أن تعتد بأن تتربص أربعة أشهر وعشراً بنفسها، وبعدها يمكنها الزواج من غيره، ويدخل في هذه العدة الإحداد فتمتنع من أربعة أمور: مس الزينة ومس الطيب والنوم في غير بيت الزوجية، والخطبة من الغير تصريحاً، والغرض من العدة القيام بواجب الوفاء تجاه الزوج المتوفى وإظهار التوجع عليه إقرارا بسابق الفضل وتلبية لمقتضى المروءة، وأن يتبين الحمل في مدة الأربعة الأشهر، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، ولذا خُصّص هذا الحكم العام بالحوامل فعدتهن بوضع الحمل، والتربص: الانتظار المترقب لحدوث أمر جديد.

المادة الثانية

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: 234) تبصرنا بأن العدة تمنع المرأة من الزواج، ويزاد على ذلك أن المتوفى عنها زوجها تحد عليه فترة العدة، فإذا انقضت زال عنها هذا الحكم، فلا جناح على الأولياء أن يسمحوا لها أن تتزين وتتطيب ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالمتعارف على جوازه وشرعيته، وقوله ﴿فلا جناح عليكم﴾ خطاب للأولياء لأنهم الذين يتولون العقد، وخطابٌ للحكام والمجتمع ليقوموا بواجباتهم في إشاعة المعرفة والعمل بهذه الحدود الضابطة لحركة المجتمع كلٌ بحسبه.

المادة الثالثة

مادة حاكمة معظمة: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: 234)

الجزء الخامس: أحكام خطبة المرأة المعتدة غير الرجعية (البقرة: 235)

المادة الأولى

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ (البقرة: 235) تبصرنا بكيفية التعامل مع المرأة المعتدة عدة لا رجعة فيها، أو المتوفى عنها زوجها، فلا حرج على الرجال ولا إثم في أمرين:

الأول

التعريض بخطبتهن دون التصريح ﴿فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ والتعريض يطمئن فيه الرجل إلى أنه قد أوصل رسالة لهذه المرأة برغبته فيها، دون أن ينتهك الأدب الرفيع خلال العِدّة تعليماً للرقي في الأخلاق المجتمعية والتعريض لخطبتهن، كأن يقول لها: إنك لجميلة أو صالحة أو نافعة، ومن غرضي أن أتزوج ونحو ذلك، مما يوهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح.

الثاني

إكنان المحبة لهن، والرغبة في الزواج منهن ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، فالإكنان الإخفاء والستر ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (النمل: 74).

بصيرة الشارع يعطي هامشا للتواصل بين الجنسين إذا كان التواصل ملتزما بأهداب الأدب وراقي الأخلاق ومتقصدا فيه المآلات الخيرة المعتبرة شرعا كأن يفضي التواصل (الكلامي المحدود) إلى وصلة تتحقق بينهما بالنكاح في قابل الأيام.

المادة الثانية

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (البقرة: 235) تبصرنا بأن الله جل شانه أنزل الشريعة لتناسب الطبيعة، وتوافق الفطرة البشرية، ومن الفطرة البشرية ذكر النساء، وحبهن، فلا حرج أن يذكر الإنسان امرأة في نفسه أو لغيره مبيناً رغبته فيها، أي فاذكروهن وامتنعوا من مواعدة المعتدة بالزواج منها (وعبر عن الزواج بالسر)، أو لا تعرضوا بالنكاح سراً بل على الملأ؛ لأن "الْمُوَاعَدَةَ السِّرِّيَّةَ مَدْرَجَةُ الْفِتْنَةِ وَمَظِنَّةُ الظِّنَّةِ".

المادة الثالثة

﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ (البقرة: 235) تبصرنا بأنه يحرم زواج المعتدة حَتَّى يَنْتَهِيَ مَا كُتِبَ وَفُرِضَ مِنَ الْعِدَّةِ.

المادة الرابعة

مادة حاكمة معظمة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: 235)، تبصرنا بأنه يحرم التلاعب بهذه الأحكام كما حرم التلاعب من قبل في أحكام الطلاق.

الحالة الأولى: من لم يفرض لهن مهر محدد (البقرة: 236)

المادة الاولى

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ (البقرة: 236) تبصرنا بأن الطلاق قبل الجماع وقبل تسمية مهر محدد جائز، لأنه مصلحة إنسانية؛ فقد يبدو لأحد الطرفين عدم وجود مستقبل سعيد في تكوين هذه الأسرة لسبب أو لآخر، فأباح الله التراجع عن النكاح فوراً.

المادة الثانية

المراد بالمس الجماع، ولعله سماه به لأنه لا يتصور مسٌ من أجنبي لأجنبية إلا أن يكون عبر الزواج، ولأجل المشاركة الجسدية الزوجية، ولذا قَرَأَ الْجُمْهُورُ ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ من الْفِعْلِ الثُّلَاثِيِّ مسّ، لأن الرجل هو الذي يتقدم من أجل اللقاء الزوجي، ويقدم لذلك المهر، ويجب العدة من أجل فراقه، فهذه القراءة لبيان مكانة الرجل وإقدامه، وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ ﴿تُمَاسُّوهُنَّ﴾ بِالصِّيغَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمُشَارَكَةِ لأَنَّ الجماع تفاعل بين الاثنين، فهذه القراءة تصف الواقع من الاثنين، وَأَجْمَعُوا عَلَى قِرَاءَةٍ وَاحِدَةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ مَرْيَمَ حِكَايَةً عَنْهَا: (وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) (مريم: 20) لأَنَّهُ نَفْيٌ لِسَبَبِ الْوَلَدِ مِنْ قِبَلِ الرِّجَالِ لَا مَعْنَى لِلْمُشَارَكَةِ فِيهِ.

المادة الثالثة

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: 236) تبصرنا بأن الطلاق قبل المس قد يكسر المرأة؛ لذا عُوِّضت بالمتعة، فعليكم أن تمتعوهن بأن تعطوهن شيئاً من المال جبراً لخواطرهن، وبياناً لكون التراجع عن الزواج ليس لعيب شخصي بل لمصلحة السكينة المفقود بين الطرفين إن كونا تلك الأسرة، والْمُوسِعُ وَصْفٌ؛ مِنْ أُوسِعَ الرَّجُلُ إِذَا صَارَ ذَا سَعَةٍ؛ وَهِيَ الْبَسْطَةُ وَالْغِنَى، وَالْمُقْتِرُ مِنْ أَقْتَرَ الرَّجُلُ إِذَا قَلَّ مَالُهُ وَافْتَقَرَ، وضاق حاله.

المادة الرابعة

﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 236) تبصرنا بأن المتعة بإعطاء المطلقة التي لم تمس ولا مهر لها شيئاً تطيب نفسها به وَاجِبَةٌ حَاقَّةٌ على المحسنين في العبادة والتعامل، وذلك لجَبْر الوحشة الحادثة بسبب الطَّلَاقِ.

الحالة الثانية: من فُرِض لهن مهر محدد (البقرة: 237):

المادة الأولى:

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ (البقرة: 237) تبصرنا بأنه يجب نصف المهر المفروض لمن لم تُمَس وقد سُمِّيَ لها مهر بعينه، إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، أَوْ يَعْفُوَاْ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وهو الزوج في قول أبي حنيفة بأن يعطي المهر كاملاً، أو يعفو الولي في قول أصحاب الشافعي بأن لا يلزم الزوج بنصف المهر.

المادة الثانية:

مادة خُلُقية: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (البقرة: 237) تبصرنا بأن معاملة الناس على درجتين:

الأول: إقساط وعدل.

الثاني: كرم وإحسان وفضل.

فرغب الله تعالى في الفضل والإحسان، ومن التَّقْوَى اتقاء مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الطَّلَاقِ مِنَ التَّبَاغُضِ والعداوات ولذا ذكر بالفضل الذي يتضمن الْمَوَدَّة وَالصِّلَة.

بصيرة

(ولا تنسوا الفضل بينكم) مبدأ عام في أصول المعاشرة بين الناس عامة والأزواج خاصة، بألا يكون الفراق لأي سبب كان مدعاة لجحود سابقة الفضل وحسن العشرة، وكما قيل: (الحر لا ينسى وداد لحظة وينتمي لمن أفاده لفظه).

المادة الثالثة

مادة حاكمة معظمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: 237) تبصرنا بإحاطة الله بما يُعامِلُ به الْأَزْوَاجُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا تَرْغِيباً فِي الْمُحَاسَنَةِ وَالْفَضْلِ، وَتَرْهِيباً لِأَهْلِ الْمُخَاشَنَةِ وَالْجَهْلِ، فمهما احتال المرء على الخلق فإنه لا يمكنه الهرب من علم الله بأحواله الظاهرة والخفية.

تلخيص: أنواع المطلقات حسب المهر والدخول أربعة:

النوع الأول:
المطلقة المدخول بها بعد فرض مهر لها،

حكمها: تستحق المهر كاملا..

النوع الثاني:
المطلقة المدخول بها ولم يفرض مهر لها

حكمها: قال الله عنها ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾(النساء: 24) فلها مهر أمثالها. والعدة على هذين النوعين الأول والثاني ثلاثة قروء.

النوع الرابع:
المطلقة التي فرض مهر لها ولم يدخل بها، وهي المذكورة في الآية (237)

ولا عِدّة على هذين النوعين الثالث والرابع كما بين الله في سورة الأحزاب: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ ﴿الأحزاب: 49﴾.

حكمها: ليس لها مهر، ولها المتعة بالمعروف كما في الآية (236).

المطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها،
النوع الثالث:

القسم الحادي عشر:

المحافظة على الصلوات في أوقاتها (البقرة238-239)

المناسبة والاتصال:

إنه الانتقال التربوي البديع حيث أمر الله بالمحافظة على الصلوات قبل إكمال أحكام الفراق الزوجي، وذلك للأسباب الآتية:

السبب الأول:

ليبين أهميتها في ذاتها: إنها أعظم ملاذ للإنسان في الحياة، ولا تستقيم الحياة وتصلح إلا بها، ولئلا يلهي ضجيج النزاعات الأسرية عن الصلاة.

السبب الثاني:

ليبين أثرها في غيرها، أي أثرها في تذكير ذوي الفضل بالفضل والعفو، وتذكير الزوجين بأولويات أخرى يستصغرون خلافاتهما بجوارها.

السبب الثالث:

ليبين أهمية الصلاة في هدوء النفس، وسكينة القلب مما يحتاجه الزوجان قبل الطلاق وبعد الطلاق.

تكون هذا القسم من البصائر الآتية:

بصيرة 1 ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ (البقرة: 238) تبصرنا بأن المطلوب المحافظة على الصلوات، وذلك يقتضي المداومة، وتجييش الأجهزة الإعلامية والتعليمية والأمنية للتنبيه على أهميتها، وخاصة الصلاة الوسطى التي هي العصر أو الفجر

وقد ذكر محمد بن سيرين رحمه الله أن رجلاً سأل زيد بن ثابت رضى الله عنه عن الصلاة الوسطى فقال: حافظ على الصلوات كلها تصبها، وعن الربيع بن خيثم رحمه الله أنه سأله واحد عنها فقال: يا ابن عم الوسطى واحدة منهن فحافظ على الكل تكن محافظاً على الوسطى ثم قال الربيع: لو علمتها بعينها لكنت محافظاً لها ومضيعاً لسائرهن، قال السائل: لا! قال الربيع: فإن حافظت عليهن فقد حافظت على الوسطى.

بصيرة 2 ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: 238) تبصرنا بأن نقوم مخلصين لله ذليلين خاشعين ذوي سكينة وخفض جناح مع سكون الأطراف وترك الالتفات ولتملأ قلوبنا الهيبة والرهبة، وهذا يتضمن الأمر بالقيام والنهي عن الكلام.

بصيرة 3 ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ (البقرة: 239) تبصرنا بأن من لم يستطع القيام قانتاً بسبب الخوف سواء أكان من ظالم أم من سبع أم من غيره فليحافظ عليها على الهيئة المناسبة لهم سواء كنتم ﴿رِجَالًا﴾ أي: مشاة على أقدامكم، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على الخيل والإبل والطائرة وغيرها

سواء أكانوا مستقبلي القبلة أم غير مستقبليها، والآية تدل على شدة التأكيد على المحافظة على الصلوات في السلم إذا كان مثل هذا التأكيد وارداً في الحرب.

القسم الثاني عشر:

أحكام إعطاء المتعة للمتوفى عنهن أزواجهن وللمطلقات (البقرة240-241)

المادة الأولى

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ (البقرة: 240) تبصرنا بأن الله تعالى يوصي أولياء الأزواج المتوفين بعدم إخراج زَوْجاتهم من السكن لمدة عام باعتبارها نوعاً من المتعة المطلوبة لهن، وهذا قريبٌ من تفسير مجاهد.

المادة الثانية

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ (البقرة: 240) تبصرنا بأن ما ذكر الله في الآية (234) هو مدة العدة الواجبة على المتوفى عنها زوجها وهي أربعة أشهر وعشراً، وأما في هذه الآية فقد ذكر الله أن الوصية واجبة أو مستحبة على الأزواج بأن يوصوا ببقاء زوجاتهم في بيوتهم تتمة السنة إلا أن يخرجن باختيارهن فالإلزام للأزواج لا للزوجات.

المادة الثالثة

مادة حاكمة معظمة: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: 240) تبصرنا بضرورة الثقة والاطمئنان والتسليم لشرع الله، فهو صادرٌ من عزيزٍ لم يفرض عليه غيره وضع قوانين غير مناسبة، حكيمٍ يضع كل شيءٍ في مكانه المناسب.

المادة الرابعة

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 241) تبصرنا بأنه تجب المتعة لكل مطلقة أو تستحب ولو كان ذلك بعد المس، والمتعة شيءٌ يتم به استرضاء المرأة ويعبر عن حسن الأخلاق في الفراق.

ختام هذه التفاصيل:

مادة حاكمة معظمة ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 242) تبصرنا بأن الله يخاطبنا بعد هذه المواد التفصيلية القانونية المدهشة فيقول: بين الله لكم الأحكام التشريعية التي تحفظ حياتكم، وتنمي السعادة في المجتمعات، وتقيمها على العدل والفضل، فجعلها علامات تدل على الإعجاز التشريعي المستوعب لأمور الحياة، وبينها الله بهذه الهيئة لتكمل عقولكم، وتتسع مداركم، فكأن من أعرض عنها مجنونٌ معتوهٌ يبغي تدمير المجتمعات مهما زخرف قوله، وزين آراءه.

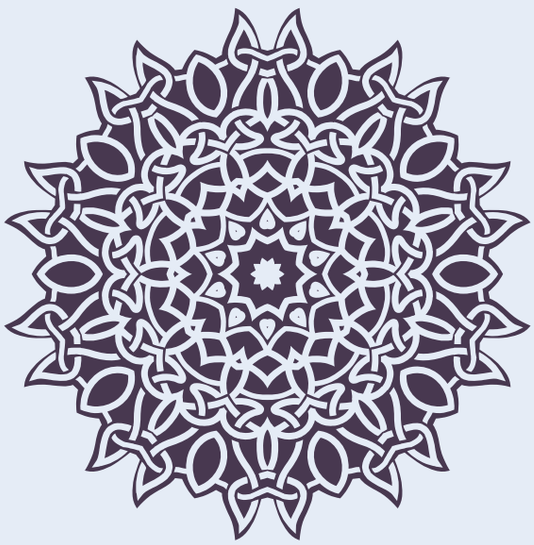

المحور التاسع

سنن الخروج من حالة الاستضعاف وصناعة التوازن والسلام العالميين

(سنة التدافع)

(البقرة 243-254)

المحور التاسع:

سنن الخروج من حالة الاستضعاف وصناعة التوازن والسلام العالميين {سنة التدافع} [البقرة 243-254]

المناسبة والاتصال:

إذا كان قد ذكر فيما سبق الأحكام التشريعية الحيوية الفقهية، فما وجه إتباع ذلك بقصة طالوت مع بني إسرائيل وما مناسبته؟

والجواب: أنه لا يمكن لهذه الأحكام أن تطبق دون وجود مجتمعٍ مستقرٍّ آمن، ويصعب تطبيق أنوار هذه الأحكام في حالة الاستضعاف.. فذكر الله هنا نماذج سُننية من حياة بني إسرائيل تبين كيفية الخروج من أزمة الاستضعاف، وربما كانت هذه الآيات تهيئة لفتح مكة حيث عاد المسلمون إليها بعد إخراجهم منها، كما أُخْرِجَ بنو إسرائيل في قصة طالوت.

الأسلوب القرآني في هذا الموضع:

هو أسلوبٌ قصصي يثير استلهام سنن معالجة الأزْمة، والخروج من أزمة الاستضعاف مع التعليق الختامي المناسب، ويغلب على الأسلوب القرآني الأسلوب التصويري للمشاهد القصصية لتظهر كأنها تبث على الهواء، وتقع أمام الأعين، حيث يقول الله تعالى ﴿ألم تر﴾.

وقد تكون هذا المحور من أربعة أقسام:

القسم الأول: المواجهة وعدم الانهزام أساس إقامة الحياة (243-244):

بصيرة 1

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ (البقرة: 243) تبصرنا بأن الانهزام في المواجهة الضرورية ابتغاء الحياة مدعاة للموت غير الشريف أو الحياة المذلة، فسياق الكلام يبين قصة قوم هم (ملأ) يملأ العين جمعهم وحالهم، فهم ألوفٌ، فلما هجم عليهم عدوهم تركوا ديارهم، وآثروا الهزيمة على المواجهة، فأراد الله أن يجعلهم للعالم آية، فأماتهم في طريق هربهم.

بصيرة 2

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تبصرنا بأن من فضله على الخلق تشريع الجهاد لمواجهة الاعتداء، والخروج من حالة الاستضعاف.

بصيرة 3

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (البقرة: 244) تبصرنا بأن القتال يجب أن يكون (في سبيل الله)، وسبيل الله يعني الحماية للمستضعفين، وحماية الديار والأبناء، وأن يكون خالصاً له ليبين رحمته بالعالمين، وليس لشهوات الانتقام والثأر وإسالة الدماء، ولذا ختم الآية بقوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لتحمل الوعد للصادقين، والوعيد للذين يستخدمون الجهاد مطية لنشر الإجرام والفساد.

القسم الثاني: الاهتمام بالاقتصاد التكافلي أحد أهم السنن للخروج من حالة الاستضعاف (البقرة245):

بصيرة 1

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة: 245)؛ تبصرنا بضرورة الاستثمار والإقراض؛ إذ لا يمكن لأحد أن يقرض شيئاً إن لم يعمل على إيجاده من خلال الاستثمار الحقيقي، والآية سيقت بأسلوب استفهامي للتشويق وإثارة السباق كأن الله يقول: من المتفوق الذي سيفعل ذلك؟

بصيرة 2 ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ تبصرنا بأن الله سمّى الإنفاق قرضاً؛ لأن الذي ينفق سيضمن بأنه عارية مؤقتة يوشك أن ترجع إليه.

بصيرة 3 ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ تبصرنا بصفة القرض ليستحق صاحبه الأجر، حيث وصفه الله بالحسن، وذلك بأن تتوافر فيه ثلاث صفات: أن يكون حلالاً، وأن لا يتبع ذلك الإنفاق مناً ولا أذى، وأن يفعله قربة وحب إغاثة العالمين لا رياء وسمعة.

بصيرة 4 ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: 245) تبصرنا بالأساس الإيماني للقرض الحسن؛ إذ يقوم على الإيمان بالغيب وأن الله الذي بسط الرزق لأقوام في حين قد يقبضه عنهم في حين آخر، فتهدأ النفوس القلقة من الفقر.

بصيرة 5 ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تبصرنا بالأساس الإيمان الثاني للقرض الحسن، وهو الرجوع إلى الله الذي يعني: الرجوع إلى شرعه بترك تجريب سفاهات العقول المخالفة له، والرجوع إليه يوم القيامة لنجد أن الإنفاق غير ضائع بل سنجده كاملا موفراً مضاعفاً.

القسم الثالث: السنن الإسرائيلية المتميزة الناجحة للخروج من حالة الاستضعاف، والنجاح في المعارك الحضارية (البقرة: 252-246):

المناسبة والاتصال

أَصْحَابُ الْقِصَّةِ الْأُوْلَى هربوا من المواجهة ففقدوا اسْتِقْلَالهمْ، ثم ماتوا في هربهم، فلم يغن هربهم عنهم شيئا، وهنا حاز العدو ديار بني إسرائيل، وسيطر على أبنائهم وثرواتهم، فاستعملوا السنن الفعالة للتغيير، فالقصة الأولى تشنع حال الذين استسلموا وعدوا أنفسهم من الضعفاء، والثانية تبين كيفية الخروج من الضعف، وتبرز الصدق أمام زيف الادعاء.

الفصل الأول:

(بداية النور) سنن البحث عن الخروج من حالة الأزمات والاستضعاف (البقرة246):

السنة الأولى

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (البقرة: 246) تبصرنا بأن السنة الأولى: اجتماع (الملأ) وهم نخبة المجتمع الباحثون عن إنقاذه وحمايته يَمْلَئُونَ الْعُيُونَ رِوَاءً وَالْقُلُوبِ هَيْبَةً، فيجتمعون للبحث في الحلول الممكنة الصادقة للإنقاذ.

السنة الثانية

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ تبصرنا بضرورة الاستيثاق من صدق العزيمة، والاستعداد للنهوض بالتبعة الثقيلة.

السنة الثالثة

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ (البقرة: 246) تبصرنا بضرورة بيان أهداف القتال، وهو أن يكون ﴿في سبيل الله﴾، وذلك يعني حماية الديار والعيال؛ وأن يكون مخلصاً لله لا للشهوات الذاتية، ولا للرغبة في الانتقام، والتمتع بالقتل.

السنة الرابعة

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ (البقرة: 246) تبصرنا بأن وجود الأدعياء وارد في كل قضايا الحق، ولذا لا بد من الحذر منهم.

السنة الخامسة

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 246) تبصرنا بأن القتال للذود عن الأبناء والديار مدعاة للافتخار لا للاعتذار، فالظالمون من وضع الشيء في غير موضعه، وهم نوعان:

النوع الأول

من ظلم نفسه والعالم بتشويه الجهاد بأن حرفه عن أهدافه، فاعتدى وقتل الأبرياء.

النوع الثاني

من ظلم نفسه والعالم بترك الجهاد، فانساق وراء الأوهام الشيطانية جبناً وهلعاً.

الفصل الثاني:

عقبات الإخفاق في الانطلاق (البقرة247):

العقبة الأولى

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ (البقرة: 247) تبصرنا بأن أول عقبة في الانطلاق التنازع على الرئاسة والزعامة، فذلك يدمر الحركات التحررية الصادقة.

العقبة الثانية

المقياس الجاهلي المدمر في تولي المناصب بتقديم: شرف النسب ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾، وكثرة المال ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ بدلاً من الكفاءة، والانجرار لاعتماد هذين المقياسين الجاهليين، يؤدي إلى إلغاء فكرة العدالة والبحث عن الكفاءات.

العقبة الثالثة

إيراد الشبه على الحق، وكثرة الجدل العقيم كما حدث هنا من بعض بني إسرائيل.

أهم الصفات المؤهِّلة في اختيار قيادات مرحلة الخروج من الاستضعاف (البقرة 247-248):

الصفة الأولى:

الاِسْتِعْدَادُ الْفِطْرِيُّ ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: 247)، فالاصطفاء لأسبابٍ لا تخرج عن الاستعدادات البشرية الكسبية، فلم يقل (لكم) كما قال ﴿اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ (البقرة: 132) الدال على الاختيار المحض الذي لا مكان فيه لرأي البشر.

الصفة الثانية:

التفوق العلمي الّذي يَكُونُ بِهِ التَّدْبِيرُ وكمال الرأي ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾.

الصفة الثالثة:

بَسْطَةُ الْجِسْمِ، فيُحتاج إليه حسب المسؤولية ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، ولفظ الزيادة يعبر بها عن وجود مقاربين له لكنه كان أكثرهم تأهلاً.

الصفة الرابعة:

التَوْفِيقُ الإلهي ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 247)، وهذه الجملة تقتضي أيضاً أنه بعد الاختيار ينبغي التسليم والرضا وعدم المشاقة

الصفة الخامسة:

ضرورة التمييز بين الاصطفاء الإلهي والاختيار البشري: ففي حال وجود الاصطفاء الإلهي بسبب إخبار نبي فإن المؤمنين يسلمون، ويزدادون يقيناً بإظهار آية من الآيات ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: 248).

بصيرة

﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 247) تبصرنا بأنه كما ينبغي للناس أن يبحثوا عن مخارج من حال الاستضعاف والانطلاق نحو التحرر فإن مما يتوجب إدراكه أيضا أن الله يهيئ أسباب ذلك ويسخر من بين عباده من ينهض بعبء المهمة ويقود الأقوام بصدق وحق للانعتاق والخلاص.

الفصل الرابع: سنن اصطفاء الجنود وتمحيص الصفوف [البقرة251-249]:

السنة الأولى

إجراء الاختبارات الميدانية لمعرفة مدى صدقية المتابعة والثبات ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ تركوا مقامهم الرخي الآمن ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ (البقرة: 249) والاكتفاء بالغرفة فقط لقياس مدى الإيمان بالغيب ولاختبار مدى اليقين ببركة القليل المقترن بالصدق، وكذا لقياس قوة الانضباط والالتزام والطاعة والثبات التي تتطلبها مرحلة الإعداد لمواجهة الظلم ومدافعته.

السنة الثانية

النتائج المتوقعة من الاختبارات الميدانية مؤلمة لكن لا ينبغي أن تحبط اليقين الصادق ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ (البقرة: 249)، فـ"الْعَدَدُ الْقَلِيلُ مِنْ أَهْلِ الْعَزَائِمِ يَفْعَلُ مَا لَا يَفْعَلُ الْكَثِيرُ مِنْ ذَوِي الْمَآثِمِ".

السنة الثالثة

الحذر في المعارك المصيرية من المخذلين والمرجفين الذين يظهرون بمظهر الحكمة والدهاء السياسي، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ (البقرة: 249) مع أنهم مؤمنون نجحوا في اختبارات سابقة.

الفصل الخامس: كيفية صناعة سنة الغلبة من خلال عوامل النصر:

العامل الأول:
عدم الاتكال على النفس، والاستحضار العقدي والإيماني والفكري، في كل المراحل ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله﴾ لكنهم تولوا بعد ذلك إلا قليلاً منهم.

العامل الثاني:
استحضار نصرة الحق، وإنقاذ الضعفاء ﴿وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾.

العامل الثالث:
وضوح عدالة القضية ومشروعية القتال في سبيلها لدى القادة والجند.

العامل الرابع: إعداد الرجال على أساس:

1. اجتياز اختبارات القوة المناسبة للمعركة ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾
2. الإيمان بالله ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾.
3. قياس الأحداث بمقياس النظر الأخروي ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ﴾.
4. إهمال الاقتصاد إلقاءٌ باليد إلى التهلكة؛ لأنه يفضي إلى ارتهان قرارات المسلمين، وتحكم غيرهم فيها، فلم يكن جيش طالوت بحاجة ضرورية إلى الماء والسلاح عند وقوع الاختبار.

العامل الخامس

الصبر على مشاهدة المخاوف ومواجهة الأمور الهائلة المؤلمة ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:249)

العامل السادس

الصبر الإيجابي يقتضي المواجهة عند تحتمها وليس التهرب من تبعاتها ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ (البقرة: 250)

العامل السابع

إعداد الوسائل المُثَبِّتة، ومنها الدعاء سراً وجهراً ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ (البقرة: 250)

العامل الثامن

إظهار التفوق المعنوي بمصاحبة التعبئة الإيمانية لسير المعركة إلى آخر اللحظات بالاستعانة بالله بالدعاء والتضرع ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: 250)، عند ذلك تكون النتيجة المتوقعة:

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة: 251)

العامل التاسع

العمل الجماعي:

فلا بد من البحث عن الطاقات والقوى والقدرات، وبناء عليه يتم التعود على توزيع الأدوار، وليس على التنافس، والبروز الشخصي ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾، فعلى الرغم من أن الله زاد طالوت بسطة في العلم والجسم لكن الذي تولى قتل جالوت هو داود.

العامل العاشر

تداول السلطة وتغيير المسؤولين لبث الدماء الجديدة إلا أن يوجد اصطفاء إلهي بسبب إخبار نبي، ولا مجال إليه بعد زمن النبوة:

﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ (البقرة: 251) المراد بالحكمة النبوة، فترقى داود إلى المراتب العالية: الملك والحكمة وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء، ومن ذلك: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ (الأنبياء: 80) وقال ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ (سبأ: 10-11)

الحقيقة (السنة) الأولى:

حسن اختيار القيادة الجديدة ليتم البناء الحضاري، وذلك بناء على الصفات المميزة:

1 الصفة الأولى:

العمل الميداني المؤثر: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ (البقرة: 251).

2 الصفة الثانية

العبادة المتفردة حتى صارت أحب أنواع العبادة إلى الله: فعن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ)) (البخاري).

3 الصفة الثالثة

الشجاعة في المواجهة: ففي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال النبي ﷺ: ((وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى)) (البخاري).

4 الصفة الرابعة

الارتباط بالحق، والرجوع إليه عند خوف الزلل: ويظهر ذلك في سجوده عند خوف الفتنة ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (25) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: 24 - 26).

5 الصفة الخامسة

الفاعلية القيادية الحقيقية خاصة في المجال الأمني بإقامة الجهاد وابتكار ما يقيم الحضارة ويحميها: في المجال العسكري: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ (سبأ: 10، 11)، وفي مجال التصنيع الحربي والعام ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ (الأنبياء: 80)

6 الصفة السادسة

السعي لإقامة الاكتفاء الاقتصادي: فعَنِ الْمِقْدَامِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ -عليه السلام- كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ " (البخاري).

7 الصفة السابعة

الفقه في كتاب الله وإدامة تلاوته واستلهام قيمه الحيوية ومنهجه القويم، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» (البخاري ومسلم).

الحقيقة الثانية:

سنة الدفع ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ التغيير لا يكون إلا عن طريق دفع الناس بعضهم ببعض في جميع المجالات، فلا يوجد انتصار بالمعجزات المحضة، ولننظر إلى الانتصار الإسرائيلي المذهل في عصره الأخير، حيث اعتمد في المقام الأول على عنصر الدفع عن العقيدة.

الحقيقة الثالثة:

التفصيل التنظيمي الذي جاءت به الآيات قائم على الحق، وأي دعاوى تنال منه فهي تريد إحلال الباطل ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾.

الحقيقة الرابعة:

التفصيل التشريعي والتاريخي دليل معجز على صدق الرسالة ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (البقرة: 252).

الحقيقة الخامسة:

سيبقى الصراع قائماً بين أتباع أعظم الرسل عليهم الصلاة والسلام، بسبب خروجهم عن أوامر الرسل، بسبب الحقد على النبي الخاتم ﷺ وأمته مما يقتضي إعداد العدة للردع والدفع، فهو أخف ثمناً من الرفع حيث يقول الله ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي موسى ، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ يتعين أن يكون المراد هو نبينا ﷺ، وإلا صار الكلام تكراراً لقوله فضلنا بعضهم على بعض، ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: 253)، وذُكر النبي ﷺ وسطاً إشارة إلى وسطية أمته، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ (البقرة: 253)، ويبقى المنتصر الحقيقي منهم من يأخذ بالسنن، وأهمها الدفاع عن المستضعفين.

الحقيقة السادسة:

الإنفاق في سبيل الله أساس النجاح في الخروج من محنة الاستضعاف وإقامة النور الإسلامي وسيلة وغاية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: 254)

المحور العاشر

عظمة الله ومزايا دينه
ودلائل قدرته
(البقرة 255-260)

المحور العاشر:

عظمة الله ومزايا دينه ودلائل قدرته

[البقرة 255-260]

المناسبة والاتصال:

لتتم التربية المقصودة ترى الأسلوب القرآني المذهل يتبع منهجية تعاضد المحاور القرآنية الثلاثة الكبرى مع بعضها، وهي:

ويسير في ذلك وفق الأسلوب الخطابي العاطفي، أو العلمي العقلي، أو القصصي الإثاري، فيأنس السامع بالأسلوب ولا يمل كالانتقال من طعام لذيذ إلى نوع آخر، ليكون ألذ وأشهى، وهنا انتقل إلى بيان التوحيد والتمجيد، بعد هذه الجولة العظيمة في التشريعات الحيوية ورسم استراتيجية الخروج من حالة الاستضعاف إلى حالة التمكين، وهي تشتمل على أشق الأمور ببذل الأموال والنفوس حيث يظهر فيها دفع الناس بعضهم ببعض لئلا تفسد الأرض، وختمها ببيان عظمة الحكمة غير المدركة أحياناً من قبل البشر فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: 253)

فناسب أن يفصل وصف عظمة الله ليبين لهم كيفية تدبيره للكون، وتدبيره للحياة في أعظم آية في القرآن الكريم هي آية الكرسي، وبعد تعريف نفسه لهم بين مزايا دينه، وأنه بهذه العظمة لا حاجة لأن يكره البشر على دينه، إذ من ابتغى الغي فقد جنى على نفسه، ثم بين بعض أهم مظاهر قدرته من خلال القصص.

تكون هذا المحور من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: آية الكرسي تبين عظمة الله وعُلُوه (البقرة255)

القسم الثاني: الدخول في الدين وفضائله (البقرة256-257)

القسم الثالث: ثلاث قصص تدل على عَظَمة الله وحسن تدبيره وحكمته في الكون وقوانينه (البقرة258-260)

القسم الأول: آية الكرسي تبين عظمة الله وعُلُوه (البقرة255)

المناسبة والاتصال:

بدأ القسم بذكر عظمة الله -جلّ مجده- ليظهر لكل سامع عدم عقلانية من يعبد سواه –جل في علاه-: فكيف يمكن المقارنة بين عبادة مالك الكون، وعبادة جزء من الكون بما في ذلك عبادة الإنسان نفسه عندما تحكمه أهواؤه.

من فضائلها:

الفضيلة الأولى:

أعظم آية:

فروى مسلم عن أبى بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يا أبا المنذر: أتدرى أي آية من كتاب الله أعظم؟)) قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((يا أبا المنذر أتدرى أي آية من كتاب الله معك أعظم؟)) قال: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾؟ قال: فضرب بصدري وقال: ((والله ليهنك العلم أبا المنذر)).

الفضيلة الثانية:

تكرار قراءتها سبب لدخول الجنة:

فروى النسائي عن أبى أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت)).

الفضيلة الثالثة:

الحافظة من العدو الخفي:

فروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه:... قال الشيطان: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا قُلْتُ مَا هُوَ قَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ﴾ حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ ، وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ.. وصدقه رسول الله ﷺ فقال: ((أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ))

القسم الأول:

آية الكرسي تبين عظمة الله وعُلُوه (البقرة255)

جاءت آية الكرسي بعد نفي الشفاعة يوم القيامة التي تمثل إنذاراً للمسلمين لئلا يكونوا كأهل الكتاب المتكلين على شفاعة خيارهم (كموسى وعيسى عليهما السلام) والمشركين المتكلين على معبوداتهم الباطلة.. فوَهمُ شفاعة الشافعين أوقعهم في التهاون بالدِّين، والشفاعة الحقة إنما تكون بإذن الله ورضاه، وقد تكونت الآية من إحدى عشرة جملة، واشتملت على اسم (الله) ظاهراً ومضمراً ست عشرة مرة، وعدد كلماتها ست وخمسون، ففيها تعريفٌ وافٍ بالله وقدرته وعظمته، وقيامه على الكون، وحفظه للمخلوقات.

بصيرة

1 بدأت الآية بكلمة ﴿اللَّهُ﴾ تعريفاً باسمه العلَم الأعظم الأكرم؛ لتتضمن ردًا على من يسأل: من ربكم؟ ... وتلذذًا من المؤمن عندما يردد الاسم المبارك

بصيرة

2 ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تبصرنا بتوحيد الله وكمال هذا التوحيد، رداً على الوثنيين الذين يشركون مع الله آلهة أخرى، أو يدعون غير الله، ورداً على الملحدين الذين لا يؤمنون بإله، فالله يخبرهم أنه الإله الواحد الأحد الذي لا يمكن أن يماثله شيءٌ من مخلوقاته.

بصيرة

3 ﴿الْحَيُّ﴾ تبصرنا بأنه الّذي صَدَرَتْ عَنْ حَيَاتِهِ كُلُّ حَيَاةٍ، فهو الجدير باسم (الحي) مطلقاً، وغيره لم يكن حياً، فأعطاه الحي سبحانه شيئاً من الحياة، ثم يموت متى أراد الحي جل شانه له الموت.

بصيرة 4

﴿القيوم﴾ تبصرنا بأنه قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ يَكْلَؤُهُ وَيَرْزُقُهُ وَيَحْفَظُهُ.

بصيرة 5

الاتصاف بهذين الاسمين العظيمين يستلزم جميع الأسماء الحسنى مطابقةً وتضمناً ولزوماً، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات كالسمع والبصر والعلم والقدرة، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام به غيره،

وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين كالكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، والعفو والمغفرة، والقدرة، والحكم، وسائر أنواع التدبير، ومن قيوميته قيامه بِالْقِسْطِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾(آل عمران: 18) وَالْقِسْطُ هُنَا: هُوَ الْعَدْلُ الْعَامُّ فِي أمره وخلقه، وَمِنْهَا الْقِيَامُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ كَمَا قَالَ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الرعد: 33).

بصيرة 6

هذه الجمل الثلاث هي الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْت يَزِيدَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة: 163) وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿الم اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (آل عمران: 2-1) (أبو داوود)

بصيرة 7

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ تبصرنا بأنه لا يمكن أن يغفل عن الخلق بالسنة ولا بالنوم، وهذا من كمال حياته وقيوميته، ونفى النعاس أولاً ثم نفى النوم لأن ذلك حسب التدرج الطبيعي في الْوُجُودِ، وترقياً من نفي الأضعف إلى نفي الأقوى؛ إذ لا يلزم من نفي الأضعف نفي الأقوى، لأن بعض الخلق يهجم عليهم النوم دون سِنة.

بصيرة 8

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تبصرنا بأن الله له الملك الكامل لما يراه الخلق من المخلوقات أو ما يسمعون عنه.. فمن ذا يمكن أن يدعي أن إلهه له هذا الملك؟

بصيرة 9

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ تبصرنا بأن الشفاعة عنده ممنوحة لمن يأذن الله له إكراماً، ولذا جاء التعبير عن هذا المعنى بالاسْتِفْهَام الذي مَعْنَاهُ الْإِنْكَارُ وَالنَّفْيُ، فلَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ، فالاستفهام أبلغ من الإخبار، وهذه الصفة تدل على العَظمة الكاملة؛ لأن الشفاعة إدلالٌ سببه أن يكون الشافع مساوياً أو قريباً من المشفوع عنده، أو قد يحتاج إليه المشفوع عنده حيناً من الدهر؟.

بصيرة 10

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ تبصرنا بأن العلم الكامل لله فهو يعلم ماضي الأمور ومستقبلها، ومتقدمها ومتأخرها، وظاهرها وباطنها، وغيبها وشهادتها.

بصيرة 11

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ تبصرنا بأن العلم الذي أودعه الله تعالى في عقول الخلق وتفكيرهم إنما أودعه بمشيئته، فكيف يعبدون بعقولهم غيره؟.

بصيرة 12

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ تبصرنا بهذه العظمة الهائلة للكرسي مع أنه ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، فإذا كان لا يقدر قدر الكرسي فكيف بالعرش؟ فعن أبي ذر الغفاري- رضي الله عنه- قال: دخلت المسجد الحرام، فرأيت رسول الله وحده فجلست إليه، فقلت: يا رسول الله، أيما أنزل عليك أفضل، قال: ((آية الكرسي، وما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة)) (ابن حبان).

بصيرة 13

﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ تبصرنا بأن الله لا يثقله حفظ السموات والأرض، ولا يؤثر عليه، فهو المنشئ للمخلوقات الحافظ لها.

بصيرة 14

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: 255) تبصرنا بأنه العلي مطلقاً، العظيم مطلقاً، فمهما بلغ علو الأوثان البشرية والصنمية فلا بد أن يتطرق لها شيء من نقص.

القسم الثاني:

الدخول في الدين وفضائله (البقرة: 257-256)

المناسبة والاتصال:

هاتان الآيتان المباركتان في موضعهما المنطقي تبينان مزايا الإسلام، وعظمته، وأنه يحرم القتال لفرض الدين بل لا يكون إلا في سبيل الله أي لتحرير المستضعفين، وردع المعتدين.. فهما يجيبان عن سؤال نشأ من الآيات السابقة مثل قول بني إسرائيل ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ (البقرة: 246) وقول الله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الْبَقَرَة: 244)، وفي آية الكرسي بيان صفات الله العظمى.. وهذا كله يوجب سؤالاً: هل معنى ذلك أنه يجب أن نكره الناس على الدخول في الدين الحق؟

هنا تأتي هذه الآية لتضع قانوناً من أعظم قوانين الإسلام، وتبين فضائل الإسلام التي أولها ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾، فذكر الله في الآيتين مزايا الإسلام العظيمة، وهي:

الفضيلة الأولى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: 256) تبصرنا بأن الدخول في الدين اختياري، والنفي للجنس فلا يقبل الإكراه على الإسلام من المكرِه ولا يقبل الإسلام من المكرَه، وقد أنزلها الله ليمنع الأنصار من إكراه أبنائهم المتهودين على الدخول في الإسلام، فهذه الآية محكمةٌ تردُ على أكذوبة نشر الإسلام بالسيف.

الفضيلة الثانية:

﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: 256) تبصرنا بأن الرشد معرفة استقامة الطريق، والمراشد مقاصد الطرق التي بها يسير المرء ناجياً في الحياة، ولا يتم ذلك إلا باتباع الدين الحق، وإلا وقع في الغي وهو الجهل والفساد والهلاك، يقال: "غوى الفصيل" إذا بالغ في الشرب من لبن أمه حتى بشم، فلا يكره المرء على اختيار أحد الأمرين.

الفضيلة الثالثة:

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ تبصرنا بأن الإيمان بالله طريق للحرية الحقيقية من الطواغيت البشرية والمادية، فحقيقة الإيمان بالطاغوت عبودية الإنسانية لهم، والطاغوت: مَصْدَرُ الطُّغْيَانِ وَمَبْعَثُهُ صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ كَالْمَلَكُوتِ والرغبوت والرهبوت، وَهُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي الشَّيْءِ، فيدخل فيه الطغيان العالمي في عبادة المال واللذة الطاغية والشَّيْطَانُ والْكَاهِنُ والسَّاحِرُ والْأَصْنَامُ ومَرَدَةُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

الفضيلة الرابعة:

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ (البقرة: 256) تبصرنا بأن الكفر بالطاغوت والإيمان بالله استمساك بالعروة الوثقى التي لا تنكسر كسراً ظاهراً ولا خفياً، وبذلك يتم إنقاذ البشرية من الأخطار الحقيقية، والعروة ما يستمسك به حتى لا يسقط الدلو، أو ما تمسكه الشجر من بقية ورق تأكله الأنعام فلا تهلك

الفضيلة الخامسة:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: 257) تبصرنا بأن الدين يعني استحقاق ولاية الله التي تعني القرب الخاص والنصرة، ولذا يخرج الله أولياءه من ظلمات الأوهام والواقع إلى نور الفكر والسلوك وصناعة الحياة.

الفضيلة السادسة:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 257)، تبصرنا بأن الكافر الذي يغطي على أعظم الحقائق يتولى الطاغوت الذي يجعله يعيش في عالم الظلمات الفكرية والسلوكية، وتكون النتيجة الخسارة للحياة في الآخرة بالخلود في النار

القسم الثالث:

ثلاث قصص تدل على عَظَمة الله وحسن تدبيره، وحكمته في الكون وقوانينه (البقرة: 260-258):

المناسبة والاتصال:

بعد أن عرّف الله بنفسه سبحانه في آية الكرسي، وبين مزايا دينه ذكر -تعالى ذكره- ثلاث قصص كلها تبين أمرين في ملك الله تعالى وعظمته:

حكم الله للكون وتحكمه بأسبابه، وإخراجه أولياءه من الظلمات إلى النور، ولذا قال في أولها ﴿ألم تر﴾ أي انظرْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإلى الذي مر على قرية كأنك تراهما بعينيك كيف اهتديا بولاية الله لهما من الظلمات إلى النور، وازداد يقينهما بعظمة الله وقدرته.

القصة الأولى: قصة التحكم بأسباب الكون المنتظمة من خلال مناظرة إبراهيم عليه السلام والنمرود (البقرة258):

بصيرة 1 ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ تبصرنا بأن قبول إبراهيم للمناظرة وقيامه بها بالتي هي أحسن يجعلها من أعظم وسائل التبليغ والتأثير، وإظهار الطواغيت وعُبّادهم بعدم العقلانية.

بصيرة 2 ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ تبصرنا هذه الآية بضرورة الولوج في مناقشة الموضوعات الكبرى ومواجهة المسائل الفاصلة, وأن يكون هناك مختصين متمكنين قادرين على المجابهة وهذا ما تشير إليه كلمة (إبراهيم).

بصيرة 3 ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ تبصرنا بأن الفشل سيظهر مباشرة فيمن يجادل في الله؛ لأن اللسان الذي به يتكلم ، وكل جزء في جسده وحتى عقله نعمة من الله تعالى عليه.

بصيرة 4 ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ﴾ تبصرنا هذه الآية بوجوب الاعتزاز بالانتساب إلى المشروع الذي يحمله العبد، فلا يخجل ولا يتردد في نسبة نفسه إلى ربه ومعبوده جلّ مجده وتعالى جدُّه.

بصيرة 5 ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ تبصرنا بأنه ينبغي في المناظرات أن نورد البراهين الواضحة القاطعة لحجة الخصم، فبين إبراهيم أنه يدعو إلى من يتحكم بالإحياء والإماتة.

بصيرة 6

﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ تبصرنا بأن المبطل عندما يظهر ضعف حجته سيحاول المغالطة والكذب حتى لا يظهر بمظهر المهزوم.

بصيرة 7

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ تبصرنا بأنه ينبغي للمناظر ألا ينشغل بجزئيات الرد على المغالطات بل ينتقل إلى دليلٍ أكثر وضوحاً، وأشد قطعاً للمغالطة ؛ ولذا احتج إبراهيم بأن الله أوجد الكون ونظمه وفق قوانين مثل الشروق والغروب، فحاول –إن كنت صادقاً- أن تخرب هذا النظام.

بصيرة 8

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ تبصرنا بالنتيجة المنطقية للمناظرة التي يتم التمسك فيها بالمنهج القرآني، وهو أن يُبهَت أي يحتار الذي يغطي الحقائق، فلا يستطيع الجواب.

بصيرة 9

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ يبصرنا تكرار اسم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بثلاث:

1. مكانة إبراهيم عليه السلام عند ربّه سبحانه.
2. حضور حجته وسرعة بديهته.
3. ضرورة الإعداد المسبق والتحضير للمواجهة قبل الدخول فيها ليكون أدعى للتغلب على الخصم وإفحامه.

بصيرة 10

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 258) تبصرنا بأن النظام الكوني قائم على العدل، والظالم لنفسه وللعالم لا يستحق العون بالهداية.

القصة الثانية:

القدرة على إحياء الموتى وتغيير أسباب الكون (البقرة:259):

بصيرة 1

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ تبصرنا بأن العبرة بالواقعة لا بصاحب الواقعة، فهذا الرجل لم يذكر اسمه، فقد يكون عزيراً، أو أرميا، أو حزقيال، وربما كان كافراً شاكّاً كما قاله بعض المفسرين، وذكر أنه مر على قرية يدل وصفها بذلك على اجتماع سابقٍ لأهلها.

بصيرة 2

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ تبصرنا بأن تغير الأحوال جزء من السنن الكونية، فهذه العبارة تحتمل ثلاثة معانٍ: أن يبيد أهلها، وتسقط عروشها، أو تبقى شاهدة على عظمتهم التي زالت، أو تكون ديارهم معروشة بالأشجار دون من يعتني بها من أهلها الفانين أو المنتقلين.

بصيرة 3

﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تبصرنا بأن الحضارات لا بد أن تمر عليها السنن الإلهية في الإعمار والدمار، وأن طبيعة الإنسان أن تشتاق للتغيير السريع كما اشتاق هذا لرؤية القرية الخربة قد دبت فيها الحياة مجدداً

بصيرة 4

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ تبصرنا بقدرة الله الحقيقية في التحكم بالموت والحياة وليس وفق المفهوم الذي ادعاه طاغوت العراق أمام إبراهيم عليه السلام.

بصيرة 5

﴿ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ تبصرنا بالضعف الإنساني في عقله وفكره بالنظر إلى طول الحياة وتغير سننها فقد ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ فَأَبْصَرَ مِنَ الشَّمْسِ بَقِيَّةً أو فكّر فَقَالَ: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

بصيرة 6

﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ تبصرنا بأن الزمن لا وزن له في قدرة الله وقوته، وبقي مائة عام ليكون أعظم إدهاشاً حين تم إحياؤه بعد هذا الزمن الطويل في عرف البشر.

بصيرة 7

﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ تبصرنا بالقدرة الإلهية في التحكم بالكون وأسبابه، فالطعام والشراب يتغيران بعد مدة يسيرة وفق السنن الكونية لكن الله أوقف سنة التغير، ﴿لم يتسنه﴾ بالهاء في قراءة الجمهور وقفاً ووصلاً أي لم يتعفن، وقرأ حمزةُ والكسائي بالهاء وقفاً وبحذفها وصلاً ﴿لَمْ يَتَسَنَّ﴾: أي لم يتغير، والتحكم بالكون يفضح حقيقة عجز النمرود عن خرق تلك السنة الجارية، فقد طلب منه إبراهيم خرق هذا التحكم، فبيّن الله أنه لو شاء أن يلغي النظام الذي سنه لفعل.

بصيرة 8

﴿وَانْظُرْ ... وَانْظُرْ..﴾ تكرر الأمر بالنظر ثلاث مرات تبصرنا بأن النظر أداة التفكير المذهلة للبناء العلمي. من الملاحظة العابرة لو ذهبت عنها الغفلات.

بصيرة 9

﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ تبصرنا بمعجزة تدل على حكم الله للموت والحياة، فقد نظر إلى حماره عظاماً بالية تدل على مضي أعوام كثيرة ثم نظر لها وهي تنشز أي يرتفع بعضها فوق بعض وتركب بصورة دقيقة لتأخذ هيئة الحمار، ثم تكسى لحماً، ثم تنشر أي تبعث فيها الحياة.

بصيرة 10

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: 259) تبصرنا بالانتقال من المشاهدة إلى الشهود (الغيب) فلما شاهد أن الله رفع العظام فوق بعضها وكساها لحما، ثم نشر الحياة، امتلأ يقينا ووصل إلى شهود قدرة الله عَلَى أَنْ يُعِيدَ الحركة العمرانية للقرية الخاوية.

بصيرة 11

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ تبصرنا بأن من أساليب تربية الله لعباده وإرشادهم إلى دينه والإيمان به أن يريهم الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات.

بصيرة 12

﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تبصرنا القراءتان الواردتان فيها بمشهدين مطلوبين في بناء الإنسان لنفسه:

1 المعنى الأول

قال الذي يكلمه (الله جل شأنه أو الملَك) لهذا الرجل: ﴿اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في قراءة حمزة والكسائي، فيحتاج المرء أن يعلم نفسه فهم قدرة الله.

2 المعنى الثاني

قال الرجل: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في قراءة الجمهور، ليربي المرء نفسه بالترديد بلسانه والشعور بقلبه بقدرة الله وعظمته

القصة الثالثة:

قصة إبراهيم عليه السلام وإحياء الموتى المفرقة الأجزاء:

بصيرة 1

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾ تبصرنا بأن المؤمن ينبغي أن يربي في نفسه الإيمان من خلال النظر في آيات الله ليصل إلى عين اليقين، فبدأ إبراهيم السُؤَالَ بِكَلِمَةِ ﴿رَبِّ﴾ الَّتِي تُفِيدُ جمال لجوئه إلى مربيه، ولطيف عنايته به.

بصيرة 2

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ تبصرنا بأنه سأله ربه وهو أعلم سبحانه ليُعلم السامعين ألا حرج في مثل هذا السؤال ليتلذذ برؤية آية حاضرة، وليكون دأب الإنسان في كل شيء الإيمان بالغيب، فإن جاءت آية معجزة ازداد إيماناً إلى إيمانه، فأجرى الله ذلك على لسان إبراهيم عليه السلام لتكون للعالمين آية باقية، لذا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ)) أَيْ أَنَّنَا نَقْطَعُ بِعَدَمِ شَكِّهِ كَمَا نَقْطَعُ بِعَدَمِ شَكِّنَا.

بصيرة 3

﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ تبصرنا بأنه يجب أن لا يبقي الإنسان نفسه وقلبه مضطربًا بين ردهات الحيرة ودهاليز التردد وفيافي الجهل بل يجب أن يسأل ليطمئن قلبه في كل القضايا التي تحوك بصدره وتستجيش بخاطره بأسلوب الأدب وطلب العلم الحقيقي.

بصيرة 4

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ تبصرنا القراءتان الواردتان بمشهدين:

فالجمهور قرأوا بِضَمِّ الصَّادِ بياناً لحالة تقريب إبراهيم عليه السلام لهن أي أَمِلْهُنَّ وضمّهن لتعرف أشكالهن، وشِقِّقْهُنَّ ﴿إليك﴾ لتتأملهن وتعرف شياتهن مفصلة على سبيل اليقين، حتى تعلم بعد الإحياء أن جزءا من أجزائهن لم ينتقل من موضعه، وقراءة حمزة بالكسر ﴿فصرهن﴾ بمعنى قطعهن –كما قال مجاهد-: «انْتِفْ رِيشَهُنَّ وَلُحُومَهُنَّ وَمَزِّقْهُنَّ تَمْزِيقًا».

بصيرة 5

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ تبصرنا بأنه قطعها فكلمة جزءاً تدل بوضوح على التقطيع، ثم دعاهن فعدن إلى الحياة وأتينه سعياً.

المحور الحادي عشر

إدارة الأموال في الحضارة المسلمة

[البقرة 261-283]

إدارة الأموال في الحضارة المسلمة

[البقرة 261-283]

المناسبة والاتصال:

لتتم التربية المقصودة ترى الأسلوب القرآني المذهل يتبع منهجية تعاضد المحاور القرآنية الثلاثة الكبرى مع بعضها، وهي:

مضت هذه السورة العظيمة في بناء الحياة الجديدة، وإنشاء الحضارة الراشدة التي تقوم على ملة إبراهيم عليه السلام، وتستفيد من التجربة الإسرائيلية، وهنا يكون المناسب جداً بيان الجانب الذي يؤدي إلى الإعمار الحياتي بصورة مباشرة: إنه المحور المالي الذي يتكلم عن الثروة الاقتصادية، وهو الذي يشكل المرتكز لاستقلال الأمة والتحرر من عبودية الدول المستكبرة، ويعطيها الأمان من أن تكون أسيرة لبيوتات المال المستغلة، وقد أخذ هذا المحور حيزاً عظيماً من السورة حيث امتد على مدى أربع صفحات تبين كيفية إقامة المجتمع المتماسك القائم على العدالة المالية الاجتماعية، ولذا بينت أَهَمّ أُصُولِ حفظ الثروات المالية، وكيف تتحول من احتكار لمجموعة مغرورة ثرية إلى تراحم وتماسك وتنمية وإعمار.

وتكون هذا المحور من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الإنفاق سبيل المجتمع المتراص: ضوابطه وآدابه (البقرة 271-264)

القسم الثاني: الربا أهم نماذج التعاملات المالية المحرمة، وكشف الفلسفة المدمرة التي يقوم عليها (البقرة275-281)

القسم الثالث: التداين وإدارة التجارة (البقرة281-283)

القسم الأول: 1

الإنفاق سبيل المجتمع المتراص: ضوابطه وآدابه (البقرة 261-274)

المناسبة والاتصال:

بدأ الله بهذا القسم في هذا المحور وأفرد له الحيز الأكبر لأسباب متعددة أهمها:

أولاً: أن الإنفاق يؤسس للمجتمع بناء اقتصادياً مستقلاً مذهلاً قائماً على الكسب والعمل والتثمير ومعرفة حقوق المجتمع فبه تتم عمارة الديار، ويتكاتف أفراد المجتمع، ويقيمون الشرائع المختلفة، ويقدمون الصورة المتعاونة النموذجية للعالم.

ثانياً: بيان أن المال وسيلة للإعمار الأخروي، والتنافس في بناء المستقبل القادم، وليس غاية في ذاته.

ثالثاً: منع الارتهان الخارجي للقروض العالمية الربوية التي يراد بها إذلال الأمة، والحد من استقلالها، والسيطرة على قراراتها، وذلك بأن تنفق الأمة على بعضها.

بصيرة 1

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ تبصرنا بأن المردود الربحي الأخروي الوفير للإنفاق يذهل العقل عند تصوره فالواحد بسبعمائة، فبين هنا نوع المضاعفة التي ذكرها الله في قوله ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾.

بصيرة 2

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ تبصرنا بالدلالة التبعية على الأثر التغييري المذهل للإنفاق في سبيل الله تعالى دنيوياً؛ إذ تنمو المصالح التي تم الإنفاق عليها حتى تعطي ثماراً هائلة كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة... فمثلاً: من أنفق على شابٍ يُعَلِّمُ القرآن، فعلم عشرة تلاميذ، وكل منهم علم عشرة.. وهكذا، أو بنى مسجداً فكم من المصلين سيصلون فيه.

بصيرة 3

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ يبصرنا التمثيل الحسي لعملية الإنفاق بسنابل الخير بأن شاهد الإيمان يقوى مع شاهد العيان، ويبين مقدار الرقي الحضاري الإسلامي في التخاطب والتربية والحوار.. تقرأ الآية فترى اخضرار الأرض، وبهجة النفوس، وتنمية التعاون.

بصيرة 4

﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ تبصرنا ببشرى المضاعفة فوق السبعمائة لمن شاء الله له ذلك، مما يجعل التنافس يزداد بين المتسابقين.

بصيرة 5

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 261) هذه بصيرة حاكمة معظمة تزيد القلب اطمئنانا بأن الله واسع لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل، عليم لا يخفى عليه نية المنفق، شكره الناس أو لم يشكروه.

الفصل الثاني:

يشترط لقبول النفقة الشروط الآتية:

بصيرة 1

يشترط لقبول النفقة الشروط الآتية:

الشرط الأول: أن تكون في مصالح المسلمين ابتداءً بالوالدين والأقربين، ويبصرنا به قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (البقرة: 262) فجملة ﴿في سبيل الله﴾ تدل على أن كل أمرٍ إسلامي فيه بناءٌ للحياة البشرية، ورحمة بها، ودفاعٌ عنها

الشرط الثاني: ﴿في سبيل الله﴾ تبصرنا بشرطٍ ثانٍ يدخل في هذا المصطلح القرآني الفريد، وهو أن تكون النفقة خالصة لله بلا رياء، ولا انتظار مكافأة من البشر، وهذا يضمن استمرارها بغض النظر عن موقف البشر منها.

الشرط الثالث: عدم المن، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا﴾ وهو أَنْ يَذْكُرَ الْمُحْسِنُ إِحْسَانَهُ لِمَنْ أَحْسَنَ هُوَ إِلَيْهِ يُظْهِرُ بِهِ تَفَضُّلَهُ عَلَيْهِ، أو أن يمن على ربه سبحانه أنه أعطى وأنفق، فالمن يؤذي الكرامة البشرية، وهدف النفقة هو إعلاء الكرامة البشرية.

الشرط الرابع: عدم الأذى، ويبصرنا بذلك قوله ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ والْأَذَى أعمُّ من المن، وهُوَ أَن يُؤْذِي الْمُنفِق المنفَق عَلَيْهِ بِإِسَاءَةٍ فِي الْقَوْلِ أَو الْفِعْلِ، كأَنْ يَذْكُرَ الْمُعطي إِحْسَانَهُ لِغَيْرِ مَنْ أَحْسَنَ إليه بِمَا يؤدي إلى إيلام المنفَق عليه لو علم، وأن يعتقد ثبوت الحق له على المنفَق عليه.

الشرط الخامس: تربية النفس على لذة العطاء، وترك الإيذاء بعد الإنفاق: وهذا الشرط نفيده من التعبير بـ(ثم) في ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ (البقرة: 262)؛ إذ تفيد أمرين:

الأول: الترتيب الزمني فتكون للتَّراخي، فالمن والأذى الآجلين يحبطان الأجر السابق، ونبه بذلك على ما يحدث في طبائع الناس من السكوت زمناً، ثم قد تغالبه نفسه إلى المن أو الأذى بعد ذلك لشيء في نفسه أو لسوء خلق المنفَق عليه، وهذا يدل على أن المن والأذى العاجلين أَضَرُّ.

الثاني: الترتيب الرتبي لإِظْهَارِ التَّفَاوُتِ بَيْنَ معروف القول والتغافر وبين الْإِنْفَاقِ المشوب بالْمَنِّ وَالْأَذَى، فإن الأول خير من الثاني إن كان على هذا الوجه؛ لمجاهدة الميل إِلَى التبجّح والتطاول على الْمُنفق عليه.

بصيرة 2

يترتب على توفر هذه الشروط الأجور الثلاثة المباشرة للإنفاق دنيوياً وأخروياً:

أولها: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ذكر الأجر دون تحديد، وأضافهم إلى ربهم تشريفاً وتكريماً، وبياناً لعظيم ما سيجدونه من الربّ الغني القادر الكريم. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: 262) فهم أَهْلُ الأرباح الكثيرة الحقيقية والْأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالسُّرُورِ الدَّائِمِ وَالسَّكِينَةِ في الدنيا والآخرة، والسكينة المجتمعية تحدث في المجتمع المتراحم.

ثانيها: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فنفى عنهم الخوف ليثبت كل ما ضده من الأمن والاستقرار والطمأنينة التي بها تستقيم شؤون الدنيا وتتحقق مصالحها وتقام بها الحضارات وتصنع بها الإنجازات والنجاحات وينتج فيها المجتمع كل ما يحتاجه ويسود ويقود، وكذلك لا خوف عليهم في قبورهم ولا يوم يبعثون ولا حين على الصراط يعبرون فهم في أمن وأمان حتى يصلوا إلى جنان الرحمن حيث منتهى الأمن وغاية السعادة والاطمئنان.

ثالثها: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ونفى عنهم الحزن في الدنيا الذي تسببه طبيعة تقلب ظروفها وتبدل أحوالها وأثبت لهم كل ما هو ضد الحزن من السعادة والراحة والنعيم في دنياهم حتى وإن اعتراهم طائف الأحزان في بعض الأحيان لما يغلب عليه طبع الإنسان ولما قد يقعوا فيه من العصيان، كما نفى عنهم حزن حياة البرزخ والحياة الآخرة فهم في النعيم إلى زيادة وفي السعادة إلى أعظم وأجمل وأجل

بصيرة 3

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ تبصرنا بالبديل عن الصدقة المؤذية:

البديل الأول: قول تعارف الناس على حسنه يدخل السرور على القلوب، وتنمو به مصالح المسلمين سواء أكانوا مستورين أم كانوا محتاجين، ومن القول المعروف ردُّ السائل بالقول الجميل والدعاء له.

البديل الثاني: مغفرة لمن أساء بالعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي.

بصيرة 4

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: 263) بصيرة حاكمة معظمة تبصرنا بضرورة الثقة المطلقة بالعظمة الإلهية، فالله: ﴿غني﴾ عن صدقتكم أيها الأغنياء فمصلحتها تعود لكم، وغني يعطيكم من غيرهم أيها الفقراء،﴿حليم﴾ على من عصاه لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ومنهم: المتصدق المؤذي أو البخيل فهو تهديد لهذين الصنفين.

الفصل الثالث: ثلاثة أمثال للنفقات المقبولة والمردودة (البقرة266-264):

المناسبة والاتصال:

توسيع المشاركة العادلة المتراحمة للثروة المالية بين الناس من أعظم محاسن الإسلام، وهو في ذلك يجمع بين مراعاة الْمَنْفَعَةِ الْعَامَّةِ ومراعاة الْوِجْدَانِ الْخَاصِّ على نحوٍ عادلٍ متوازن "وَذَلِكَ بِمُرَاعَاةِ الْعَدْلِ مَعَ الَّذِي كَدَّ لِجَمْعِ الْمَالِ وَكَسْبِهِ وَمُرَاعَاةِ الْإِحْسَانِ لِلَّذِي بَطَّأَ بِهِ قدَره"، وذلك لا يتم إلا باستبشاع وجود المن والأذى والرياء، لذا أَوْسَعَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْمَقَامَ بَيَانًا وَتَرْغِيبًا وَزَجْرًا بِأَسَالِيبَ متعددة وَتَفَنُّنَاتٍ بَدِيعَةٍ، فذكر ثلاثة أمثال للنفقة المقبولة والمردودة ليتم ترقية المشاعر والأحاسيس المخبتة المنيبة في البشرية، فالْأَمْثَال تُبْهِجُ السَّامِعَ، وتوسع مداركه، وهذه الأمثال الثلاثة هي:

المثل الأول: مثل (الصفوان) للنفقة المردودة بسبب المن أو الأذى أو الرياء (البقرة264):

بصيرة 1

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ تبصرنا بأن الأعمال السيئة المصاحبة للأعمال الحسنة تبطلها، فالصدقة تدل على رقي الخلق الإنساني وعظمة إيمانه، وذلك لجمال الفعل والقول الذي يصحبها، وليس بالمن والأذى.

بصيرة 2 ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تبصرنا بأن الذي يمن بصدقته، ويصحب إنفاقه إيذاء المنفق عليه يماثل المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر حيث إن كلاً منهم جعل الصدقة لا لإيمانه بربه بل لتكون وسيلة دنيئة للعب بالإنسانية، والرئاء فِعَالٌ مِنْ رَأَى، لأنه لا يعمل إلا ليراه الناس.. لا لإسعاد البشرية طلباً لرضا الله، ثم ما يلبث حتى يفضح؛ إذ هو لا يريد إلا خداع الإعلام من خلال الخير اليسير الذي يبثه.

بصيرة 3 بصرنا الله بعد ذلك بمَثَل هؤلاء الثلاثة: المانُّ والمؤذي والمرائي ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ هو الحجر الأملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ يظنه الزارع أن سيكون تربة خصبة صالحة للزرع، فيزرعه ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ مطرٌ غزيرٌ، فجرف التراب ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ فترك الحجر أملس يابساً ليس عليه شيء من التراب، وذهب جهد الزارع هباء، فكذلك عمل المرائي والمؤذي والمانّ ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾..

انظر الجمال! يذكر الثلاثة أنهم أنفقوا ليكسبوا لكن كسبهم ذهب هباء، وبدلاً من أن تكون النفقة ربحاً لهم أصبحت وبالاً عليهم، فتزيدهم قسوة وبعداً عن الله ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: 264)، فالكافر يغطي الحقائق، وكذلك المان والمؤذي والمرائي يغطون حقيقة قلوبهم القاسية بنفقتهم الظاهرة.

المثل الثاني: مثل (الربوة) للنفقة المقبولة (البقرة265):

بصيرة 4 ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ﴾ يبصرنا الفعل المضارع (ينفقون) على أنهم يكررون الإنفاق لأموالهم، وأنهم فعلوا ذلك لتحقيق ثلاثة أهداف:

الهدف الأول: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ تبصرنا بأن الهدف الأول لنفقتهم أنهم ينفقون محبة لله لا للرياء، ولا لإذلال البشر بالمن والأذى.

الهدف الثاني: ﴿وَتَثْبِيتًا﴾ تبصرنا بأن الهدف الثاني لنفقتهم لتثبيت أنفسهم إيمانياً، ولتثبيت ملكهم، ودولتهم وأمنهم من خلال تكافل المجتمع وتعاونه، ونشر المحبة بين أفراده، وإعانة كل فئة على أن يكون لها مالٌ تنفق منه، وتستثمره.

الهدف الثالث: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ تبصرنا بأن الهدف الثالث لهم أن يزكوا أنفسهم ويجعلوها ترتقي في مدارج الكمال، ففعلوا ذلك لا بضغطٍ خارجي، أو لشعورهم بالحرج بل أقدموا على ذلك من تلقاء أنفسهم، حيث جاهدوها لتفعل ما به تزكو وتثبت، لأن (تَكْرِيرَ الْأَفْعَالِ سَبَبٌ لِحُصُولِ الْمَلَكَاتِ).

بصيرة 5

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ تبصرنا بأن مثل هؤلاء المفلحين كمثل جنة كثيرة الأشجار يستر بعضها بعضاً ، لأنها مأخوذة من الاجتنان وهو الستر.

بصيرة 5

﴿بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ تبصرنا بأن هذه الجنة بربوة أي محل مرتفع ليكون أثر الشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ عليه أَكْمَلَ، فَيَكُونُ أَحْسَنَ مَنْظَرًا وَأَزْكَى ثَمَرًا حتى تكون غلتها مضاعفة على خلاف المحل المنخفض، وَقِيلَ الرَّبْوَةِ هي الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَةُ الْجَيِّدَةُ التُّرْبَةِ بِحَيْثُ تَرْبُو بِنُزُولِ الْمَطَرِ عَلَيْهَا وَتَنْمُو كَمَا قَالَ تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ من كل زوج بهيج﴾.

بصيرة 5

﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ تبصرنا بأن هذه الجنة لا تخلو من نزول الغيث عليها سواء أكان وابلاً أي كثيراً أم طلاً أي مطراً قليلاً يكفيها لتنبت لطيب منبتها.

بصيرة 5

يبصرنا هذا التمثيل بأن المنفق ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من نفسه كَالْجَنَّةِ الْجَيِّدَةِ التُّرْبَةِ الْمُلْتَفَّةِ الشَّجَرِ الْعَظِيمَةِ الْخِصْبِ فِي كَثْرَةِ بِرِّهِ وَحُسْنِهِ، فَهُوَ يَجُودُ بِقَدْرِ سَعَتِهِ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ أورق وأغدق، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ قَلِيلٌ أَنْفَقَ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: 265) بصير بقلوبكم وأعمالكم، ولماذا تنفقون فيكافئ المحسن المقبل عليه مهما قلت نفقته.

المثل الثالث: مثل (الإعصار) للنفقة المردودة (البقرة266):

بصيرة 1

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ تبصرنا بعظمة ملك هذا الرجل حيث يملك الجنة الممتلئة بالغابات الزراعية الملتفة يأتيه ريعها وفوائدها ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ فضعف عن الاكتساب ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ لم يعتمدوا على أنفسهم يحتاجون إلى من يقوم عليهم ﴿فَأَصَابَهَا﴾ أي اجتاح جنته ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ (البقرة: 266)، فدُمّر رأس ماله، وصار فقيراً ضعيفاً هو وذريته أحوج ما يكون إلى ماله.. فمن يحب أن يكون هذا حاله؟

بصيرة 2

النفقات الصالحة مثل الجنة يراها العامل في الدنيا فيظن أنها تبقي له مكانة وتأثيرا عند من أنفق عليهم لكن إعصار الرياء والمن والأذى يوجد له الكره في قلوبهم، فيهجرونه عندما يحتاجهم، وأما في الآخرة فتأتي هذه الأعمال فيراها، فيفرح بها، فيدمرها إعصار الرياء والمن والأذى فتحترق وتبيد أحوج ما يكون إليها.

بصيرة 3

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [البقرة: 266] تبصرنا بأن الآيات القرآنية تمثل أهم وسائل تنمية التفكير الإنساني، وتوسيع المدارك، وانظر كيف تربط الآيات بين تفكيرنا بالأعمال وعواقبها والجمال البيئي.

بصيرة 4

مثل (الإعصار) يبصرنا بضرورة الحذر من تدمير الجهود وتقويض البنيان وإهلاك الجنات الوارفة التي بنيت بجهود العطاء وكرم السخاء، فإن المن والأذى كالإعصار المدمر لجمال الإنفاق وروعة التعاون والعطاء الدفاق.

الفصل الرابع: الضوابط المتعلقة بالمبذول (البقرة 267):

بصيرة 1

ينبغي للمؤمنين أن يكونوا الأعلى يداً في الاستثمارات المالية، ويبصرنا بذلك قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾ فأمر المؤمنين بالإنفاق يعني أن يستثمروا ليتمكنوا من الإنفاق على الاحتياجات البشرية.

بصيرة 2

﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ تبصرنا بأنواع المال المبذول، وأنه يرجع إلى نوعين:

النوع الأول: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ ما كان من طيب الكسب، والطيب هو الحلال الجيد من الْأَشْيَاءِ النَّفِيسَةِ الَّتِي يُسْتَطَابُ تملكُهَا، وهذا يدل على الحث الشديد على الاكتساب واستثمار الأموال.

النوع الثاني: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾الطيب مما أخرج من الأرض من الزروع والمعادن.

بصيرة 3

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: 267) تبصرنا بأنه يحرم إنفاق الخبيث من المال، أي لا تتعمدوا وتقصدوا إنفاق الخبيث منه، وهو الرديء المكروه تناوله.

بصيرة 4

﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ تبصرنا بأنه يجب أن يحب الإنسان لبقية أفراد الإنسانية ما يحب لنفسه، فكما أنه لا يمكن أن يأخذ الخبيث الرديء من الطعام إلا أن يغمض عينه عن عيبه عند الاضطرار، فكذلك لا ينبغي له أن يعطيه لغيره.

بصيرة 4

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ تبصرنا بأن نتنبه للرقابة الإلهية التي تعني التبشير والتهديد، فالله غنيٌ يعطي المحتاجين إن بخلتم، ويعطيكم عوضاً إن أنفقتم ﴿حَمِيدٌ﴾ حَامِد لكم المبادرة إلى الأعمال الصالحة، محمود على ما يعطيكم ابتداء ويعوضكم انتهاء محمود على صفاته وأفعاله.

الشبهة الشيطانية:

ويبصرنا بها قوله ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾، هذه الجملة تعالج البعد النفسي النافر من الإنفاق، إذ يقوم الشيطان بوعدنا بالفقر، وأمرنا بالفحشاء عبر سلسلة من الوسوسة والْإِغْرَاءِ والإغواء، ويسلط أولياءه من الجن والإنس، فيوهمكم أولاً أن مجرد الإنفاق إهدار للمال دون فائدة قريبة ظاهرة.. كيف تنفق مالاً أتعبت نفسك في جمعه؟ إنك بذلك تعود إلى الفقر... فإذا عصاه وآمن بالغيب وأصر على الإنفاق يغريه الشيطان بأن ينفق الرديء من المال، وبذا يحتال على الإنفاق.. فإن أمسك عن النفقة، أو أنفق الرديء أدى به ذاك إلى قطع الرحم، وعدم تأمين نفسه ومجتمعه بالإنفاق، والوقوع في الْفَحْشَاء وهي كُلُّ مَا فَحُشَ أَيِ اشْتَدَّ قُبْحُهُ.... البعد عن النتائج المأساوية للوعد الشيطاني.

التضمين الأول

ارتشاف ملذات الوعد الإلهي: المغفرة لخير الآخرة، والفضل لخير الدنيا، ويبصرنا بذلك قوله ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 268)، فوعد الرحمن تُرَجِّحُهُ الْحِكْمَةُ وَالْعَقْلُ، وَوَعْدَ الشَّيْطَانِ تُرَجِّحُهُ الشَّهْوَةُ وَالْحِسُّ. فجذب الوعد الإلهي القلوب ليبادروا إلى نفع أنفسهم والخلق بالإنفاق من خلال الإشارة إلى كَمَالِ مغفرته، وإلى كمال فضله؛ إذ نكّر المغفرة لتفخيمها، وقال ﴿مِنْهُ﴾ لأنه أغنى الأغنياء لا تغيضه النفقة، ولا ينقصه العطاء، فعِظَمُ الْمُعْطِي يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ الْعَطِيَّةِ.

التضمين الثاني

الإنفاق حكمة يورث حكمة يصطفي الله من عباده من شاء بها، ويبصرنا بذلك قوله ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: 269)، والحكمة فِعْلُ الصَّوَابِ عن علم؛ فالحكمة نظرية وهي العلم، وعملية وهي فعل الصواب العدل، فالإنفاق حكمة عملية عن علم؛ ألا ترى إلى الآثار المدهشة لها؛ إذ بها يتم تأمين المجتمع، وإزالة الفوارق الطبقية بين أفراده، ويحدث السلم المجتمعي بين أهله، والحكمة لا تتم إلا بوجود الفقه والإخبات والعقل بوضع الأمور في مواضعها.

التضمين الثالث

يتشرف المنفقون بأنهم من أولي الألباب، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ والألباب جمع لب، وهو خلاصة الشيء، فالمنفقون خلاصة المجتمع المفكر في كيفية حفظ الأمن القومي في الدنيا، وضمان المستقبل القادم في الآخرة.. أليس البخل بقليل من الأموال جر من الأحداث المهولة ما سكبت به الدماء وجرت معه الأهوال؟

التضمين الرابع

الشعور بعلم الله لكل نفقة يتم إخراجها أو التزام يلتزم به، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ (البقرة: 270)، فالنفقة ما أخرجه المرء ابتداء، والنذر ما ألزم به نفسه، ويكون قربة عظيمة إذا لم يشترط صاحبه، وفرق بين النذر والنفقة؛ لأن النذر فيه إلزام للنفوس المترددة أو الجامحة عن الإنفاق فيلزمها العبد بنذره لئلا تتهرب

التضمين الخامس

ينصر الله المنفق؛ أما الظالم فلا يجد له أنصاراً، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (البقرة: 270)، وَالظَّالِمُونَ يدخل فيهم: من ظلم نفسه والمجتمع بترك النفقة، ومن ظلم نفسه والمجتمع بالنفقة المقترنة بالمن والأذى، ومن ظلم مجتمعه بعدم حمايته في أمنه القومي المرتبط بالإنفاق على الأمن والتعليم والمصالح العامة، ومن ظلم نفسه بأن يكون قدوة سيئة في التباهي والتفاخر بما ليس فيه إلا السوء والسرف والفحشاء.

هيئة تقديم الصدقات ومن يستحقها (البقرة-271):

بصيرة 1

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ تبصرنا بضرورة التربية على التنافس بما هو أزكى في الإنفاق، فيصح تقديم الصدقات جهراً، وتقديمها سراً، والأفضل منهما حسب الأثر. فالسر أفضل إذا علم أنه قد لا يقتدى به، وأن ذلك أفضل للفقراء، والإظهار أفضل إذا علم أنه سيكون إماماً يقتدى به، وفعله يوجد التنافس بين الناس، ولذا فالظاهر أن كلمة ﴿خير﴾ اسمٌ، وليس أفعل تفضيل.

بصيرة 2

الإنفاق سراً وعلناً يؤدي إلى تكفير السيئات، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: 271)، فقد وردت في الفعل ﴿يكفر﴾ قراءتان:

القراءة الأولى: بجزم (يكفر) لنافع وحمزة والكسائي، وتدل على رجوع التكفير للسر،

القراءة الثانية: للجمهور: برفعها تدل على رجوع التكفير للكل.

بصيرة 3

عدم إعلام الفقير خير من إعلامه، ولذا ذكر الله ﴿الفقراء﴾ مع الإخفاء في قوله ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (البقرة: 271) قَالَت الْحُكَمَاءُ: إِذَا اصْطَنَعْتَ الْمَعْرُوفَ فَاسْتُرْهُ، وَإِذَا اصْطُنِعَ إِلَيْكَ فَانْشُرْهُ.

بصيرة 4

تكرر ذكر الفقراء في الآيات، يبصرنا بضرورة محاربة الفقر، بالتعاون على إعانة الفقراء، ليصبحوا ذوي قدرة على الاكتساب؛ لئلا يتحول المجتمع إلى مجتمع مترهل، يعيش على الإعانات، والضمانات، والصدقات دون استحقاق، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (لا تحل الصدقة لغني ولا ذي مرة سوي) (أحمد وأبو داود، صححه الألباني وقوى الأرناؤوط إسناده)

بصيرة 5

المبادئ الإسلامية تقتضي إعانة غير المسلمين داخل المجتمع وخارجه بالصدقات غير الواجبة، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة: 272) بعد الآيات السابقة، جاءت هذه الآية العظيمة في موقعها المناسب البديع عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فنزلت هذه الآية.. ثم إن النبي ﷺ قال: ((فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ)) (البخاري ومسلم).

أعظم الإنجازات التي يحققها المنفقون (البقرة 272-274)

الإنجاز الأول:

تحقيق الهداية، فالنفقة من أعظم أوجه الهداية التي لا يوفق لها إلا المصطفون، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة: 272).

الإنجاز الثاني:

التفوق في بناء المصالح الشخصية، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ (البقرة: 272):

- دنيوياً بالبركة في المال، وتأليف الفقراء ونشر المحبة في المجتمع، فتعود الفائدة لكم
- ودينياً بالنجاح في الاختبار المؤدي إلى الفلاح فيكون الإنفاق تثبيتاً من أنفسكم في مقامات الإيمان والإحسان.

الإنجاز الثالث:

إثبات محبة الله سبحانه والإخلاص له، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾، وهذا أمرٌ بالإخلاص، وخبرٌ عن تحققه عند المصطفين من عباده.

الإنجاز الرابع:

الانتفاع بالعوض المضمون بالوعد الإلهي الكريم، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: 272)، فبقدر إنفاق الإنسان سيجد ما يودع لمستقبله الشخصي الدنيوي والأخروي دون أن يظلم منه شيئاً، بل سيجده وافياً.

الإنجاز الخامس:

تحري الإنفاق على أولى صنف بشري، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (البقرة: 273)، والإنفاق على هذا الصنف توفيقٌ، وإنجازٌ عظيم؛ إذ هم يمثلون خيرة من ينفق عليهم من أبناء البشرية الصادقين، ووصف الله هذا الصنف بست صفات:

الصفة الأولى:

وصفهم بأنهم فقراء، ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾

الصفة الثانية:

﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي قصروها على طاعة الله من القيام على الأمور العليا في إغاثة الأمة من تعليم وجهاد وقيام على حاجات الناس، ونشرٍ للقرآن، وهو أفضل العبادات؛ لأنه حفظ للدين كله.

الصفة الثالثة:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا المعنى الثاني للإحصار، وهو أن يحصروا عن السفر للتجارة وطلب الرزق فما أشبههم بالذين تحول إجراءات السفر المستحدثة عن أن يهاجروا إلى مكانٍ لهم فيه سعة.. حبستهم الحروب المجرمة التي يشنها المسعورون من جنود إبليس ضد الأبرياء.

الصفة الرابعة:

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ وهذه الصفة من أهم أسباب البحث عنهم، وهي تربي الموسر الغني على أخذ زمام المبادرة في إيجادهم.

الصفة الخامسة:

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ السيما العلامة، وليس المراد بها كما قيل التَّخَشُّعُ وَالتَّوَاضُعُ، لأنه هذه العلامات تناقض قَوْلُه ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ بَلِ الْمُرَادُ يظهر عليهم همُّ دينهم، وتعظيم ربهم، والبحث عن معالي الأمور في رفعة أمتهم، وإصلاح العالم المعوج.

الصفة السادسة:

﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي إلحاحاً فهو وصف لواقع فلا يسألون قليلاً ولا كثيراً، فربما سألوا لغيرهم ثم لم يكرروا تلك المسألة لعلمهم بأن التوفيق للإنفاق من الله لا من البشر، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ))، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

الإنجاز السادس:

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 273) الصلة المباشرة بالله عند كل نفقة، فربما أنفقتَ، ولم تجد شكراً بل قد تجد جحوداً ونكراناً وكفراً.. فما الضير؟

الإنجاز السابع:

أن يعيش حياة الإنفاق الجالبة للسكينة الطاردة للخوف من المستقبل والحزن على الماضي، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: 274)

القسم الثاني: 2

الربا أهم نماذج التعاملات المالية المحرمة، وكشف الفلسفة المدمرة التي يقوم عليها (البقرة 281-275):

المناسبة والاتصال:

إنه الترتيب المعجز: الإنفاق أداة التراحم الحقيقية.. يبين جمال العبودية، وصدق الفهم لحقيقة الاستخلاف في الأرض، والربا عكس ذلك، فالعلاقة بين الإنفاق والربا التضاد، فلما ذكر عظمة النفقة وأثرها في تكافل المجتمع وتقويته ذكر ما يقابل النفقة من الربا الإجرامي الذي يستغل حاجة الفقراء ويمتص دماءهم بدلاً من النفقة عليهم أو إقراضهم شيئاً يكون أساساً لرأس مالٍ عندهم للبيع والشراء، وهو وسيلة الامتصاص الخطيرة التي لجأ إليها المفسدون من بني إسرائيل عندما يستخلفون في الأرض استخلافاً جزئياً أو كلياً، وبعد هذا القسم ذكر الله البديل المناسب للربا المدمر، وهو التداين الاستثماري والاستهلاكي

بصيرة 1

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ تبصرنا هذه الجملة بمصطلح قرآني متميز للوحوش البشرية الاقتصادية هو (أكلة الربا)، والمصطلح يصور جشع المرابين، فهم يأكلون الربا أي يتعاملون به، ونبّه بالأكل على ما سواه، وخصّ الأكل، لأن الآية تصور بشاعة آكل الربا وأنانيته؛ فالزيادة الربوية التي كان يمكن أن يستفيد صاحبها منها في استثمار يقلل الفوارق بينه وبين الحياة الكريمة اللائقة لكن آكل الربا بادر بأكلها، فالأكل هو الوسيلة الأكيدة لمنع أي كان من الانتفاع بالمأكول بعد أكله.

بصيرة 2

﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: 275) صورةٌ ثانية للواقع المخزي الدنيوي والعاقبة الأخروية المهينة المقززة لهذه الفئة المجرمة، تراهم فيها كالذي يتخبطه الشيطان أي يضربه عَلَى غَيْرِ تنظيم أو ترتيب، فلا هداية، ولا عقل ولا رشد، كأن الشَّيْطَان مَسَّهُ بِخَبَلٍ أَوْ جُنُونٍ، وتخيل شخصاً يتخبطه البعير بأخفافه كيف يحاول التخلص من ذلك المأزق مندهشاً دون حركات واضحة، والذي يتخبطه هنا هو الشَّيْطَان فيَطَؤُهُ برِجْلِه فَيُخَبِّلَهُ، ويمسه بيده فيصبح فاقداً عقله.

بصيرة 3

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ تبصرنا الجملة بأنهم يتلاعبون بعقول البشرية في إباحة الربا، فقاسوا البيع على الربا، وجعلوا الربا أصلاً؛ لأن الربا عندهم مضمون الفائدة، وكأن البيع مجرد إلحاق به، فالأصل عندهم هو الفائدة الذاتية التي تعبر عن الأنانية، وليس المشاركة التي تنتج عن البيع.

بصيرة 4

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: 275) تبصرنا بأن تشريع ما يُصلح الحياة البشرية الحياة البشرية حق إلهيٌ لأنه المحيط بما تحتاجه البشر، وهنا يأتي الرد عليهم فالفرق بين البيع والربا واضحٌ؛ إذ البيع عملية تبادل سلعة بمال مما يعود على كلا الجهتين بالنفع، أما الربا فعملية تبادل مالٍ بمالٍ أكثر منه دون حركة استثمار حقيقية، فالآخذ يؤول أمره إلى زيادة الاستدانة، والمعطي المرابي يزداد غنى بامتصاص دماء الآخذ.

بصيرة 5

تبصرنا الآية بأن آكل الربا له حالتان:

إما التوبة	وإما الاستمرار في ارتكاب الجريمة
﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، فيعفى عن حياته السالفة، ولا يلزم برد الربا الذي كسبه سابقاً، ويوكل أمر صدق توبته إلى الله	وعندها ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

بصيرة 1

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾(البقرة: 276) تبصرنا بأن الربا يدمر المجتمع اقتصادياً واجتماعياً والصدقة تنميه، والْمَحْقُ نُقْصَانُ الشَّيْءِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ، ثم محوه وذهابه

والمحق يكون في الدنيا بأن يكثر المال عند صاحبه في الظاهر لكنه يمحق المجتمع، ويجعل الهوة عظيمة بين طبقاته، فالرِّبَا زِيَادَة فِي الصورة نُقْصَانٌ فِي الْحَقِيقَةِ، والصَّدَقَةَ نُقْصَانٌ فِي الصُّورَةِ، زِيَادَةٌ فِي الحقيقة، وفي مسند أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قُل))(صححه الألباني)، وفي المقابل قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ -وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ- وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا ﷺ وفي لفظ مسلم: وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ ﷻ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ))(البخاري ومسلم).

بصيرة 1

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة: 276) تبصرنا بأن الربا مجلبةٌ للكفر والإثم، فالوصفان يذكران نوعين من الناس: فالْكَفَّارُ مُسْتَحِل الربا، وَالْأَثِيمُ مَنْ يَفْعَلُهُ مَعَ اعْتِقَادِ التَّحْرِيمِ.

بصيرة 1

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: 277) تبصرنا بأن المجتمع الآمن من الخوف المستقبلي والحزن على الماضي والحاضر هو الذي جمع بين الإيمان القلبي، والعمل الظاهري للصالحات، وإقامة الصلاة التي تدل على الصلة الحسنة بالخالق وإيتاء الزكاة التي تدل على الصلة الحسنة بالخلق، وليس بالربا، فهذه الأعمال قوام تأمين المجتمع من الخوف والحزن.

بصيرة 1

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: 278) تبصرنا بأن أخذ بقية الربا بعد العلم بالتحريم ينافي الإيمان، ويضاد التقوى، ولذا كان أول من يتبرأ من الربا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويبرئ قرابته منه،

فعند مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رَسُول اللَّه ﷺ فِي حَجَّة الْوَدَاع يَقُولُ: ((أَلاَ إِنَّ كُلَّ رِبًا مِنْ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ. وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُهُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فإنه موضوع كله)).

بصيرة 2

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ تبصرنا بأن المجتمع الربوي عرضة لحرب الله ورسوله، وهذا ترهيب مزلزل، وفي الآية قراءتان تصوران مشهدين:

القراءة الأولى:

﴿فأذنوا﴾ أي فاعلموا أن حرباً من الله ورسوله ستشن عليكم.

القراءة الثانية:

﴿فآذنوا﴾ في قراءة حمزة وشعبة أي فأعلموا المُصرّين على الربا، وأبلغوا المجتمع أجمعين بالحرب من الله على المجتمع الذي يشيع فيه الربا، وحسبك أن تعلم أن 15% في الولايات المتحدة دون خط الفقر، وهذا جزءٌ من الجانب المظلم من تلك الحضارة البراقة الخادعة.

بصيرة 3

تبصرنا هذه الآية بأن حرب الله على المرابين تقتضي أن تعزرهم السلطة القضائية، وقد يصل إلى التعزير إلى ما يشبه عقوبة الحرابة حسب مقدار الجرم الذي يقترفون.

بصيرة 4

تنكير (حرب) يدل على أن الحروب متنوعة على أكلة الربا فقد تكون حرباً إقتصادية أو اجتماعية أو زلازل أو كوارث أو غير ذلك.

بصيرة 5

﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: 279) تبصرنا بأن صدق توبة المرابي تظهر بأن يكتفي بأخذ رأس ماله، ولا يأخذ الزيادة الربوية، ف﴿لا تَظلمون﴾ من عاملتموه بأخذ الزيادة التي هي الربا ﴿ولا تُظلمون﴾ بنقص رؤوس أموالكم.

بصيرة 6

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 280) تبصرنا بأن المجتمع المتراحم يُنظِرُ المدين المعسر أو يضع عنه دينه: أي إن وُجِدَ ذُو عُسْرَةٍ لا يجد وفاء لدينه ﴿فنظرة إلى ميسرة﴾ فيجب على صاحب الدين أن يُنظِرَه أي يؤخره حتى يجد ما يوفي به، فالنبي ﷺ يقول:

((من أنظر معسرا فله بكل يوم مثله صدقة)) ثم قال: ((من أنظر معسرا فله بكل يوم مثلاه صدقة)) فسئل عن ذلك فقال: ((بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة))

(أحمد وابن ماجة، قال الذهبي: إسناده صالح، وصححه الألباني)

وذكر الله بديلاً أجمل يعود بالخير على جميع الأطراف في قوله ﴿وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ فإن تصدق صاحب الدين على المدين بإسقاط دينه كله أو بعضه كان خيراً لهما وللمجتمع كله؛ إذ هذه المساعدة تؤدي إلى نهوض المدين لينشغل بالبحث عن استثمار مناسب بدلاً من التفكير في سداد الدين.

بصيرة 7

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: 281) تبصرنا بأن الكف عن حرمات المجتمع مقياس حقيقي لاتقاء العقوبة العظيمة يوم اللقاء، فترك الربا، وإنظار المعسر، والصدقة من أعظم الأرباح عند ذكر المكاسب يوم القيامة،

فقال رسول الله ﷺ: ((من نفس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة)) (أحمد والدارمي، حسنه البغوي وصححه الألباني).

القسم الثالث: 3

التداين وإدارة التجارة والاستثمار [البقرة283-282]

المناسبة والاتصال:

بعد ذكر الله أبرز المعاملات المالية المحرمة وهو الربا بين البديل المناسب عنه لإتمام عملية التنمية العادلة في المجتمع، وهو التداين، وذكره في هذا الموضع مباشرة بعد قوله ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ حتى لا يظن السامع أن التجارة وجمع الأموال مذمومة في الإسلام في ظل الترهيب من الحساب في اليوم الآخر..

نظرة عامة إلى هذا القسم

بصيرة 1

تكون هذا القسم من آيتين عظيمتين، وفصّل الأمور المالية المتعلقة بالتداين الاستهلاكي والاستثماري تفصيلاً تشريعياً قانونياً معجزاً، وأخذت آية التداين الأولى هذا الشكل المهيب المتميز الذي لم يتكرر في القرآن من حيث الطول، فتضمنت خَمْسَةَ عَشَرَ أَمْرًا وَنَهْيًا، ويظهر من الآيتين الإعجاز العجيب في ناحيتين:

1. السبق التشريعي الإسلامي بهذه المبادئ للتشريع المدني والتجاري بحوالي عشرة قرون.
2. الصياغة للمجالات التشريعية كالإعجاز في الصياغة للمجالات التربوية التوجيهية أو للمجالات التعظيمية مع التداخل بين هذه المجالات، فنلاحظ أن الصياغة هنا بأسلوب قانوني فريد معجز ليبين أحكام هذه المبايعات مع شمول هذه الصيغة للدين المعتاد.

بَصِيرَة 2

الآيتان تبينان أن التَّدَايُن مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَاب التنمية العادلة في المجتمع؛ لِأَنَّ الْمُقْتَدِرَ عَلَى تَنْمِيَةِ الْمَالِ قَدْ يَعُوزُهُ الْمَالُ، فَيَضْطَرُّ إِلَى التَّدَايُنِ لِيُظْهِرَ مَوَاهِبَهُ فِي التِّجَارَةِ أَوِ الصِّنَاعَةِ أَوِ الزِّرَاعَةِ، فحددت الآيتان بدقة مدهشة وسائل التَّوَثُّقِ والتوثيق في التداين، وإدارة التجارة الحاضرة والغائبة لِبَثِّ الثِّقَةِ بَيْنَ الْمُتَعَامِلِينَ، لتنمو عُقُود الْمُعَامَلَاتِ وتنتشر وسائل التَّمَوُّيلِ، ولا يكون السوق حكراً على المرابين.

بَصِيرَة 3

آيتا التداين تفصلان حرص الإسلام على حفظ الأموال، وتوثيق تداولها، وتنميتها، وهما بذلك يشجعان على الاستثمار، فالمال أساس الحركة في الحياة ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (النساء:8)، أَيْ تَقُومُ وَتَثْبُتُ بِهَا مَنَافِعُكُمْ وَمَصَالِحُكُمْ

وقد روى أحمد والبخاري عن عمرو بن العاص قال: بعث إلي النبي فأمرني أن آخذ علي ثيابي وسلاحي، ثم آتيه، ففعلت فأتيته وهو يتوضأ، فصعد إلي البصر ثم طأطأ، ثم قال: «يا عمرو، إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله، وأرغب لك رغبة من المال صالحة»، قلت: إني لم أسلم رغبة في المال، إنما أسلمت رغبة في الإسلام فأكون مع رسول الله ، فقال: «يا عمرو، نعم المال الصالح للمرء الصالح» صححه الألباني.

والمذموم أن يكون الإنسان عبداً للدينار والدرهم.

بَصِيرَة 4

تقدم الآيتان أحكاماً ثرية للتداين الاستثماري والاستهلاكي بجميع أنواعه صغيره وكبيره، وإدارة التجارة حاضرة وغائبة، وذلك لتفصيل البدائل الثلاثة عن الربا: البيع، والصدقات، والقرض (الدين).

بَصِيرَة 5

إنما نجد هذا التفصيل التشريعي للتداين الذي لم نجده في عبادات أخرى مثل الصلاة، لتحقيق الأهداف الآتية:

1 الهدف الأول: المحافظة على الحقوق المالية الإنسانية العامة فتنضبط المعاملات، ولا تكون الثقة مدخلاً للكذب وأكل أموال الناس بالباطل.

2 الهدف الثاني: حتى يطمئن الدائن بدقةٍ إلى الضوابط المحتفة بالدين، فيشجعه ذلك على تقديمه مطمئناً أنه سيعود إليه، فيفشو التعاون والتعاطف بين المجتمع عن طريق الدين بالتزام الطرف المدين أداء ما عليه.

3 الهدف الثالث: لتعليم العالم الدقة التنظيمية للحياة العامة في المعاملات المالية كدقته في ضبط حياتهم الشخصية، فيوقنون أن هذا الدّين هو الحق من عند الله ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحج: 54).

بَصِيرَة 6

أنواع البيوع والاستثمارات التي أشارت إليها آيتا الدين:

الأول: بَيْعُ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ، وَذَلِكَ لَيْسَ بِمُدَايَنَةٍ الْبَتَّةَ.

الثاني: بَيْعُ الدَّيْنِ بِالدَّيْنِ وَهُوَ بَاطِلٌ لا معنى له، فَلَا يَكُونُ دَاخِلًا تَحْتَ هَذِهِ الْآيَةِ.

الثالث: بيع الْعَيْنِ بِالدَّيْنِ، وَهُوَ مَا إِذَا بَاعَ شَيْئًا بِثَمَنٍ مُؤَجَّلٍ متأخر، أو بثمن مؤجل يحل بعد الرضا بالمبيع.

الرابع: بيع شيء موصوف في الذمة إلى أجل معلوم بشرط تسليم رأس المال -الثمن- في مجلس العقد.

بصيرة 7

بين الله فيها أن المعاملات المتعلقة بالتداين الاستهلاكي والاستثماري أربعة أشكال:

الشكل الأول: تداين أو تجارة بِكِتَابٍ وَشُهُودٍ.

الشكل الثاني: تداين أو تجارة بشهود دون كتاب.

الشكل الثالث: تداين أو تجارة بِرِهَانٍ مَقْبُوضَةٍ.

الشكل الرابع: تداين أو تجارة الْأَمَانَةِ.

النوع الأول: تداين أو تجارة بكتاب وشهود

المادة الأولى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يبصرنا النداء للمؤمنين في أمر يتعلق بالتنمية الاستثمارية المالية أن يكون المجتمع المسلم حاضراً في إعمار الأرض، وتجارتها، ولا يمنعه الزهد والتقوى من ذلك، فيستقل عن تلاعب كبار المستثمرين، والشركات الاستثمارية عابرات القارات.

المادة الثانية:

﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (البقرة: 282) تبصرنا بأنه يجوز التداين (بيعاً أو قرضاً) في حلالٍ على أن يتم تسمية موعد السداد، "فَأُدْمِجَ تَشْرِيعُ التَّأْجِيلِ فِي أَثْنَاءِ تَشْرِيعِ التَّسْجِيلِ"، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ السَّلَفَ الْمَضْمُونَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى أَنَّ اللَّهَ أَحَلَّهُ وَأَذِنَ فِيهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

المادة الثالثة:

﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ (البقرة: 282) تبصرنا بأن (الشرط الأول للتداين: الكتابة التفصيلية التي تعم كل ما يتعلق بالتداين)، والظاهر وجوبها لتتم الثقة بين المتعاملين، ولتظهر الحقوق والواجبات، وتحل التنمية في السوق، ويلجم شيطان الوسواس، وتسمى الكتابة: عقداً، وتذكير بالحق.

المادة الرابعة:

﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ (البقرة: 282) تبصرنا بأنه يجب أن يكتب كاتب الدين بالعدل، وهذا يقتضي أن يتولى الكتابة كاتبٌ ماهرٌ خبيرٌ بالأمور الاقتصادية والشرعية ذات الصلة، ويُفَصِّلُ ما يتعلق بطرفي الدين تفصيلاً لا يبقى معه ثغرة للتلاعب.

المادة الخامسة:

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾ تبصرنا بأنه يحرم امتناع كاتبٍ من كتابة ما علمه الله من كتابة وعلم بالفقه والمعاملات، ومثله: إذا دُعِي إلى مصلحة عامة وجب عليه الإجابة كفاية أو عيناً، وذلك يقتضي أن يُعطى الكاتب ما يعينه على التفرغ للكتابة من مكافأة أو راتب إذا كان متفرغاً.

المادة السادسة:

﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ تبصرنا بأنه يجب أن يكتب الكاتب وفق الهيئة التي علمه الله إياها، ولا يتلاعب أو يتساهل، فالكاف في (كما) للمشابهة أي كتابةً تماثل ما علمه الله، ويجوز أن تكون للمكافأة أَيْ أَنْ يَكْتُبَ كِتَابَةً تُكَافِئُ تَعْلِيمَ اللَّهِ إِيَّاهُ الْكِتَابَةَ، بِأَنْ يَنْفَعَ النَّاسَ بِهَا شُكْرًا لله، وهذا يقتضي إنشاء المؤسسات التعليمية الخاصة بهذا النوع من التعليم المتخصص.

المادة السابعة:

تبصرنا الآية بوجوب الاعتناء بالبناء التربوي للعدالة في شخصية الخبراء الاقتصاديين قبل البناء العلمي، ونستنبط ذلك من تقديم صِفَةَ الْعَدَالَةَ عَلَى صِفَةِ الْعِلْمِ، فهذا الترتيب الطبيعي المنطقي لإقامة التوثيق، كما قال رشيد رضا : "فَمَنْ كَانَ عَدْلًا يَسْهُلُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ مَا يَنْبَغِي لِكِتَابَةِ الْوَثَائِقِ؛ لِأَنَّ الْعَدَالَةَ تَهْدِيهِ إِلَى ذَلِكَ، وَمَنْ كَانَ عَالِمًا غَيْرَ عَدْلٍ فَإِنَّ الْعِلْمَ يزيده فجوراً".

المادة الثامنة:

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ تبصرنا بأن المستدين يجب عليه أن يملي على الكاتب في حضرة الدائن حتى لا يدّعي أن شيئاً تم التلاعب في كتابته، وفي هذا المشهد البديع جماله تتجلى عدالة الإسلام ودقة أحكامه وشدة حرصه على حقوق الإنسانية.

المادة التاسعة:

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ تبصرنا بأن الكاتب والمملي يجب أن يتقيا الله، فلا يحاولان وضع كلمات يتم من خلالها التلاعب بالأمر، فالْبَخْسُ هُوَ النَّقْصُ بِالتَّعْيِيبِ وَالتَّزْهِيدِ، أو التلاعب في العبارات دون معرفة صاحب الحق، والمراد ألا يحقر شيئاً طفيفاً من التفاصيل التي تحفظ الحقوق، وتقيم التوثيقات، ويؤخذ من ذلك أيضاً: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول.

المادة العاشرة:

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ تبصرنا بأن الأصل أن يكتب أو يمل الذي عليه الحق بنفسه حتى لا يحاول التنصل أو الإنكار لشيء مستقبلاً، إلا أنه تجوز النيابة عنه في إثبات الحقوق وتوثيقها لئلا تتعطل الحياة الاستثمارية التجارية، والمعاملات المالية بين الناس، والنيابة تكون في هذه الحالات الثلاث:

الحالة الأولى:

أن يكون سفيهاً أي ضَعِيف الرَّأْيِ نَاقِص الْعَقْلِ لصغره أو لعدم رشده، أو لجنونه، أو لقلة وعيه المالي، أو لخرفٍ أصابه بسبب كبر سنه.

الحالة الثانية:

أن يكون ضعيفاً؛ أي يمكن أن يُغلب على رأيه بإكراهٍ أو غيره.

الحالة الثالثة:

لا يستطيع أن يُمِلّ لضعفه عن الإملاء بسبب خرس، أو جهلٍ بالأمور المالية، وبذا يكون إقرار السفيه والضعيف والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح؛ لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئا لطفاً بهم ورحمة، خوفا من إتلاف أموالهم، وتبديد ثرواتهم.

المادة الحادي عشر:

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ تبصرنا بأن (الشرط الثاني للمداينة: استشهاد اثنين من رجال المسلمين)، فشهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل، وسبب طلب أكثر من شاهدٍ دفع احتمال أن يتواطأ الشاهد الواحد مع أحد الطرفين، فكان الشاهد الثاني للاحتياط في إثبات الحق، وعدم التلاعب به.

المادة الثانية عشرة:

﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، وذلك لضعف الاهتمام بأمور التنمية المالية عند النساء غالباً؛ إذ جعل الله ذلك على عاتق الرجال شرعاً، وطبعاً، وتبصرنا بأنه تجزئ شهادة المرأتين ولو وجد رجل ثانٍ، لأن المقصود التوسعة وعدم التعقيد في المعاملات التجارية، ولتطبيع الحياة الاجتماعية على إدخال المرأة في شؤون الحياة المختلفة بالقدر المناسب لها رداً على العبث الجاهلي بمكانة المرأة والحط من قدرها، واستنبطنا ذلك من أن (كان) هنا ناقصة، ولم يأت بها تامة فلم يقل: (فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَجُلَانِ)؛ إذ لو قال ذلك لكان المعنى: فإن لم يوجد رجلان، وتصير شهادة المرأتين بدلاً من الرجل غير مقبولة إلا إذا تعذر وجود الرجلين، والأمر ليس كذلك.

المادة الثالثة عشرة:

﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ (البقرة: 282) تبصرنا بشروط الشهداء؛ إذ قال الله: ﴿ترضون﴾، فتشترط العدالة في الشاهد بشروطها المعروفة، وبعض صفات العدالة مرجعها العرف والعادة، والإسلام شرطٌ في الشهادة إلا إذا تعذر وجود مسلم، أو احتيج إلى زيادة بينة

المادة الرابعة عشرة:

﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ تبصرنا بأنه يجب أن تكون شهادة كل من الثنتين في حضور الأخرى؛ إذ إن قوله –جل في علاه– ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾ تَعْلِيلٌ لِعَدَمِ الاكْتِفَاءِ بِالْوَاحِدَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ تَعْلِيلٌ لِإِشْهَادِ امْرَأَةٍ ثَانِيَةٍ حَتَّى لَا تَبْطُلَ شَهَادَةُ الْأُولَى مِنْ أَصْلِهَا.

المادة الخامسة عشرة:

﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ تدل على أن الشاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

المادة السادسة عشرة:

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ (البقرة: 282) تبصرنا بأنه يحرم على الشهداء الامتناع عن الشهادة تحملاً وأداءً.

المادة السابعة عشرة:

هذه الآية تبصرنا بأنه يجب على القائمين على الأمور في البلاد الإسلامية نصب الكُتّاب والشهداء لتسهيل الإجراءات التجارية، وتشجيع الحركة الاستثمارية، ويلزم من هذا وجوب نشر التعليم العام والمتخصص لإيجاد الكفاءات المتخصصة في كل هذه المجالات.

المادة الثامنة عشرة:

﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ (البقرة: 282) تبصرنا بأنه يجب على جميع الأطراف الكتابة لكل جزئية تتعلق بالتداين، وذلك لتنشيط الحركة التجارية، وإضفاء الأمان على سوق العمل، ومعنى ﴿لا تسأموا﴾ لَا تَمَلُّوا فَتَتْرُكُوا ثُمَّ تَنْدَمُوا، أو لا تتكاسلوا أو تتهاونوا في كتابة أمرٍ صغُر أم كبر، "وَالنَّهْيُ عَنْ السآمة نهيٌ عَن أَثرهَا، وَهُوَ تَرْكُ الْكِتَابَةِ، لِأَنَّ السَّآمَةَ تَحْصُلُ لِلنَّفْسِ مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ، فَلَا يُنْهَى عَنْهَا فِي ذَاتِهَا"، وذكر الصغير ليبين أنه يجب كتابة الجزئيات في العقود مهما حقر أمرها، وذكر الكبير لئلا يظن أنها لشدة وضوحها يمكن إهمال كتابتها.

المادة التاسعة عشرة:

﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ (البقرة: 282)

هذه مادة دستورية معظِّمة مقاصدية تعليلية تبين الفوائد الثلاث الكبرى لالتزام الأنظمة والأحكام السابقة:

الفائدة الأولى:

﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فصارت مرضاة الله متعلقة تعلقاً وثيقاً بحفظ حقوق الناس، وقد روى الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي قال: ((ثلاثة يدعون الله عز وجل فلا يستجاب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل كان له على رجل مال فلم يشهد عليه، ورجل آتى سفيها ماله وقال الله تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾))

الفائدة الثانية:

﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ وهذه الفائدة تبين أن الكتابة سبيلٌ لتحصيل مصلحة الدنيا، وقطع دابر الشقاق والنزاع، وقُدِّمَتِ الفائدة الْأُولَى عَلَى الفائدة الثَّانِيَةِ إِشْعَارًا بِأَنَّ الدِّينَ أساس مصلحة الدُّنْيَا، وسعادة العالمين.

الفائدة الثالثة:

﴿وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾، فالغرض من تلك الأحكام وخاصة الكتابة والإشهاد رفع الحرج عن كلا الطرفين، وبيان لهما أن زرع الثقة الحقيقية ليس بعدم الكتابة، بل بالكتابة.

النوع الثاني: تداين أو تجارة بشهود دون كتاب

المادة العشرون:

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ (البقرة: 282) تبصرنا بالنوع الثاني من أنواع التداين، وهو التداين بشهود دون كتاب، وذلك لتسهيل انتشار إدارة التجارة في المجتمع، فالتِّجَارَةُ عِبَارَةٌ عَنِ التَّصَرُّفِ فِي الْمَالِ سَوَاءٌ كَانَ حَاضِرًا أَوْ فِي الذِّمَّةِ لِطَلَبِ الرِّبْحِ، وتشمل البيع والشراء والصرف والسلم، والمعنى: يعفى عن الكتابة في التجارة الحاضرة، فمعنى ﴿فليس عليكم جناح﴾ أي لا حرج ولا مضرة إن قلنا الكتابة غير واجبة فيما سبق، أو لا إثم لو قلنا الكتابة واجبة.

المادة الحادية والعشرون:

﴿تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا﴾ تبصرنا بهذا المصطلح القرآني المدهش المضيع في حياة المسلمين الأخيرة (إدارة التجارة)، ومن خلاله يستبين أن الأحكام السابقة تتضمن بصورةٍ أولويةِ الكلام عن التجارة الغائب فيها أحد نوعي المبادلة وهو الذي يسمى (السَلَم)، والآن ذكر التجارة الحاضرة فبين أنه يجوز عدم الكتابة فيها، وذلك حتى لا يشق على الناس، ويؤخر المعاملات التجارية المستعملة نظراً لخضوعها للإجراءات الطويلة المملة؛ إذ ذلك يؤدي إلى الشعور بالحرج مع احتياج المجتمع إلى أن انتشار الحركة التجارية وتكثر فيه المعاملات المالية المختلفة ليستمر النمو المطلوب لرفاهية المجتمع واستقراره وكرامته.

المادة الثانية والعشرون:

﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ (البقرة: 282) تبصرنا بأن الإعفاء من الكتابة في التجارة الحاضرة لا يعني الإعفاء من الشهادة.

المادة الثالثة والعشرون:

﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ (البقرة: 282) تبصرنا بأنه يحرم مضارة الكاتب والشهيد، والمضارّة: إِدْخَال الضرّ، وهذه الكلمة المدهشة (يضار) تُظهِرُ لنا صورتين قرآنيتين على الأقل ينبغي مراعاتهما في الحياة التجارية، وذلك بِسَبَبِ الْإِدْغَامِ الْوَاقِعِ فِي ﴿يُضَارَّ﴾:

الحالة الأولى:

أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ لَا يُضَارِرْ بِكَسْرِ الرَّاءِ الْأُولَى، ثم تم الإدغام، فَيَكُونُ الْكَاتِبُ وَالشَّهِيدُ هُمَا الْفَاعِلَانِ لِلضِّرَارِ أي: (وَلَا يُضَارِرْ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)، وبذلك تكون الجملة نصاً قانونياً ينهى الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق، أو المجتمع بالامتناع أو بطلب أجرةٍ شاقةٍ ونحو ذلك.

الحالة الثانية:

أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ (لَا يُضَارَرْ) بِفَتْحِ الرَّاءِ الْأُولَى، فيكون المعنى: لا تضروا بالكاتب والشهيد كأن يُدْعى أحدهما في وقت اشتغالٍ أو مشقةٍ، أو أن يطلبوا للمجيء دون توفير بدل مواصلات أو إقامة أو بدل تفرغ.

المادة الرابعة والعشرون:

﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ تبصرنا بأن المضارة لواحد من أفراد المجتمع محرمة، وهي فسق سواء أكانت ضد الشهود والكتّاب أو كانت من الشهود والكتاب ضد أحد الأطراف.. وأكد الله ذلك وذكره لاحتمال استغلال بعض الأطراف لسلطاته وصلاته للضغط على الآخرين خاصة في الأمور التجارية الكبيرة.

المادة الخامسة والعشرون:

﴿فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فُسّاق، ويبصرنا ذلك بأن الأوصاف الشرعية كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر.

المادة السادسة والعشرون:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذه مادة حاكمة معظمة تبصرنا بأن التقوى ركيزة الأمان في المعاملات؛ إذ كل القوانين يمكن الاحتيال عليها، ولا يعصم من الاحتيال إلا التقوى؛ فهي سبب الفرقان الذي يعين على اتخاذ القرارات الصائبة في كل شيء بحسبه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال 29) فالتقوى تعني –ضمن معانيها الرائعة– اتِّقَاءِ أَسْبَابِ الضَّرَرِ وَالْخُذْلَانِ على المستوى الفردي والجماعي.

المادة السابعة والعشرون:

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 282) هذه مادة حاكمة معظمة تبين أن القرآن هو المصدر الحقيقي ليعلمنا الحقائق الكلية والتفصيلية التي تقيم الحياة البشرية على أمثل الوجوه سواء كان ذلك في المجالات الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية، فحقائق القرآن يقولها الله الذي هو بكل شيء عليم، ويروعك تكرار لَفْظُ (الله) فِي الْجُمَلِ الثَّلَاثِ الأخيرة في هذه المادة والتي قبلها لتحقيق التعظيم، وبيان أن هذه المواد حاكمة، فكل منها كأنها مستقلة في ذاتها.

النوع الثالث: تجارة بِرِهَانٍ مَقْبُوضَةٍ:

المادة الثامنة والعشرون:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ (البقرة: 283) تبصرنا بأن الرهن يقوم مقام الكتابة، وشرط الرهان أن تكون مقبوضة؛ لأن المراد توثيق التجارة، فالرهان غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق، ولذا لو اختلف الراهن (صاحب الرهن)، والمرتهن (آخذ الرهن) في قدر ما رهن به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضا عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهن به لم يحصل المعنى المقصود.

والبيع بالرهان يجوز في السفر والحضر، وسبب التقييد بالسَّفَرِ أنه مظنة عدم وجود الكاتب مع حرص الشارع على أمرين متلازمين: تسهيل سبل التجارة والاستثمار، واستغلال الفرص المختلفة لإنجاز الصفقات المناسبة مع توثيق ذلك توثيقاً يمنع من التلاعب..

المادة التاسعة والعشرون:

﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يبصرنا بطريق الإشارة إلى أنه يجب على الأمة الإسلامية بمنظماتها الحكومية والأهلية تعميم نشر التعليم ومحو الأمية ليوجد الكاتب فهو الأصل في التوثيق.

النوع الرابع: بيع الأمانة (دون كتابة ولا شهود ولا رهن):

المادة الثلاثون:

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ (البقرة: 283) تبصرنا بأنه إذا وثق أحدٌ بالآخر ولم يَخَفْ خِيَانَتَهُ وغدره وَجُحُودَهُ، فشعر بالأمن من جهته ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ فكُلّ طرفٍ يجب أَنْ يُؤَدِّيَ أَمَانَتَهُ، فجمع صوراً متعددة، فيدخل في ذلك: البائع والمشتري، والدائن والمدين، وأيضاً الشهداء والكتاب، والراهن والمرتهن بما في ذلك الرهن، والموثقين، وجهات التوثيق، وليست هذه ناسخة لما سبق بل تدل على التخفيف فيما يكون يسيراً في قيمته وهيئته، أو ما اضطروا إلى التبايع فيه دون تلك الضوابط والشروط.

المادة الواحدة والثلاثون:

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ (البقرة: 283) هذه مادة حاكمةٌ معظمةٌ أي ليتق كل طرفٍ ربه، فلا يجحد أو يتلاعب بشيءٍ مما يعلمه.

المادة الثانية والثلاثون:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ (البقرة: 283) تبصرنا بوجوب أداء الشهادة وحرمة كتمانها سواء من قبل الشهداء أم من غيرهم، وذلك أن الإنسان قد لا يتم استشهاده، ولكنه يسمع بقضيةٍ دين أو تجارة، ويرى اختلاف أطرافها، فيجب عليه أن يهب لإنقاذ أصحاب الحق من خلال أداء شهادته ولو لم يسألها، وإلا فهو آثمٌ قلبه، فقد قال النَّبِىّ ﷺ «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ الَّذِى يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا» (مسلم)، وأسند الإثم إلى القلب ليبين خطورته عليه وصاحبه يظن أنه لم يقصر، ولم يقترف إثماً كأن القضية لا تعنيه "بحسب زعمه الخاطئ"، مع أنها داخلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعانة المظلوم، وإيصال الحقوق إلى أهلها.

المادة الثالثة والثلاثون:

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 283) هذه مادةٌ حاكمة معظمة كأن الله سبحانه يقول: فانتبهوا من الحيل والاحتيال فإنكم لا تخرجون عن علم الله، وأعظم الناس عملاً بهذا النبي ﷺ فهو لم يشهد ولم يكتب في سفره عندما اشترى من جابر بن عبد الله جمله، ولكنه كتب لغيره في الشراء فقد روى ابن ماجة بسند حسن: قَالَ الْعَدَّاءُ بْنُ خَالِدٍ رضي الله عنه: أَلاَ أُقْرِئُكَ كِتَابًا كَتَبَهُ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ : قُلْتُ : بَلَى . فَأَخْرَجَ لِي كِتَابًا: (هَذَا مَا اشْتَرَى الْعَدَّاءُ بْنُ خَالِدِ بْنِ هَوْذَةَ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ اشْتَرَى مِنْهُ عَبْدًا، أَوْ أَمَةً، لاَ دَاءَ وَلاَ غَائِلَةَ وَلاَ خِبْثَةَ، بَيْعَ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمَ).

الخاتمة

كنز من تحت العرش

(البقرة 284-286)

خاتمة

كنز من تحت العرش

[البقرة 284-286]

المناسبة والاتصال:

بَنَتْ هذه السورة المجتمع الناشئ، وزودته بكل ما يحتاجه للتفوق الحضاري، وإدراك معالم السعادة، مثل التصورات الإيمانية العقدية، وأركان الإيمان والإسلام الأساسية، والتشريعات الدستورية والفقهية الحيوية، والأخلاق العَبِقة الزكية، وأصول الحياة الاجتماعية المدنية، وأصول الاستثمار والاقتصاد القوية التي تكفل النمو التجاري، وإيجاد فرص العمل، والتوازن بين العدل والرحمة في الأسواق التجارية، وختم الله تعالى هذه الرحلة المدهشة بختام إيماني وجداني يساعد على تطبيق تلك المبادئ والتشريعات، وهو ختامٌ مهيبٌ يمكن أن نجعل له هذا العنوان: (كنز من تحت العرش).

الفصل الأول:

فضائل هاتين الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة:

الفضيلة الأولى:

- الكافيتان في أمور الحياة، فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ)) (البخاري ومسلم).

الفضيلة الثانية:

- اتخذ نزولهما طابعاً مميزاً حيث نزلتا من كنز تحت العرش، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي)) (أحمد والدارمي وغيرهما، صححه ابن خزيمة والألباني والأرناؤوط).

الفضيلة الثالثة:

- اقترن نزولهما بعروج النبي ﷺ إلى سدرة المنتهى، فعَنْ عبدالله بن مسعود قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا قَالَ (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى) قَالَ فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُقْحِمَاتُ. (مسلم).

الفضيلة الرابعة:

- نور مبلّغ مرة ثانية عن طريق رسولٍ ملائكي خاص، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ. (مسلم)

الفصل الثاني: الآيتان تبينان مزايا الحضارة الإسلامية التي ستشرق على العالم:

المزية الأولى:

التسليم المؤمن والتصديق الجازم من الأمة الخاتمة نبياً وأتباعاً، ويبصرنا بها قوله ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(البقرة: 285).. خلاف المنهج (البقري) الذي مشى عليه بعض بني إسرائيل: ﴿آمن الرسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ مِنَ الْعَقَائِدِ والتصورات والتشريعات الحيوية الشعائرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وَالسُّنَنِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى والأعمال القلبية، وكذلك المؤمنون.. وذكر ﴿من ربه﴾ ليبين عظيم اعتزاز المسلم بربه، وجميل صحبة التربية الربانية للمؤمنين.

المزية الثانية:

الإيمان بأركان الإيمان الستة دون الإيمان ببعض وترك بعض، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾، فهذه أربعة أركان مرتبة ترتيباً منطقياً، فالإيمان بالله هو الأساس، ثم إنه يرسل ملائكته بكتبه لتكون بينه وبين رسله من البشر، وأما الإيمان باليوم الآخر فيشير إليه بأسلوب مميز عظيم في قوله ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

المزية الثالثة:

مزية الإيمان بجميع الرسل، ويبصرنا بذلك قوله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة: 285)، وهي مزية تعطي التفوق الحاسم الواضح على مشعلي الحروب من متعصبة أهل الكتاب، فدرجات عظمة الرسل متفاوتة ولكنهم يشتركون في أصل العظمة والمجد، وهو أنهم جميعاً رسل الله.. وكيف يفرق المؤمنون بينهم ومرسلهم واحد –جل شأنه وعزّ سلطانه–؟

المزية الرابعة:

الجمع بين القوة النظرية الفكرية الاعتقادية والقوة العملية الحيوية، ويبصرنا بذلك الجمع بين أول الآية وآخرها، فَقَوْلُهُ ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى استكمال الْقُوَّةِ النَّظَرِيَّةِ الفكرية، وَقَوْلُهُ ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى اسْتِكْمَالِ الْقُوَّةِ الْعَمَلِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فلم يتناقض إيمانهم مع أفعالهم، وهذا أمرٌ لا يفقهه أصحاب التفكير البقري من أهل الكتب الثلاثة (المسلمين واليهود والنصارى)

الفصل الثالث: اتصال الأمة بربها يبين بصائر الفهم الكوني الصحيح:

تضمنت بقية الآيتين مجموعة جمل تعبر عن التضرع والانكسار والضعف البشري متضمنة أدعية عظيمة، وتخبئ هذه الأدعية المباركة كنوزاً من أهم البصائر الحيوية التي تعطي الفهم الصحيح للواقع البشري في الكون، وهي:

بصيرة 1 ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (البقرة: 285) تبصرنا بأن الاستماع الواعي للأنظمة الشرعية، والتنفيذ لها يعني تحطيم أصنام القوانين والتشريعات الباطلة، أي سمعنا قول الله، وأطعنا أمره، ولكنه حذف المفعول ليبين أنه لم يعد في حياة هؤلاء المفلحين أحدٌ جديراً بأن يزاحم قول الله وأمره.

بصيرة 2 ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾, فبعد أن قدموا ولاء السمع والطاعة علموا أنهم –بحكم الطبيعة البشرية– ربما وقعوا في الذنب، أو قصروا في أداء الحقوق، فأتبعوا ذلك الولاء الجليل الاعتذار الجميل فقالوا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾.

بصيرة 3 ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ تبصرنا بأعظم دلائل الحق والعدل وهو الإيمان باليوم الآخر فالمصير له معنيان: المصير الحقيقي وهو يوم القيامة للحساب والجزاء، والمصير الحالي أي نصير إليك ربنا في أمورنا كَأَنَّهُمْ كَانُوا شاردين في أي تصرف فعلوه دون الرجوع إلى الله تعالى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (الذاريات: 50)، ومعرفة المصير ينجي من التيه والظلم الذي سببه ظن الوحوش البشرية أن الحياة لا مصير لها: أرحام تدفع وأرض تبلع دون نهاية.

بصيرة 4 ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: 286) فالتكليف باقٍ ضمن دائرة الوسع، ولكن كلمة ﴿وسعها﴾ في الوقت ذاته تفتح آفاقاً واسعةً ليستغل المرء طاقاته القصوى فالْوُسْعُ: مَا تَسَعُهُ قُدْرَةُ الْإِنْسَانِ مِنْ غَيْرِ حَرَجٍ وَلَا عُسْرٍ، أما الطاقة فتستفرغ قوة الإنسان، فلذا قال: ﴿إلا وسعها﴾ ولم يقل: إلا طاقتها.

بصيرة 5

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ تبصرنا بأن كل إنسانٍ مرتهن بكسبه، لا بكسب غيره، فتثبت قانون المسؤولية الفردية، أي لَهَا ثَوَابَ مَا كَسَبَتْ مِنَ الْخَيْرِ، وَعَلَيْهَا عِقَابُ مَا اكْتَسَبَتْ مِنَ الشَّرِّ، وفرّق بين الكسب والاكتساب لأن اكْتَسَبَ تُفِيدُ التَّكَلُّفَ، كَأَنَّ فِطْرَةَ الْإِنْسَانِ مَجْبُولَةٌ عَلَى الْخَيْرِ، فيميل نحو الشَّرِّ بِالتَّكَلُّفِ المضاد للطبيعة البشرية، لكنه مع اسوداد القلب يصبح أمراً معتاداً، بل لا يعيش المجرم بدونه.

بصيرة 6

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: 286) تبصرنا بأن النسيان والخطأ طبيعة إنسانية يتعامل معها بالتسامح عند عدم الإصرار، "ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا" فتركنا أمرك وعصيناك وخالفناك حال ضعفنا "أو أخطأنا" أي تعمدنا ولا تؤاخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية إلى النسيان أو الخطأ من تفريطٍ وقلة مبالاة ونحوهما، والفرق بينهما: أن النسيان: ذهول القلب عن ما أمر به فيتركه نسيانا، والخطأ: أن يقصد شيئا يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله

وزيد هذا المعنى بياناً بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: 5)، ووضحه قول رسول الله ﷺ قال: ((إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)) (البخاري)، إنه التخفيف السابغ والرحمة الشاملة التي تكفل وحدة المسلمين؛ لأن الوقوع في الزلل طبعٌ بشري.

بصيرة 7

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ (البقرة: 286) تبصرنا بأن الشريعة الخاتمة قائمة على التيسير والتخفيف على البشرية مقارنة بالشرائع السابقة

والمراد بالإصر هنا: العهد الثقيل الذي يترتب على تركه العقوبات المستأصلة، أو العقوبات الدائمة الشاقة، وذلك يقتضي التخفيف من بعض التكاليف الشاقة التي فرضت على الأمم السابقة، وذلك مثل كيفية التوبة من الذنوب مما سبق ذكره، وهذا لا يعني إلغاء كل التكاليف الشاقة بالكلية، فالْإِصْرُ ما يربط به، ويعني الْحَبْس وَالْعَطْف، فاستعير بمعنى الْعِبْء الثَّقِيل الشديد ليَأْصِر صَاحِبَهُ أَيْ يَحْبِسُهُ مَكَانَهُ لَا يستطيع حمله، وسُمِّيَ الْعَهْدُ إِصْرًا لثقله في قول الله تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ (آل عِمْرَانَ: 81)

وتنقسم هذه الخاتمة إلى قسمين:

القسم الأول: الإيمان بالله يمثل الطريق الحقيقي للسعادة الإنسانية (البقرة284)

القسم الثاني: مزايا الإيمان المميّز للأمة الخاتمة المنقذة للعالم (البقرة285-286).

بصيرة 1

ختم الله السورة ببيان صفات الإلهية الحقة التي توجب الإيمان بالكتاب كله لتحقيق السعادة البشرية:

الأولى

المُلك الكامل الذي يقتضي المِلك للذوات والأعراض، ويبصرنا بها قوله تعالى ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة: 284)، ولذا فالنظم التشريعية الواردة في السورة يقصد بها منفعة الخلق لا منفعة تعود إِلَى الخالق سُبْحَانَهُ

الثانية

العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة الذي يؤدي إلى المحاسبة الدقيقة، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ (البقرة: 284) والإبداء هو الإظهار والإبراز للفكر النفسي بالأقوال والأعمال، وَ﴿يحاسبكم﴾ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْحُسْبَانِ وَهُوَ الْعَدُّ

الثالثة

الحكم الذي يعني المشيئة النافذة والإرادة المطلقة القائمة على الحكمة، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة: 284)، وللدخول في المغفرة أو التعذيب أسباب تؤهل لها.

الرابعة

القدرة الشاملة، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: 284)

بصيرة 1

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ تبصرنا بأن التربية القرآنية تقوم على تزكية النفس ببناء المراقبة الذاتية إلى أقصى الدرجات؛ فالحساب على الظاهر، ولكن الحساب على ما نخفيه في أنفسنا مثيرٌ للرهبة، والآية تبصرنا أن الأعمال النفسية والقلبية تنقسم إلى الأنواع الآتية:

النوع الأول: الخَاطِر القلبي الذي لا يصحبه عزمٌ فلا ثواب على خيره، ولا عقاب على شره؛ إذْ لَا طَاقَةَ لِلْمُكَلَّفِ بِصَرْفِهِ عَنْهُ، وقد بين النَّبِيّ ﷺ ذلك فقَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَتَكَلَّمْ)) (البخاري).

النوع الثاني: الخاطر القلبي الذي يتبعه عزمٌ. فإن العبد إذا عزم على فعل الخير ثم منعه عارض خارجي كتب له حسنة، وإذا هم وعزم على فعل المعصية ثم تذكر وأناب كتب له حسنة أيضا.

النوع الثالث: الخاطر القلبي الذي يصحبه عَزْمٌ على عمل الشر، ولم يعمله لأمرٍ خارجيٍ حال دون تنفيذه مع تصميمه عليه فيكتب سيئة، ويحاسب عليه، كالحقد والحسد.. لقد أصبح كسباً قلبياً.

بصيرة 1

المحاسبة على ما يبدو ويخفى قد تكون دنيوية، فمن نعم الله على العبد أن تكون المحاسبة دنيوية، فإن أذنب ربما عجلت له العقوبة في الدنيا رحمة به

فسُئلت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى : ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ وعن قوله ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ فقالت: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: هذه معاتبة الله العبد فيما يصيبه من الحمى والنكبة حتى البضاعة يضعها في كم قميصه فيفقدها فيفزع لها حتى إن العبد ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير (الترمذي، وضعفه الألباني)

القسم الثاني: مزايا الإيمان المميّز للأمة الخاتمة المنقذة للعالم (البقرة 286-285):

المناسبة والاتصال:

تبني الآيات الثلاث الإنسان الصالح الذي هو أساس السعادة المجتمعية، وتبين الفرق بين النظامين العالميين: النظام الإسلامي القائم على مبدأ (سمعنا وأطعنا) ونظام التفكير البقري المنتمي إلى العجل الإسرائيلي القائم على مبدأ (سمعنا وعصينا)، فلَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الآية الأولى ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾، فذكر الله فيها الصفات التي تحدد وحدانية الْأُلُوهِيَّة لله، ومنها المُلْك الكامل، والعلم المحيط، والمحاسبة الدقيقة، والمشيئة النافذة، والقدرة الشاملة، فاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الصحابة، فَأَتَوْا ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أي رَسُولَ اللَّهِ كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلاَ نُطِيقُهَا. فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)). فقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ مدحهم في الآيتين بعدها (مسلم)، فبين الله الإيمان المميّز المميّز للأمة الخاتمة المنقذة للعالم وميزاته حيث قابلت تلك الصفات الإلهية العظيمة بكَمَالِ الْإِيمَانِ والتذلل من خلال الدعاء بما يناسب عظمة الألوهية، وجمال العبودية، وترى الترابط المحكم الوثيق بين أول السورة التي افْتُتِحَتْ بإظهار مزية القرآن في كونه هدى للمتقين، وآخر السورة التي تبين ما عليه المؤمنون من التسليم والإذعان والسمع والطاعة.

بصيرة 8

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ (البقرة: 286)، إذا كان القانون السابق يتضمن مزية عظيمة للأمة هي التخفيف من تبعات العهد الذي كان من قبلنا فإن هذا القانون يعني مزية جديدة هي عدم تحميل الأمة مِنَ الْعُقُوبَةِ أَوْ مِنَ الْبَلَايَا وَالْفِتَنِ وَالْمِحَنِ ما لا طاقة لها به، ولأن الكلام في هذا الدعاء (القانون) عما لا يطاق ذكر التحمل قال: ﴿ولا تُحَمِّلْنا﴾ بينما كان الكلام في الدعاء (القانون) الذي قبله عن الحمل فقال: ﴿ولا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً﴾ "لأَنَّ الشَّاقَّ يُمْكِنُ حَمْلُهُ أَمَّا مَا لَا يَكُونُ مَقْدُورًا لَا يُمْكِنُ تحَمُّلُهُ".

بصيرة 9

﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ (البقرة: 286) تبصرنا بديمومة المدد الإلهي في واقع الأمة فالعفو يقتضي محو السيئات، والغفران يقتضي ستر الزلات، والرحمة تقتضي جلب الخيرات.

بصيرة 10

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قدم الضمير ﴿أَنْتَ﴾ لاستمداد النصرة بذكر الولاية الإلهية؛ لأن أعظم ما يواجه الحضارة التي صنعتها سورة البقرة لتشرق على العالم هو الاعتداء الشرس الذي يأخذ صورة الهياج العالمي المستعر

فيجند في سبيل ذلك القوى المريضة من المنافقين وغيرهم، وأمام هذا التكتل العالمي المعتدي لا بد من الرجوع إلى ولاية الله لاستمداد الحماية والرعاية والقدرة على مواجهة هذا الحلف الشيطاني، فأتى بعد قوله ﴿أنت مولانا﴾ بفاء التفريع لأن ما بعدها مترتبة عليها أي انْصُرْنَا عَلَى الْجَاحِدِينَ وَالْمُرْتَابِينَ مِنْهُمْ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ، وَعَلَى الْمُعْتَدِينَ الباغين بما يقمع منهم العدوان

بصيرة 9

تربية الأمة على الجمع والاجتماع والجماعة، ونزع الأنانية الفردية منها، فالدعاء ابتداء من قوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ... رَبَّنَا ...﴾ (البقرة: 285، 286) بصيغةٍ جماعية للتعويد على الفريضة الغائبة التي تتمركز حول التفكير بعقلية الأمة لا بعقلية الفرد الأنانية المستكبرة.

وهنا ربما تتساءل متلهفاً: لماذا نكرر هذا الدعاء مع أن الملك الوهاب قد قال: (قد فعلت)؟

أما أولاً

فلتلبية حاجة النفس الإنسانية جسداً وعقلاً إلى التذلل والتضرع والمناجاة للجليل الكبير القدير بأجمل الكلمات وأجلها.. ألا تسمع الداعي كَثيرًا مَا يَدْعُو بِمَا يَقْطَعُ بِأَنّ اللّهَ تَعَالَى يَفْعَلُهُ سَوَاءٌ دَعَا أَوْ لَمْ يَدْعُ مثل قول اللّه تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ (الأَنْبِيَاء: 112)

أما ثانياً

فلأن الْمُرَاد مِنَ الدُّعَاءِ بِهِ طَلَبُ الدَّوَامِ عَلَى ذَلِكَ لِئَلَّا يُنْسَخَ ذَلِكَ مِنْ جَرَّاءِ غَضَبِ اللّهِ كَمَا غَضِبَ عَلَى الّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ (النِّسَاء: 160).

أما ثالثاً

فلأن أجزاء عظيمة من حياتنا ما زالت بحاجة إلى هذا الدعاء في تفاصيلها، ومن ذلك التفسير الجميل الذي ذكره مَكْحُولٌ حيث قال: ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ الغُرْبَةُ وَالْغُلْمَةُ أي شدة الشهوة مع وجود مانع من النكاح كالاغتراب، أو ضعف الإمكانات.